يوسف عز الدين عيسى

الرجل الذي باع رأسه

رواية

الدار المصرية اللبنانية

الرجل الذي باع رأسه

رواية

أديب، يوسف عز الدين عيسى، 1914-1999.

الرجل الذي باع رأسه: رواية /يوسف عز الدين عيسى .- ط1.-

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2021.

272 ص؛ 20 سم.

تدمك: 9789777952958

1- القصص العربية.

أ- العنوان. 813

رقم الإيداع: 2020/ 20242

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى:2021م

الدار المصرية اللبنانية

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف

وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًّا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

د. يوسف عز الدين عيسى

الرجل الذي باع رأسه

رواية

الدار المصرية اللبنانية

مقدمة

عندما خطرت فكرة رواية "الرجل الذي باع رأسه" على والدي، كان مستقلا القطار، عائدا من القاهرة إلى الإسكندرية، وكان في حالة صدمة إثر حادث أدهشه وأزعجه كثيرا.

كان والدي في القاهرة لحضور اجتماع مع أحد كبار المخرجين في مبنى الإذاعة، وقد حضر الاجتماع باقة من صفوة نجوم الفن، ومنتجا لم يستمر كثيرا لا في مجال الفن ولا في مجال الإنتاج. كان المخرج قد طلب من والدي كتابة فيلم إذاعيّ خصيصا للإذاعة؛ فقد كانت الإذاعة أحيانا تقوم بتسجيل أفلام سينمائية ثم إذاعتها في سهرة، لكنها لم تكن تصل للناس، لأنه، وبطبيعة الحال، تعتمد الأحداث السينمائية على الأحداث المرئية. ومن هنا، جاءت فكرة إنتاج فيلم يعتمد على الحوار، ويكون مكتوبا خصيصا للإذاعة كما هو الحال في التمثيليات.

وعهد المخرج إلى الدكتور يوسف عز الدين عيسى بكتابة الفيلم، فهو رائد الدراما الإذاعية في مصر والشرق الأوسط، وهو الذي عرفه الجمهور وأحبه من أعماله المسرحية الإذاعية التي قاربت الـ 400 عمل، وهو صاحب أول مسلسل إذاعي بعنوان "عدو البشر" وأشهر المسلسلات الإذاعية، منها: "العسل المر" و"المملوك الشارد" و"اليوم المفقود" ... إلخ.

ورغم أن أجور الكتابة كانت رمزية بالنسبة لأجور الممثلين بطبيعة الحال، إلا أن الدكتور يوسف عز الدين عيسى كان مؤمنا بالإذاعة كوسيلة حديثة لتوصيل أعمال وأفكار إبداعية للمتلقي، فهي المسرح الحديث الذي يصل إلى المستمع في داره بشكل تكنولوجي يحمل روح عصر العلم، فكان لا يبخل على الإذاعة بعطائه عند طلبها رغم ضيق وقته؛ فقد كانت له أعمالٌ أخرى مقروءة، علاوة على كونه أستاذا جامعيا في كلية العلوم. كان والدي مؤمنا بأن العلم والأدب ليسا متناقضين، بل على العكس، هما يكملان بعضهما البعض؛ فالعلم يجعل الأدب أكثر عمقا، والأدب يجعل العلم أسهل وأمتع في توصيله. ومن المعروف أيضا أن والدي كان إنسانا متواضعا، راقيا، يرى في الكتابة عملا نبيلا في حد ذاته، وكان كل من عمل معه يحترم فيه هذا الحس الراقي ويُكن له التقدير الكبير.

وفي الاجتماع رحب به كل النجوم؛ فقد اشترك معظمهم في أداء أعمال إذاعية وسينمائية له. جلسوا جميعا للحديث عن الفيلم، وانضم إليهم المنتج. وكان والدي قد جهز نسخا من السيناريو والحوار، فوزعها على الموجودين للاطلاع. بدأ الكلام في الأمور المادية والتكاليف وأجور الممثلين، فأراد المخرج تغيير مجرى الحديث قائلا: أرجو أن نعود لموضوع القصة ونسأل المؤلف عن رأيه، فقال المنتج: بل سنتكلم عن التكاليف والأجور أولا، وطبعا المؤلف هو آخر من يتحدث في هذا الموضوع.

فما كان من والدي إلا أن وقف بهدوء، وأخذ يجمع كل النسخ من السيناريو والحوار ثم اتجه إلى الباب، فقال المنتج مندهشا: إلى أين أنت ذاهب بالنص؟ فقال والدي: اكتبه أنت..

وحسبما قال والدي: لم أشعر بنفسي إلا وأنا في القطار في طريقي إلى الإسكندرية.

وفي القطار، تبادرت إلى ذهنه أفكار عديدة، وألهمته الأحداث التي دارت في الاجتماع بفكرة رواية "الرجل الذي باع رأسه".

وبعد عودته إلى المنزل، اتصل به المخرج يعتذر له عما بدر من المنتج، وحاول إقناعه بالاستمرار في موضوع الفيلم، فرجاه والدي ألا يذكر له أمر الفيلم مرة أخرى، وأن النص سوف يختفي إلى الأبد لأنه يريد أن ينسى كل ما له صلة بهذا الاجتماع.

وفعلا، اختفى النص، ولم يظهر حتى الآن، ولم ينفذ أحد فكرة الفيلم الإذاعي، فقد تضامن المخرج وكل النجوم الأجلاء مع الدكتور يوسف عز الدين عيسى، أما المنتج فلم يسمع عنه أحد بعد ذلك في مجال الفن!

وبعدها، كتب والدي رواية "الرجل الذي باع رأسه" عام 1960، كان عنوانها آنذاك "التاجر والفنان"، ثم غير العنوان إلى "ثمن رأس"، وأخيرا استقر رأيه على العنوان الحالي.

وعنوان "الرجل الذي باع رأسه" ساخر، المقصود به الرجل الذي بيعت رأسه رغما عنه. ومن المؤكد أن ارتباط القصة بالموقف الذي بدر من المنتج في الاجتماع الذي كان في مبنى الإذاعة، صادم ومؤلم بالنسبة لأي فنان، لكن أحيانا يجد الفنان في الألم الشرارة التي تحرك المشاعر وتلهم الخيال.

فاتن يوسف عز الدين عيسى

1

أدار مفتاح باب غرفته التي يعيش فيها فوقَ سطح العمارة ودخل وفي يده حبلٌ جديدٌ اشتراه في ذلك اليوم. كان رأسه في تلك اللحظة كأنه مرجل يغلي. الغرفة مظلمة. لم يشاهد الشاب شيئًا من محتوياتها عندما دخلها، إذ لم تكن عيناه قد تكيفتا للظلام بعد دخوله من السطح الذي تغمره شمس مايو. فتح النافذة الوحيدة فأضاءت الشمس الغرفة وبدت لعينيه محتوياتها التي لم يطرأ عليها أي تغيير منذ سنوات، كنبة بلدي ينام عليها وكرسي واحد من الخشب الرخيص ومنضدة صغيرة.

جلس الشابُّ على الكرسي ووضع يده على المنضدةِ، ثم استند برأسه على يده. لقد اتخذ قرارًا خطيرًا!

كل شيء سينتهي اليوم. سأضع حدًّا لهذا العذاب. المسألة لن تستغرق سوى بضع ثوان. هذا الحبل سيريحني من العذاب. سأثبته في سقف الغرفة وأصعد فوق الكرسي وألف الحبل حول عنقي، ثم أدفع الكرسي بقدمي، وفي مثل لمح البصر سينتهي كل شيء وينتهي معه عذابي في هذه الدنيا. لم أعد قادرًا على الاستمرار في الحياة. أنا أعيش في غابة مملوءة بالوحوش. الناس كالوحوش. كل إنسان لا يهتم إلا بنفسه. لا أحد يعطف على أحد. لو متُّ جوعًا فلن يشعُرَ بي أيُّ إنسانٍ. سأموت كما يموت الكلب الضال. إن لم أُنْهِ حياتي بيدي في هذه اللحظة فسوف أموت جوعًا. وإذا متُّ من الجوع فسأموت وأنا شاعر بالموت، ولكن لو أنهيتُ حياتي فلن أشعر بالموت. سينتهي كل شيء في مثل لمح البصر. ترى من الذي سيكتشف جثتي وهي مدلاة من الحبل؟ يكتشفها من يكتشفها، هذا شيء لا يهمني، سأكونُ قد غادرتُ الدنيا.

ثم تناول الحبل وصعد فوق الكرسي، وأخذ يثبت الحبل في سقف الغرفة.

لا بد من تثبيت الحبل جيدًا حتى لا يفلت من السقف قبل أن أموت فتكون مأساة سخيفة. أنا لا أريد أن أعيد الكرة. مرة واحدة تكفي. ها هو ذا الحبل متين لأنه جديد، اشتريته بكل ما بقي معي من نقُودٍ. الرجل الذي اشتريتُه منه لم يكن يتصور أنني اشتريته لأشنق به نفسي. لا يوجد أناس كثيرون يشترون الحبال ليشنقوا أنفسهم بها. المجرم المحكوم عليه بالإعدام شنقًا يكون خائفًا وهو مسوق إلى حبل المشنقة، ولكنني لست خائفًا. أنا فرحان. شيء أهون من شيء. الذي يجبرك على تجرع المرّ شيء أمرُّ منه، سأضع حدًّا لعذابي. ما فائدة الحياة إذا كانت عذابًا في عذاب؟ تكفي خمسة وعشرون عامًا على ظهر هذه الدنيا، خمسة وعشرون عامًا حافلة بالفشل والألم والعذاب. الدنيا كالمرأة، من يتزوجها ينبغي أن يكون قادرًا على نفقاتها. أنا غير قادر على هذه التكاليف، ولذا فسأطلق الدنيا. أنتِ طالقٌ بالثلاث يا دنيا. طالقٌ بالثلاثِ، طلاقٌ بائِنٌ. لقد حُرمت عليّ الدنيا. الكرسي ثابت تحت قدمي.

كان رمزي في هذه اللحظة واقفًا فوق الكرسي وقد أدخل رأسه في الحلقة التي صنعها في الحبل مديرًا ظهره لبابِ الغرفة كما أدار ظَهرَه للدنيا. وقال بصوت مسموع: اغفر لي يا رب. أنت أدرى

بعذابِي وأنت غفور رحيم. أنتَ تعلم يا ربي أنني لم أتناول طعامًا منذ يومين ولا يوجد في هذه الدنيا من يعطف عليّ.

وبينما هو يهمّ بقذف الكرسي بقدمه شعر بيديْن تحتضنانه بقوة وتعلقانه في الفضاء حتى لا يسقط جسده فيطبق الحبل على عنقه، وسمع صوتًا يقول: أنا سأعطف عليك. اثبت في مكانك. إياك أن تتحرك.

التفت الشاب إلى الخلف في فزع، فرأى رجلًا طويل القامة نحيلَ الجسد، لم يرَه من قبل. امتدت إحدى يدي هذا الرجل إلى عروة الحبل فأخرج منها رأس الشاب بينما ظلت اليد الأخرى مطبقة عليه ترفعه إلى ما فوق مستوى الكرسي. فنظر إليه الشاب غاضبًا وقال: من أنتَ؟ فأجاب الرجل في هدوء: أحد جيرانك.

- وما الذي أحضرك هنا في هذه اللحظة؟!

- جئت لأنقذ حياتك. رأيتك من النافذة وأنت تُثبِّت الحبل في سقف الغرفة وفهمت ما أنت عازم عليه!

فقال الشاب بدهشة: رأيتني من النافذة؟!

- أجل. إن نافذة منزلي تطل على نافذة غرفتك. أنا أسكن في المنزل المقابل لمنزلك. في المرة التالية إذا أردت أن تشنق نفسك فينبغي أن تغلق النافذة!

- ولكني لم أطلب منك الحضور لإنقاذ حياتي.

فأجاب الرجل بهدوء: هناك أشياء كثيرة ينبغي أن يفعلها الإنسان من تلقاء نفسه دون أن يُطلَبَ منه ذلك.

وامتدت يد ذلك الرجل الغريب إلى الشاب وسحبه من يده قائلًا:

- تعال. تعال نجلس هنا على الكنبة.

وجلسا معًا على الكنبة، فالتفت الشاب إلى الرجل الغريب قائلًا:

- حياتي ملكي، وأنا حر التصرف فيها!

فقال الرجل الغريب: كلا، لست حر التصرف في حياتك. وجودك في الحياة ذو علاقة بالمجتمع الذي تعيش فيه، ولا حق لك في التصرف في حياتك وكأنك الإنسان الوحيد في الدنيا.

فاختلجت عضلات وجه الشاب ووضع رأسه بين يديه وأجهش بالبكاء، وقال:

- أنا إنسان وحيد في الدنيا، لا أحد يهمه أمري أو يحزن لموتي.

نظر إليه الرجل الغريب برهةً ثم ابتسم قائلًا:

- لقد أسأتَ الظنَّ بالنّاس. أنا مثلا، اهتممت وأسرعت إليك لأنقذ حياتَكَ على الرغم من عدم وجود أية علاقة تربطنا، حتى اسمك لا أعرفه، ولم يسبق لي التشرف بمعرفتك.

- معرفتي لا تشرِّف أيَّ إنسان. من الذي يتشرف بمعرفة إنسانٍ بائسٍ فقير جوعان أحقر من النملة التي تدوسها الأقدام دون أن تشعر بوجودها؟!

- ما اسم الكريم؟

- رمزي.

فقال الغريب وهو لا يزال واضعًا يده حول كتفي الشاب:

- قل لي يا رمزي، ألا تجد من تشكو له أحزانك؟

- لا.. أنا وحيدٌ في الدنيا.

- من الذي يسكن الغرفة التي بجوار غرفتك؟

- ذكر بط!

- هل تمتلك ذكرَ البطِّ هذا؟

- لو كنت أمتلك ذكر بط لما فكرتُ في شنق نفسي.

- ومن الذي يمتلكه؟

- أحدُ السكان.

- ألم تفكر وأنت جوعان لهذه الدرجة أن تستولي على ذكر البط هذا وتتصرف فيه؟!

- لم تخطر هذه الفكرة على بالي مطلقًا، لست لصًّا.

- إذن فأنت شاب أمينٌ، والأمانة من أشرف الصِّفاتِ، والناس يشرِّفُها معرفة إنسانٍ فقيرٍ أمينٍ أكثر مما يشرفها التعرف على لص غني.

وسادتْ فترةُ صمت قطعها الرجل الغريبُ قائلًا: هل من الممكن أن أعرف السبب الحقيقيَّ الذي دفعك لمحاولة الانتحار؟ فأطرق رمزي إلى الأرض، وقال بمرارة:

- الفشل.. أنا إنسان فاشل. فشلت في كل شيء، بائس، حقير، أنا أحقر من الدودة، إذ قد يكون للدودة فائدة، أما أنا فلا فائدة ترجى مني. والإنسان الذي لا فائدة منه يتعذر عليه الحصول على لقمة العيش. لماذا يعيش إنسانٌ تافه مثلي ويقاسي من هموم الحياة؟ لقد فشلت في كل شيء، حتى الانتحار فشلت فيه كما رأيت، كان ينبغي أن أغلق النافذة.

- أنت لم تفشل في الانتحار. أنا الذي أسرعت لإنقاذك. لو لم أنقذك لتم انتحارك على أحسن وجه! قد يعتقد الإنسان أنه فاشل لأن فُرَص النجاحِ لم تُتَحْ له.

أسند رمزي رأسه بيديه وانخرط من جديد في بكاءٍ عنيف، وعندما هدأت موجة البكاء التي اجتاحته التفت إلى الرجل الغريب وقال في مرارة ويأس:

- لقد فشلت في كلِّ عمل قمت به.

- وما هو آخر عمل قمت به؟

- حلاق.

- وكيف فشلت في هذا العمل؟

فحاول رمزي الابتسام ولكنّ الابتسامة ماتت على شفتيه وقال:

- قطعت أذن أحد الزبائن بالموسى!

فبدت الدهشة على وجه الرجل الغريب وقال:

- قطعت أُذْن أحد الزبائن؟ وكيف حدث ذلك؟!

- كنت ممسكًا بالموسى أحلق للزبون الشعر الذي بجوار الأذن، وفي هذه اللحظة التعسة سمعت فرقعة بجوار المحل فاهتزت يدي وقطعت أذن الزبون. كانت الفرقعة صادرة عن (بمبة) صغيرة فرقعها طفل يلهو بجوار المحل، وكانت النتيجة أن طردنِي صاحب المحل، وانتشر الخبر فلم أستطع العمل بعد ذلك.

فأطرق الرجل الغريبُ برهةً ثم قال: اسمع يا رمزي، فشَلُكَ في مثل هذه الأعمال لا يدل على أنك إنسان فاشل.

فنظر إليه رمزي بدهشة وقال:

- وعلام يدُلُّ إذن؟ على النبوغ؟ على العبقرية؟!

- قد تكون لديك موهبة لم تتح لها الفرصة لتظهر وَتُكْتَشف.

قال رمزي بسخرية:

- موهبة؟! وما هي هذه الموهبة؟!

كان على أرض الغرفة بعض نوى البلح متناثرةً لم يحركها أحدٌ من مكانها منذ بضعة أيام، فنظر إليها الرجل الغريب وقال:

- انظر، أترى نواة البلح هذه الملقاة على أرض الغرفة؟

- نواة بلحة؟! وما علاقة نواة البلحة بالموضوع؟

- هذه النواة الملقاة فوق أرض غرفتك ننظر إليها الآن كشيء حقيرٍ تافه، ندوسها بأقدامنا دون أن نشعر بوجودها، ولكن لو منحناها الفرصة وغرسناها في تربة صالحة فسوف تنمو وتزدهر، وتصبح نخلة باسقة تثمر البلحَ اللذيذ الطّعم، ويراها الناس من بعيدٍ شامخة الارتفاع رافعةً رأسها للسماء في زهو واعتداد.

فتململ رمزي في جلسته ونظر إلى الرجل الغريب وقد نفد صبره وقال:

- هل أتيت لتضيع وقتي بمثل هذا الهذيان عن النوى والبلح وتعطلني عن شنق نفسي؟ ما علاقة النواة بإنسان بائس مثلي؟ وهل أنا نواة بلحة؟!

فقال الرجل الغريب بهدوء:

- أليس من الممكن أن تكون لديك حاسَّة من الحواسِّ، قوية، كحاسّة السمع أو حاسّة اللّمس، يمكنك استخدامها بمهارة في عمل من الأعمال النافعة؟ أو موهبة كالموهبة الموسيقية مثلًا، ولكن ظروف حياتك لم تسمح لك باكتشافها؟

قال رمزي في يأس:

- أرحْ نفسكَ. لا فائدة تُرجى منِّي. لم يمنحني اللهُ أيَّة موهبةٍ من أَيِّ نوعٍ على الإطلاق. أنا أدرى بنفسي.

فنظر إليه الرجل الغريب بطرف عينه وقال:

- سأخبرك بشيءٍ لم يخطر على بالك، وقد تتعجب له أشدَّ العجبِ.

فنظر إليه رمزي باهتمام وقال:

- وما هو هذا الشيء؟

قال الرجل الغريب:

- ما رأيك في أنَّك مُوسيقيٌّ موهوبٌ دون أن تدري؟

فحاول رمزي أن يَبْتَسم للمرةِ الثانيةِ ولكنّ الابتسامة ماتتْ على شفتيْه في هذه المّرة أيضًا، ثم قال ساخرًا:

- وكيفَ عرفتَ ذلك؟ أنا لم أركَ في حياتي إلا في هذه اللّحظة السّعيدةِ!

فأطرق الرجل الغريب للأرض وثبّت نظرَهُ على نواة البلحة مسترجعًا في ذاكرته أنغامًا موسيقية سبقَ أنِ التقطَتْها أذناهُ وقال:

- أنا أَسْكُن في هذه العمارة التي أمام منزلك منذ أكثر من عام، ومنذ ذلك الحين وأنا أسمَعُك تعزف على النّاي كل ليلة قبل أن أنام، تعزف أنغامًا حزينةً ولكنها جمِّيلةٌ، قد لا أكون مبالغًا إذا قلت لك إنها أجمل أنغام سمعتُها في حياتي. كنت أنتظر سماعَها كل ليلة في شوقٍ ولَهْفَةٍ، وأشعر بلذةٍ لا تعادِلُها لذّة وأنا أنَصت إليها. أرأيت كيف كنت سببًا في إسعاد إنسان لم تره عيناك دون أن تدري؟ والموسيقى التي تؤثر في النفس هذا التأثير العميق لا بد أن يكونَ مبعثُها موهبةً أصيلةً دفينةً، لهذا السبب أسرعتُ بالمجيء إليكَ لأحول بينك وبين الانتحار، لأني أعرف قدركَ وأقدّر موهبتك التي أسَعَدَتْني لياليَ عديدة.

وصمت الرجل الغريب فترةً من الزمَنِ ثم التفت إلى رمزي وقال:

- أنت بطبيعة الحال محتاجٌ إلى فلوس لتُصْقِلَ موهِبتَك ويشعر بها أكبر عدَدٍ منَ النَّاسِ. كلُّ شيء في الدنيا يحتاج لفلُوس. الفقرُ يحجبُ مواهب كثيرة. أنا على أتمّ استعدادٍ لإعطائك هذه الفلوس.

فقال رمزي بدهشة:

- تُعطيني فلوسًا؟!

- أجل. أنا رجُلٌ غني والحمد لله. ربحتُ من التِّجارة أموالًا طائلةَ، ومستعدٌّ لإعطائِكَ ما أنتَ في حاجةٍ إليهِ من المالِ.

فقالَ رمزِي وهو غَيْرُ مصدِّقٍ لما تَسْمعه أُذُناه:

- وهلْ ستُعْطيني هذه النقُودَ لوجه الله؟!

قال الرّجل الغريب مبتسمًا:

- كلا. لا أحدَ يُبَعْثِر نقودهُ لوجه الله. لديك شيءٌ ثمينٌ أرغَبُ في شرائه.

فابتسَمَ رمْزي ابتسامةً يظلُّلها اليأسُ وقال:

- أنا لا أمتلكُ أيّ شيء ذي قيمةٍ، ها هي غرفتي أمامك وفيها جميع ممتلكاتي، وهي كما ترى أشياء تافهةٌ عديمة القيمة لا تساوي شيئًا.

فقال الرجل الغريب بلهجة تنمّ عن الصِّدْقِ:

- كلا، يوجد شيءٌ في هذه الغرفة عظيم القيمةِ في نظري.

فقال رمْزِي في دهشةٍ:

- هُنا؟! في غُرفَتي؟!

قال الرجل الغريب مؤكِّدًا:

- نعم. هنا في غرفتك شيءٌ ثمينٌ، غالي الثّمن!

قال رمزي في سخريةٍ:

- وما هو هذا الشيءُ يا تُرَى؟

- فَنَظر إليه الرجل الغريب نظرةً طويلةً ثم قال:

- رأسُكَ! هلْ تقْبل أن تبيع لي رأسَكَ؟!

فضحكَ رَمْزِي في مرارةٍ وقد خاب ظنُّه بعد أنْ لاح لهُ بريقٌ من الأمل وقال:

- أبيعُ لك رأسي؟ كان من الممكن أن تنتظر دقيقةَ واحدةً بعد أن أشنق نفسي، وتأخذ جثتي بأكملها بلا ثمنٍ إذا أردتَ!

فاعتدل الرَّجل الغريب في جلسته، ونظر إلى رأس رمزي ذي الشَّعر الأشعث كمَنْ يفحَصه، ثم قال:

- أنا لا أهْزل بل أنا جادٌّ في طلبي، هل تقبل أن تبيع لي رأسك؟!

فقال رمزي ساخرًا، وقد اعتقد أن الرجل الجالس بجواره لا بدَّ وأن يكونَ مختل العقل:

- وماذا سأصنع بالفلوس يا أستاذ بعد أن أُصْبح بلا رأسٍ؟!

- أنت لا تفهمُني؟

- والله ما أنا فاهِمٌ أيّ شيءٍ! هل أتيتَ لتسْخَر مِنِّي وأنا في هذه المحنة؟! هل أنا في حالة تسمح لي بالإنصاتِ إلى مثل هذا الهذيان؟! حقيقةً لا يشعرُ بالنارِ إلا من يضع يده فيها، ومن يده في الماء ليس كمن يده في النار. حرامٌ عليكم يا ناس، اتركوني في حَالي، أنا مسكين.. بائس.

وتهدج صوت رمزي وهو ينطق بهذه الكلمات، وكان على وشك البكاء فأحاط الرجل الغريب كتفيه بيده وقال:

- سأبرهِنُ لك الآن على أنّني لم أحضر لأسخر منك أو أستهزئ بك، وكلُّ ما أريده منك هو موافقتك على هذا العرض، هل تقبل أن تبيعني رأسك؟!

فقال رمزي وقد بدا الفزع في عينيه:

- هل تريد أن تقْطع رأسي وتأخذهُ؟!

فضحك الرجل الغريب وقال:

- لقد حضرت لأنقذ حياتك لا لأسلبك الحياة، ستظلُّ محتفظًا برأسك مدى حياتك على سبيل الإعارة، أي أنني سأشترِيهِ وأتركه في موضعه فوق كتفيك، سأتركه أمانةً عندك وستصبح أنت بمثابة حارسٍ عليه.

فقال رمزي وهو غير مصدِّقٍ لما يسمع:

- رأسي أمانةٌ عندي؟! والله عال، وافرض أنِّي وافقت، بكم تشتريه؟

- أشتريه بألفي جنيه! (*)

فضحك رمزي وقال في سخريةٍ متحسسًا رأسه بيدِه: ألفان من الجنيهات ثمنًا لهذا الرأس؟ والله عال، وهل هذا شيء يصدقه العقل؟ ماذا تظنّني يا أستاذ؟ أنا إنسان فقير ولكنني لست معتوهًا لأصدق مثل هذا الكلام الفارغ!

- طبعًا لستَ معتوهًا، لو كنتَ معتوهًا لما اشتريت رأسَك بمليم واحدٍ، قلت لك إنني جاد في هذا العرض، وكما قلت سأبرهن لك على أنني أعني ما أقول.

فقال رمزي وقد بدأت تستبد به الحيرة ويعصف به القلق:

- هذا جميل، ولكن ما الذي ستستفيده أنت من شراء رأس سيظل في موضعه فوق كتفي صاحبه؟ قل لي، ماذا ستستفيد؟!

- مسألةُ مزاج. أنا حر في أموالي أفعلُ بها ما أشاء.

ووضع الرجل الغريب يده في الجيب الداخلي لستْرته وأخرج دفترًا للشيكات وقال:

- أنا مستعد في هذه اللحظة لكتابة شيك بمبلغ الألفي جنيه وتسليمه لك لكي تتأكد من صدق ما أقول. ما اسمك بالكامل؟

- رمزي عبد الحميد.

فأخرج الرجل قلمه الحبر، وكتب في الشيك وهو ينطق كل كلمة:

- ادفعوا لأمر السيد/ رمزي عبد الحميد مبلغ ألفين من الجنيهات لا غير، وها هي إمضائي وها هو التاريخ. ما رأيك الآن؟ هل تأخذ الشِّيكَ وتقبلُ أن تبيع لي رأسك؟

فنظرَ رمزي إلى الشِّيكِ وهو لا يزال في يد الرجل الغريب، واعتقد أن الله قد ساق إليْه في هذه اللحظة رجلًا معتوهًا يقبل إعطاءه ألفينِ من الجنيهات في مقابل شيء وهْميٍّ، فنظر إلى الرجل وقال:

- إذا كانت المسألة فيها ألفان من الجنيهات فلا مانع. لقد قبلت بيع رأسي بهذا المبلغ! أعطني الشِّيكَ، ولكن حذارِ أن يكون بلا رصيد فتدخل السجن!

ولكن الرجل الغريب ظل قابضًا بيده على الشيك ولم يسلِّمْه لرمزي وقال:

- ليس الأمرُ بهذه السهولة كما تتصوّر.

فتلاشت ابتسامة كانت قد ارتسمت على شفتي رمزي وقال للرجل:

- وماذا تريد مني إذن؟ لقد قبلتُ أن أبيعك رأسي على شريطة أن أحتفظ به طوال حياتي على سبيل الإعارة كما قلت، ماذا تريد مني أكثر من ذلك؟

فقال الرجل الغريب مبتسمًا:

- نعم، ولكن رأسك يعتبر عقارًا أو أملاكًا سأشتريها بنقُودي وحُرّ مالي، ولا بد قبل أنْ أسلِّمك ثمنه أن تذهب معي لتسجيل مِلْكيَّتي له في إدارة الشَّهر العقاري.

فقال رمزي بدهشةٍ:

- أتريد أن تسجّل ملكيتك لرأسي في الشهر العقاري؟!

- هذا شيءٌ طبيعي، إذ كيف أثبت ملكيتي لرأسك إن لم أسجِّل البيع والشِّراء في الشَّهر العقاري كأيِّ عقارٍ آخر؟!

فازداد رمزي اعتقادًا بأنه يتحدَّث مع إنسانٍ مجنونٍ وأراد أنْ يجاريه إلى آخر لحظةٍ فقال:

- لا مانع لديّ، نذهب معًا لتسجيل البيع والشِّراء في الشَّهر العقاري!

وقاما معًا، وفي هذه اللحظة سرت نسمَةٌ من خلال النافذة جعلتْ حبل المشنقة يتأرجح..

خرجا من الغرفة إلى سطح المنزل. ثم بدآ يهبطان السلم، ورمزي في شبه حلم لا يصدِّق أنه بعْدَ دقائق معدودةٍ سيصبح مالكًا لألفين من الجنيهات، وهو الذي لم يمتلك في حياته ألفين من الملاليم! وفي مُقابل ماذا؟ في مقابل أن يبيع رأسه لذلك الرجل المجنون الذي لم يره ولا يعرف عنه أي شيء، والعجيب أنه سيظل متمتعًا بوجود رأسه فوق كتفيه، على سبيل الإعارة، كما يقول ذلك الرجل المعتوه! وماذا سيستفيد هذا الرجل من رأسٍ تافهٍ كهذا؟ رأس فشل في كل عمل ولم يمتلئ بالعلم والمعرفة؟ كانت هذه الأفكار تدور في رأس رمزي.

(*) عندما كتب د. يوسف عز الدين عيسى هذه الرواية عام 1960 كانت ألفا جنيه تعادل تقريبا بضعة ملايين في وقتنا الحالي، و هذا ينطبق على كل الأسعار المذكورة في الرواية.

استقل الرجل سيارته وأجلس رمزي بجواره ووصلا إلى مأمورية الشهر العقاري، ووقفا أمام الموظفِ المختصِّ وطلب الرجل الغريب تسجيل ملكية رأس رمزي! فنظر الموظف إليهما وقد اتسعت عيناه، وفتح فمه كفمِ السمكة الميتة ولم يصدق ما سمعه فقال:

- لا مؤاخذة، ماذا قلت؟

فقال الرجلُ الغريبُ وقد وضع يده على رأس رمزي:

- أريدُ تسجيل ملكية هذا الرأس!

فقال الموظف بسخريةٍ وهو لا يزال غير مصدِّقٍ لما سمعه:

- ولماذا تضع يدك على رأسه هكذا؟ هل تريد أن تأخذ الرأس بوضع اليد؟! وضحك، فقال الرجل الغريب في حزم وجدية:

- أرجوك، لا تضيع وقتنا، قلت لك إنني أرغب في تسجيل ملكية رأس هذا الشاب، هنا في الشهر العقاري، أظن أن كلامي واضح ولا غموض فيه.

فضرب الموظف كفًّا بكف وقال في غضب:

- لست أدري من منا الذي يضيع وقت الآخر. أنت يا أستاذ الذي تضيِّع وقتي بهذا الهذيان. ثم صاح موجهًا حديثه إلى الناس الذين يملأون المكان:

- تعالوا يا ناس، تفرجوا، هذا الرجل يريد تسجيل ملكية رأس هذا الشاب. لي الآن في هذه الوظيفة واحد وعشرون عامًا، تنقلت في خلالها في جميع أنحاء الدولة ولم تمر بي حالة مثل هذه، لا يوجد في تاريخ الشهر العقاري في البلد من أوله إلى آخره رأس سجلت ملكيته غير الرأس السوداء، وهي قطعة الأرض التي بجوار مدينة الإسكندرية. أنا لا أتصور يا عالم كيف يشتري إنسان رأس إنسان آخر ويأتي لتسجيل ملكيته في الشهر العقاري؟! هل تريدهم أن يرفتوني ويخربوا بيتي على آخر الزمن؟!

كان الناس قد تجمّعوا حول هذا المشهد الغريب، بعضهم يضحكُ، وبعضهم الآخر لا يبدو عليه أي انفعال، والبعض يشرئب بعنقه لرؤية ذلك الرأس المباع! ونظر الرجل الغريب إلى الموظف في هدوء وقال:

- أود أن أسأل حضرتك سؤالًا وتجيبني عنه بكل صراحة.

قال الموظف بصبر نافد:

- تفضل اسأل.

قال الرجل الغريب في هدوء:

- هل يوجد نص في القانون يمنعني من شراء رأس أي إنسان؟ ما دمت لن أفصله عن جسده وسأتركه له مدى حياته على سبيل الإعارة؟!

فأجاب الموظف:

- كلا، لا يوجد نص في القانون لأن المشرعين للقوانين لم يخطر ببالهم أن شيئًا كهذا يمكن أن يحدث ليضعوا قانونًا بشأنه!

ثم التفت الموظف إلى رمزي الذي كان واقفًا في هدوء واستسلام وكأن الأمر لا يعنيه وقال له:

- وأنت يا أستاذ، هل أنت موافقٌ على بيع رأسك لهذا الرجل؟!

فأجاب رمزي مبتسمًا:

- أوافقُ طبعًا، وإلا لما حضرتُ معه إلى هذا المكان. المهمُ أن أقبض ألفين من الجنيهات بالتمام والكمال ثمنًا لرأسي، وما دمت سأظل محتفظًا برأسي مدى الحياة على سبيل الإعارة كما يقول فلن يضيرني شيء!

فأطال الموظف النظر إلى رأس رمزي، ثم قال:

- وبعد الوفاة؟ هل اتفقتم على مصير رأسك بعد وفاتك؟

قال رمزي بعدم اكتراث:

- بعد الوفاة؟ بعد الوفاة هو حر فيه، ماذا سأصنع برأسي بعد وفاتي؟!

والتفت الموظف إلى الرجل الغريب في ذهول وسأله:

- وما الذي أعجبك في رأسٍ كهذا لتشتريه بهذا المبلغ الكبير؟

فقال الرجل الغريب:

- مسألةَ مزاجٍ، مسألةَ شخصيةَ، ولا أحِب أن يتدخّل أحدٌ في أموري الشخصية أنا حر في مالي أتصرف فيه كَما أشاء.

فأخذ الموظفُ يضربُ كفًّا بكفٍّ ويقول وكأنه يحدّث نفسه:

- رِزقُ الهبل على المجانين. هل يستحق رأسٌ كهذا مبلغ ألفين من الجنيهات؟!

ثم التفت إلى الرجل الغريب وقال:

- وما رأيك في رأسي أنا؟ بكم تشتريه؟

فأجاب الرجل الغريب دون أن يبدو عليه أي انفعال:

- رأسُك لا يساوي مليمًا واحدًا!

فأطال الموظف النظر إليه وقال:

- شيءٌ عجيب!

فقال الرجل الغريب وقد بدأ يفقد هدوءه:

- تسمح تخلصنا وتسجل العقد! ليس لديّ وقت أضيِّعه، لديّ أعمال كثيرة أريد أن أنجزَها.

فانحنى الموظف على مكتبه وأخرج بعض الأوراق وقال:

- الأمرُ لله! لله في خلْقه شئونٌ.. نكتب العقد.

وتمت إجراءات تسجيل العقد، فالتفت رمزي إلى الرجل الغريب وقال:

- والآن، هل يمكنني أن أتسلم الشيك أو لا تزال هناك بعض الإجراءات الأخرى؟

فقال الرجل الغريب:

- كلا، لا توجد إجراءات أخرى.

وأخرج الشيك من جيبه وسلمه لرمزي قائلًا:

- ها هو الشِّيك. تفضل، وسأذهب معك إلى البنك لتطمئنَّ على صرفه.

استقلا معًا السيارة ووصلا إلى البنك وقدم رمزي الشيك إلى الموظف المختص فنظر إليه الموظفُ في ارتيابٍ عندما رأى ملابِسَهُ الرَّثة وقال له:

- لا بد من وجودِ شخصٍ معروفٍ لدينا يضمنك لصرف هذا المبلغ.

فتقدم الرجل الغريبُ وضمنه، ولم يصدق رمزي عينيه عندما أخذ موظف البنك يعد الألفي جنيه. تناول رمزي النقود وهو في شبه ذهولٍ ووضعها في جيوب بدلته الممزقة.

خرج رمزي من البنك في صُحبةِ الرّجل الغريبِ ونظر إلى الشارع وكأنه يراه لأول مرة. لقد أصبح الشارع في نظره جميل المنظر. رأى الأشجار على جانبي الطريق يداعب النسيم أوراقها، وشعر بحب لجميع البشرِ ورغبةٍ في أن يحتضنَهُم ويقبلهُم. ونظر إلى السماء وكأنه لم ير لونها الأزرق منِ قبل، والتفت فإذا بالرجل الغريب ما زال واقفًا بجواره فأرد أن يودِّعه وينصرف، ولكن الرجل الغريب أمسك يده قائلًا:

- إلى أين أنتَ ذاهبٌ؟

- لستُ أدري. سأسير في الشوارع على غير هدى. أشعرُ بالفرح يملأ قلبي، وهو شعور لم يكن لي عهد به من قبل.

- قبل أن نفترق أود أن أستضيفك في منزلي ونتناول غداءنا معًا، ألديك مانع؟

قال رمزي والفرحة تلمع في عينيه:

- لا مانع لديّ، ولكن، لماذا في منزلك؟ لماذا لا نذهب إلى مطعم من المطاعم؟

فأجاب الرجل الغريبُ مبتسمًا:

- الطعام في منزلي ألذ، والجو أهدأ، سنكونُ بمفردنا، ونحنُ جيرانٌ.

وصلا إلى منزل الرجل الغريب. إنه يقيم في الشقة رقم 18 في المنزل المقابل لمنزل رمزي. أخرج الرجل الغريبُ المفتاح وفتح الباب ودخلا، ثم أقفل الباب بالمفتاح.

كان ضوء الشمس يملأ البهْوَ، فلقد ترك الرجل الغريب النوافذ مفتوحةً إذ لم يتسع الوقت لإغلاقها عندما أسرع لإنقاذ حياة رمزي، وأخذ رمزي يدِيرُ بصره في أنحاء البهو، في الوسط توجد منضدة للأكل من الطراز القديم وحولها أربعة كراسي، وعلى يمين الداخل يوجد بوفيه مُحلى بنقوش بارزة، وفوق البوفيه سلة بها كمية كبيرة من الموز، وفي الجهة المقابلة للبوفيه توجد نافذة بجوارها كنبة فاخرة وكرسيان من نفس طراز الكنبة، ولكن الشيء الذي روع رمزي وجعله يقف مشدوهًا فاتحًا فمه هو ما رآه على جدران البهو، عددًا هائلًا من رؤوس الحيوانات الثديية معلقًا على هذه الجدران!

ففي أعلى الجدار خلف البوفيه رأس حيوان من الحيوانات البرية ذو قرنين كبيرين ملتويين، وبجواره رأس غزال، وإلى اليسار رأس زرافة، وعلى الجدار الآخر ناحية الأريكة يوجد في الوسط رأس ثور وإلى اليمين رأس وحيد القرن وفي الجهة الأخرى رأس فهد!

سرت في جسد رمزي قشعريرة وهو يشاهدُ هذا الحشدَ الهائِلَ من رؤوس الحيوانات وشعر كأنه في مقبرة. التفت إليه الرجل الغريبُ وقال:

- تفضل يا أستاذ رمزي، تفضل اجلس، مالك واقف هكذا؟

فجلس رمزي على أحد الكراسي وعيناه ما زالتا تتأملان هذه الرؤوس، وجلس الرجل الغريب على الكرسي المقابل، وساد الصمت برهة. قطع الرجل الغريب فترة الصمت قائلًا:

- أنا أعيش بمفردي في هذا المنزل. ما رأيك؟ أليس الجلوس وتناول الطعام هنا أجمل وأهدأ من تناول الطعام في أي مطعم من المطاعم العامة؟

شعر رمزي بمزيد من الخوف عندما علم أن الرجل يعيش بمفرده. نظر إليه والفزع يطل من عينيه وقال:

- ما هذه الأشياء المعلقة على الجدران؟!

فقال الرجل الغريب:

- آه، هذه؟ إنها أشياء تضفي على البهو روعة وجمالًا حتى لا تبدو الجدران جرداء. هي في نظري أفضل من الصور الزيتية. إنها تؤنسني في وحدتي!

قال رمزي في فزع:

- كلها رؤوس حيوانات!

فضحك الرجل الغريب وقال:

- نعم، رؤوس محنطة، أنا حنطتها بنفسي ولكل رأس منها ذكرى من الذكريات.

ووقف ذلك الرجل وكأنه مدرس يشرح درسًا لأحد التلاميذ وأخذ يشير إلى الرؤوس قائلًا:

- هذا رأس فهد اصطدته في السودان وتعبت كثيرًا حتى تمكنت من صيده، وهذا رأس وحيد القرن كدت أدفع حياتي ثمنًا لصيده، وهذا رأس ثور وحشي، وهذا رأس...

ولم يكمل حديثه إذ قاطعه رمزي قائلًا وقد شحب وجهه:

- يبدو أنك مغرم بتحنيط الرؤوس!

فجلس الرجل وقال:

- إنها هوايتي المفضلة.. هواية جميلة!

فقال رمزي بخوف:

- أخشى أن تكون عازمًا على تحنيط رأسي وتعليقه هنا على الجدار، بجوار رأس الثور!

فضحِك الرجُلُ الغريبُ وترك سؤال رمزي بلا إجابة وقال:

- سأذهب لتحضير الغداء. لا يوجد في منزلي خدم، أنا أخدم نفسي. كل شيء موجود عندي في الثلاجة فلن يستغرق إعداد الطعام سوى دقائق.

واختفى الرجل الغريب داخل المنزل وترك رمزي بمفرده وفي جسده رعشة خوف.

أنا أستحق أن يحنط رأسي ويعلق بجوار الثور فأنا غبي وحمار!.. ما الذي جعلني أدخل منزل رجل كهذا وفي جيبي مئات الجنيهات؟! أنا لا أعلم شيئًا عن هذا الرجل، ولا بد أنه استدرجني بهذا المبلغ من المال ليقتلني ويأخذ رأسي ليحنطه ويستولي في نفس الوقت على النقود التي أعطاها لي. إنه يهوى تحنيط الرؤوس! لعله يرغب في إضافة رأس إنسان إلى مجموعة الرؤوس المحنطة ليشبع هوايته المرعبة.. لقد وقعت في فخ!

وخطرت لرمزي فكرة الهرب من ذلك المنزل العجيب، فقام بهدوء واتجه نحو الباب ليفتحه وينطلق منه هاربًا كما يهرب المحكوم عليه بالإعدام، ولكنه وجد الباب مغلقًا بالمفتاح، فأسرعت دقات قلبه!

آه.. لقد وقعت، إنها جريمة مدبرة. لقد أغلق عليّ الباب بالمفتاح. وتذكر رمزي أنه منذ فترة قصيرة كان واقفًا على الكرسي في حجرته واضعًا الحبل حول رقبته للتخلص من الحياة.

على أية حال أنا كنت عازمًا على الانتحار، ولكنني عندما صممت على التخلص من الحياة لم تكن معي هذه النقود. هذه النقود التي في جيبي منحتني الرغبة في الحياة، فضلًا عن ذلك، فإنني عندما قررت أن أنهي حياتي بيدي اخترت الطريقة التي تعجبني، ولكنني لا أدري بأية وسيلة سيقتلني هذا الرجل.. كل ما أتمناه أن يقتلني بدون ألم، لا داعي لأن أتألم قبل أن أموت.

وفي هذه اللحظة ظهر الرجل الغريب في البهو وفي يده اليمنى طبق كبير به دجاجتان محمرتان وفي اليد الأخرى طبق آخر به كمية من الأرز. وضع الطبقين على المائدة قائلًا:

- سأحضر باقي الطعام حالًا.

واختفى داخل المنزل. ملأت رائحة الطعام خياشيم رمزي.

يبدو أنني سآكل فعلًا، الموت بعد تناول هذا الطعام اللذيذ أفضل من الموت وأنا جائع. المحكوم عليهم بالإعدام يغذونهم جيدًا قبل تنفيذ الحكم!

حاول رمزي أن يمد يده ويتناول بعض الطعام الذي لم يقو على مقاومة إغرائه، ولكنه رأى الرجل الغريب مقبلًا وفي إحدى يديه سلة صغيرة بها خبز وفي اليد الأخرى طبق متوسط الحجم به سمك مقلي. وضع الطبقين على المائدة في صمت ثم اتجه نحو البوفيه وأحضر الموز ووضعه على المائدة، ثم فتح البوفيه وأحضر بعض الأطباق والشوك والملاعق ووضعها بنظام دقيق على المائدة، وتذكر أنه نسي إحضار الماء، فهرول داخل المنزل وعاد ومعه دورق من الماء المثلج وأحضر كوبين من الزجاج الفاخر وضعهما على المائدة، ونظر إلى رمزي قائلًا:

- تفضل يا أستاذ رمزي. أتعشم أن يعجبك طعامي المتواضع.

قام رمزي وجلس على أحد كراسي المائدة وجلس الرجلُ الغريبُ في الجهة المقابلة. وضع في طبق رمزي دجاجة بأكملها وأخذ لنفسه ربع دجاجة وبدأ الأكل.

نسي رمزي كل ما حوله من رؤوس وكل ما يختلج في نفسه من خوف، وأقبل على الطعام بشهية فالتهم الدجاجة في بضع دقائق، وعندما انتهى من افتراس الدجاجة التي أمامه التفت إلى الرجل الغريب قائلًا:

- سألتك سؤالًا لم تجبني عنه.

فقال الرجلُ الغرِيبُ وكأنه خالي الذهن:

- سؤال؟! وما هو هذا السؤال؟

- سألتك إذا كان في نيتك تحنيط رأسي الذي اشتريته وتعليقه هنا مع رؤوس الحيوانات هذه. يبدو أنك تهوى جمع الرؤوس بجميع أنواعها ولا ينقص مجموعتك سوى رأس بشري!

فضحك الرجل الغريب طويلًا، ووضع بعض الأسماك في طبق رمزي وقال:

- حقيقة أهوى الرؤوس، لكن رأسك أنت يا أستاذ رمزي أغلى عندي وأعز لديّ من أي رأس في الدنيا، وما دمت تعهدت لك رسميًّا في وثيقة البيع والشراء بأن تحتفظ برأسك مدى الحياة على سبيل الإعارة، فلا داعي لأي خوف أو قلق.

فأطرق رمزي إلى الأرض لحظة مفكرًا، ثم قال:

- ولكنك لم تخبرني حتى الآن، ما الذي ستستفيده من شراء رأسي ما دمت سأظل محتفظًا به فوق كتفيّ مدى الحياة؟!

فقال الرجلُ الغريبُ مبتسمًا:

- ستعرف كل شيءٍ في حينه، لكن أحب أن أخبرك أنني طوال حياتي لم أخسر أية صفقة عقدتها، كنت دائمًا الكسبان.

وضحك ضحكة قصيرة، ثم قال:

- كلْ. كلْ يا أستاذ رمزي. لا تضيع الوقت وأنت في حاجة إلى تغذية.

فأخذ رمزي يفصص السمكة التي في يده ويفصل عنها العظم، ثم قال:

- أنا لا أخفي عنك أنني منذ إتمام هذه الصفقة وأنا دائم التفكير محاولًا اكتشاف السبب الذي دفعك لشراء رأس إنسان مسكين مثلي بذلك المبلغ الكبير من المال، لدرجة أن رأسي تصدع من كثرة التفكير.

فقال الرجل الغريب بلهفةٍ وذعرٍ:

- تقول رأسك تصدع؟! لا. أرجوك، أنا لا أحب أن تفكر في أي شيء يصدع رأسي، أقصد رأسك، تذكر أن رأسك أصبح ملكي ويهمني أمره وأنت الآن مجرد حارس عليه ومسئول عن سلامته. أرني رأسك أتحسسه لأطمئن على أملاكي. أرني!

وقام الرجل الغريب ومد يده يتحسس رأس رمزي ويملّس عليه، فشعر رمزي بقشعريرة عندما لمست يد الرجل الغريب رأسه وقال في غضب:

- يبدو أنك من آن لآخر ستجيء لتطمئن على رأسي، هذه لن تكون حياة!

قال الرجل الغريب بهدوء:

- لا داعي للغضب يا عزيزي رمزي، اعذرني، لكل إنسان الحق في أن يطمئن على أملاكه.

ثم تغيرت لهجته بغتة، ونظر إلى رمزي نظرة جادة كأنه يخترق بها أعماقه، وقال له آمِرًا وقد تجهم وجهه:

- لماذا تنظر إليّ هكذا؟ انظر إلى هذه الناحية!

مشيرًا إلى ركن من أركان البهو. فتعجب رمزي من صيغة الأمر ومن لهجة الرجل في الحديث وقال:

- ولماذا أنظر إلى هذه الناحية؟ أنا حر أنظر إلى الشيء الذي أرغب في النظر إليه!

فقال الرجل الغريب غاضبًا وقد تقلصت عضلات وجهه:

- حر؟! كلا، لست حرًّا في النظر إلى الأشياء كما يحلو لك، كان هذا فيما مضى، قبل أن أشتري رأسك، ولكنني الآن اشتريت رأسك وأصبح ملكي، أتفهم معنى كلمة ملكي؟ منذ اللحظة التي وضعت فيها إمضاءك الكريم على العقد أصبح رأسك ملكي بكل ما فيه.. المخ والعيون.. والأنف.. والأسنان.. والأذنان.. وكل شيء في رأسك أصبح ملكي أنا، وبناء على ذلك، فمنذ هذه اللحظة أنت مجبر على رؤية الأشياء التي أريد لك أن تراها وتسمع ما آمرك بسماعه ولا تسمع ما لا أريد لك أن تسمعه، وتشم ما أريد لك أن تشمه، وتفكر في الأشياء التي أريد لك أن تفكر فيها وبالطريقة التي أراها، وتأكل ما أريد لك أن تأكله. يجب أن يكون هذا مفهومًا منذ الآن. كل هذا من ضمن الشروط!

فثارت ثائرة رمزي وألقى بالسمكة التي كانت في يده في وجه الرجل الغريب على الرغم من رغبته الشديدة في أكلها، وقام غاضبًا وهو يردد:

- كلا، لن أسمح لك بذلك. لم يكن هذا من ضمن الشروط. لو كنت أعلم ذلك لفضلت الانتحار. أنا أفضل الموت على حياة بهذا الوضع البشع!

وأخرج رمزي النقود من جيبه، وألقى بها على أرض الغرفة صائحًا:

- ها هي نقودك. سأخرج من هذا المنزل ولا أريد أن أرى وجهك.

فلم يتحرك الرجل الغريب من مكانه، وقال بهدوء:

- وإلى أين أنت ذاهب؟ إلى الفقر والتشرد؟

فقال رمزي وعضلات وجهه ما زالت تختلج من الغضب:

- سأذهب لأشنق نفسي. الحبل لا يزال مثبتًا في سقف حجرتي وكل شيء جاهز.

فضحك الرجل الغريب وقال:

- لن تستطيع الخروج من منزلي. الباب مقفل بالمفتاح.

فاشتد هياج رمزي وصاح:

- سأصرخ بأعلى صوتي. سأستنجد بالناس. سألقي بنفسي من هذه النافذة لأسقط في الطريق جثة هامدة لا تستطيع أن تتحكم فيها.

واندفع نحو النافذة، فأسرع إليه الرجل الغريب وأمسك به بقوة وقال:

- اهدأ يا أستاذ رمزي، اهدأ، اجلس ولا تغضب مني، إنك تسيء إساءة بالغة لرأسي، أقصد رأسك، بهذا الانفعال. لقد كنت أمزح معك.

وجذب رمزي من يده برفق وأجلسه في المكان الذي كان يحتله ووقف بجواره قائلًا:

- حقك عليّ. لا تغضب مني. هات رأسي، أقصد رأسك، أقبّله. وانحنى الرجل على رأس رمزي وقبّله ثم جلس في مكانه وقال:

- كنت أمزح معك. هل من المعقول أن أنفّذ مثل هذا الكلام الذي سمعته مني؟ هل من المعقول أن أكون بهذه القسوة؟ سأترك لك الحرية الكاملة في عمل كل ما تريده وسأختفي من حياتك. لن ترى وجهي بعد اليوم.

ثم ابتسم واستطرد قائلًا:

- لن ترى وجهي إلا في الوقت المناسب!

وقام الرجلَ وجمع النقودَ المتناثرةَ على أرض الغرفة وقدمها لرمزي قائلًا:

- خذ نقودك يا أستاذ رمزي. أنا لا أريد لرأسك أية أوجاع أو صداع.

فهدأ رمزي ودس النقود في جيوبه وقال:

- إذا كان الأمر كذلك فلا مانع.

- أكمل أكلك يا أستاذ رمزي، إذا تغذى الجسم تغذى المخ وتغذى الرأس بأكمله!

استأنف رمزي تناول الطعام، وبعد فترة التفت إليه الرجل الغريب وقال:

- ولكن كل ما أطلبه منك يا أخ رمزي هو أن تحافظ على رأسي، أقصد رأسك. لا أحب أن تعمل أي شيء يسبب لرأسك أي ضرر، إذ إن أي ضرر يصيب رأسك سيعتبر جناية تبديد لأملاك الغير التي أنت حارس عليها!

انتهى رمزي من تناول الطعام وقال:

- والآن، هل تفتح لي باب منزلك لأخرج؟

فقام الرجل وأحضر المفتاح وفتح له الباب، وأسرع رمزي بالخروج وهو لا يصدق أنه نجا من ذلك الرجل إلا بعد أن وجد نفسه في الشارع مع غيره من البشر، وفي جيوبه مبلغ الألفي جنيه!

كان أول ما فكر فيه رمزي أن يشتري بدلة جديدة بدلًا من تلك البدلة الممزقة التي تحك جسده منذ سنوات عديدة حتى أصبحت عديمة اللون، فاتجه نحو أحد المحال الفاخرة ليشتري البدلة الجديدة.

كان المحل غاصًّا بالجماهير، بعضهم يفحص البضائع لينتقي ما يود شراءه والبعض يدفع ثمن ما اشتراه. دخل رمزي المحل وهو يشعر بشيء من الخوف والخجل إذ لم يتعود دخول مثل هذه المحال الفاخرة. إنه يبدو وسط هؤلاء الزبائن وكأنه رقعة من الخيش في ثوب من الحرير. فكر في الخروج ليذوب في زحام البشر، ولكنه تردد ثم اتجه نحو مكان في المحل معلق فيه عدد هائل من الملابس الجاهزة وأخذ يدير بصره فاحصًا البدل المعلقة ويداه في جيبي سترته قابضتان على النقود وكأنه يستوحي منها الشجاعة والثقة في النفس. وأخيرًا تقدم إلى البائع الواقف خلف المنضدة الطويلة الممتدة في ذلك المكان باذلًا مجهودًا كبيرًا للتغلب على خجله:

- أريد شراء بدلة.

فنظر إليه البائع نظرة فاحصة، ثم قال:

- بدلة من أجلك أنت؟!

فقال رمزي وقد أسرعت دقات قلبه وبدأ يشعر من جديد بشيء من الخوف:

- نعم، من أجلي طبعًا.

- هل وقع اختيارك على بدلة معينة من هذه البدل المعلقة؟

فأشار رمزي إلى إحدى البدل وقال:

- أريد هذه البدلة.

فاتجه البائع نحو المشاجب وأخرج البدلة التي اختارها رمزي وفحصها، ثم قال:

- يبدو أنها على مقاسك، كأنها فصلت خصيصًا لك. هل تود قياسها؟

- يكفي أن أقيس الجاكتة.

وأسرع يخلع الجاكتة القديمة، وعندما هَمَّ بإلقائها على منضدة البائع أوشكت على السقوط على أرض المحل، فالتقطها من طرفها الأسفل فأصبحت في وضع مقلوب، وفي مثل لمح البصر سقطت

من جيوبها مئات الجنيهات وتناثرت على الأرض. فانحنى رمزي يجمعها.

ارتاب البائع من الأمر عندما لاحظ سقوط هذه الكمية الهائلة من النقود التي يحملها هذا الشاب المهلهل الثياب. اعتقد أنه لص سرق هذا المبلغ. فترك مكانه بينما كان رمزي لا يزال منهمكًا في جمع نقوده المبعثرة، وذهب إلى مدير المحل وأخبره بالأمر، فقال له المدير:

- حاول أن تشغله بالحديث بعض الوقت ريثما أتصل بالشرطة لمعرفة مصدر هذه النقود، إذ ربما نسهم بعملنا هذا في اكتشاف جريمة سرقة.

وعاد البائع إلى مكانه ليجد رمزي قد ارتدى الجاكتة ووقف يتأملها. فقال له البائع:

- توجد غرفة صغيرة بها مرآة يستحسن الذهاب إليها وقياس البدلة برمتها، الجاكتة والسروال، فقياس السروال لا يقل أهمية عن قياس الجاكتة.

فأخذ رمزي الجاكتة القديمة وسروال البدلة الجديدة وذهب إلى المكان الذي أشار إليه البائع. وبعد فترة ذهب إليه البائع في ذلك المكان، وأخذ يتأمله بعد أن ارتدى البدلة الجديدة وقال:

- ينبغي تقصير السروال قليلًا وإطالة أكمام الجاكتة بعض الشيء، من الممكن القيام بهذه التعديلات البسيطة في ورشة المحل.

وخرج البائع من الغرفة الصغيرة، فخلع رمزي البدلة الجديدة وارتدى السروال القديم، ودخل البائع فأخذ البدلة الجديدة وخرج من الغرفة قائلًا لرمزي:

- لا تقلق. لن يستغرق ذلك أكثر من ربع ساعة.

بعد نحو نصف ساعة قضاها رمزي داخل الغرفة الصغيرة عاد البائع ومعه البدلة، أعطاها لرمزي قائلًا:

- لقد أصحبت الآن مضبوطة تمامًا.

وترك رمزي وعاد إلى مكانه. خلع رمزي السروال القديم وارتدى البدلة الجديدة ووقف يتأمل نفسه في المرآة وأسرع بنقل محتويات جيوب البدلة القديمة إلى بدلته الجديدة، ثم خرج من الغرفة الضيقة واضعًا البدلة القديمة تحت إبطه. لم يجد البائع في مكانه، فوقف ينتظره، وطال الانتظار. وأخيرًا أتى البائع وبصحبته اثنان من رجال الشرطة، فظنهم رمزي قادمين لشراء بعض الأشياء، ولكن واحدًا منهما تقدم نحو رمزي وطلب منه أن يصحبه إلى مركز الشرطة. فتعجب رمزي وسأل عن السبب فأخبره رجل الشرطة أنه سيعرف كل شيء فيما بعد.

نظر رمزي إلى البائع في ارتباك، وشعر بخجل شديد عندما رأى نظرات الزبائن مسددة نحوه. طلب من رجل الشرطة أن يمهله حتى يدفع ثمن البدلة التي اشتراها والتي يرتديها الآن، فسمح له بذلك.

أخذ رمزي من البائع قسيمة بثمن البدلة وذهب إلى الخزانة لدفع النقود، وظل رجلا الشرطة ملازمين له في أثناء تحركه. وعند مكان الدفع دس رمزي يده في أحد جيوبه وأخرج ورقة من فئة العشرة جنيهات(*) أعطاها للفتاة الجالسة خلف نافذة الدفع، وكان الباقي له من مبلغ العشرة جنيهات ستة جنيهات ونصف وضعها في جيبه، ثم سحبه أحد رجلي الشرطة من ذراعه، وخرج الثلاثة من المحل حيث وجد رمزي إحدى سيارات الشرطة أمام الباب!

طلب أحد رجلي الشرطة من رمزي أن يركب معهما السيارة، فركب، وانطلقت السيارة متجهة نحو مركز الشرطة.

(*) عندما كتب د. يوسف عز الدين عيسى هذه الرواية عام 1960 كانت عشرة جنيهات تعادل تقريبا بضعة آلاف في وقتنا الحالي .

في مركز الشرطة سأله الضابط:

- اسمك؟

- رمزي عبد الحميد.

- سنك؟

- خمسة وعشرون عامًا.

- ما هو عملك؟

- لا عمل لي في الوقت الحاضر.

- لا عمل لك؟! معنى هذا أنك متشرد، وإذا كان الأمر كذلك فكيف تفسر لنا وجود هذا المبلغ الكبير من المال في حوزتك؟

فأطرق رمزي إلى الأرض ولزم الصمت، فصاح رجل الشرطة محتدًّا:

- تكلم. كيف تفسر وجود مئات الجنيهات في جيوبك؟

- بعت شيئًا أملكه، وهذه النقود هي ثمن الشيء الذي بعته.

فنظر إليه الضابط فاحصًا، ثم قال له في سخرية:

- وما هو هذا الشيء الذي كنت تمتلكه وبعته بمئات الجنيهات؟ هل كنت تمتلك عمارة؟!

- كلا. لم أكن أمتلك عمارة، ولكن رجلًا اشترى رأسي بألفين من الجنيهات.

فضحك الضابط ضحكة مفتعلة، وقال وهو لا يزال يضحك:

- تقول إن رجلًا اشترى رأسك بألفين من الجنيهات؟

واستغرق في الضحك، ثم توقف عن الضحك فجأة، ونظر إلى رمزي نظرة قاسية وقال:

- إن لم تعترف بالحقيقة فلدينا من الوسائل ما يمكننا أن ننتزع منك الاعتراف.

ثم قال ساخرًا:

- رجل اشترى رأسه بألفين من الجنيهات! هل تظن أننا نصدق مثل هذا الكلام الفارغ؟

قال رمزي وهو يضغط على كل كلمة ينطق بها مؤكدًا صحة ما يقول:

- أجل. رجل اشترى رأسي هذا الذي تراه فوق كتفيّ بمبلغ ألفين من الجنيهات. أنا نفسي لم أكن أتصور أن شيئًا كهذا ممكن أن يحدث!

وفي هذه الأثناء كان عدد من رجال الشرطة قد اجتذبتهم طرافة الحوار بين رمزي والضابط فأحاطوا برمزي من كل جانب، وضحك الضابط وقال:

- اشترى رأسك أنت بألفين من الجنيهات؟! العب غيرها. قل لي من أين حصلت على هذه النقود؟ من أين سرقتها؟

قال رمزي وقد بدأ العرق يتصبب منه:

- يا حضرة الضابط أنا صادق فيما أقول، والدليل على ذلك أن عملية البيع والشراء مسجلة في مكتب الشهر العقاري.

ثم أخرج رمزي ورقة من جيب سترته وسلمها للضابط قائلًا:

- ها هي نسخة من عقد البيع والشراء.

اختطف الضابط الورقة من رمزي وأخذ يقرؤها، فبدت الدهشة على وجهه وقال:

- شيء جميلٌ.. جميلٌ جدًّا.. ويا ليته رأسٌ نظيف. شعر أشعث ووجه لم يلمسه الماء منذ أيام. وماذا سيفعل هذا المجنون برأس مثل رأسك القذر هذا؟!

- هذا ما لا أعرفه. هذا السؤال يجيب عنه الرجل الذي اشترى رأسي.

- وكيف قبلوا في الشهر العقاري تسجيل بيع وشراء رأس إنسان؟

- لم يجدوا في نصوص القانون ما يمنع ذلك!

- ولكن هذا شيء لم يحدث له مثيل من قبل.

- ها هو ذا قد حدث.

فقال الضابط وكأنه اهتدى إلى فكرة كانت غائبة عنه:

- وما دام الرجل قد اشترى رأسك ودفع آلاف الجنيهات ثمنًا له فلماذا لم يأخذه؟! لماذا تركه لك؟! كيف يشتري الإنسان شيئًا بآلاف الجنيهات ثم يتركه؟!

- لو أعدت قراءة العقد فستجد به شرطًا هامًّا.

- وما هو هذا الشرط؟

فأشار رمزي بيده إلى هذا النص قائلًا:

- ها هو الشرط. العقد ينص على أن يترك لي رأسي في موضعه فوق كتفي مدى حياتي، على سبيل الإعارة، وأنا معين من طرفه حارسًا على رأسي!

فأعاد الضابط قراءة صورة العقد وعندما وصل إلى هذا النص العجيب غرق في الضحك من جديد والتفت إلى رمزي قائلًا:

- ولكن كيف قبلت بيع رأسك؟

- الجائع يا سعادة الضابط يبيع أي شيء ليأكل. إنسان مثلي لا يجد كسرة الخبز، واقف على كرسي واضعًا رأسه داخل عروة الحبل ليشنق نفسه ويرتاح من العذاب. وفي هذه اللحظة القاسية يجد إنسانًا في غرفته. إنسانًا معتوهًا أو مجنونًا سمّه كما تشاء. المهم أن يجد إنسانًا يقتحم غرفته ويحول بينه وبين الانتحار ويطلب منه شراء هذا الرأس الذي كان بعد ثوان سيتدلى من المشنقة، يطلب شراءه بألفي جنيه!.. ثروة هبطت عليّ من السماء.. نعمة لم أكن أحلم بها. فهل أرفض هذه النعمة؟ الشخص الذي يرفض نعمة الله شخص كافر!

فقال الضابط في سخرية:

- ومن يشنق نفسه ألا يعد كافرًا؟!

ثم نادى الضابط أحد العساكر:

- يا شاويش علي.

- أفندم.

- خده وضعه في الحجز إلى أن نتحرى عن هذا الموضوع.

- حاضر يا أفندم.

سحب رمزي من ذراعه وذهب ليضعه في الحجز. ولكن التحريات أثبتت صحة العقد، فاستدعاه الضابط وقال له:

- لقد تحرينا واتضح أن أقوالك صحيحة وأنك، بكل أسف، صادق في كل ما قلته، تفضل، مع السلامة. شيء عجيب!

واستطرد قائلًا وكأنه يحدث نفسه:

- إذا كان رأس كهذا يباع بألفين من الجنيهات فلا شك أن رأسًا مثل رأسي يساوي ملايين الجنيهات. ليت هذا المجنون يشتري رأسي!

وسلم الضابط العقد لرمزي الذي طواه بعناية ووضعه في جيبه.

كان رمزي على وشك مغادرة باب قسم الشرطة عندما سمع الضابط يناديه قائلًا:

- يا رمزي. تعال، نسيت أن أسألك سؤالًا.

فوقف رمزي من جديد أمام الضابط، والبدلة القديمة ما زالت ملفوفة تحت إبطه. قال الضابط:

- نسيت أن أسألك، ماذا ستفعل بهذه النقود؟

قال رمزي بلا تردد:

- سأتعلم الموسيقى.. أنا أحب الموسيقى.

فقال الضابط ولا تزال في حديثه رنة سخرية:

- طب يا سيدي، ربنا يقويك!

الحرية أثمن شيء في الوجود، أغلى من الحياة نفسها، هكذا حدث رمزي نفسه وهو يغادر قسم البوليس. وأخذ يتحسس رأسه بين آن وآخر وكأنه يطمئن على وجوده فوق كتفيه. وسيطر عليه شعور غريب بأن هذه البدلة القديمة الملفوفة تحت إبطه هي سبب النحس والامتهان الذي صادفه في حياته، فألقى بها في أول خرابة صادفته.

إن الثلاثة جنيهات والنصف التي دفعتها ثمنًا للبدلة الجديدة جعلتني إنسانًا يحترمه الجميع وستتفتح أمامي جميع الأبواب بعد أن كنت في البدلة القديمة البالية شخصًا حقيرًا ممتهنًا يستريب فيه كل من يراه وتقفل في وجهه الأبواب، وتوضع أمامه الحواجز لو حاول ارتياد مطعم محترم أو متجر فاخر. البدلة هي كل شيء، أما الجسد الذي بداخلها فشيء لا يهم!

كانت هذه الأفكار تدور في رأس رمزي وهو يسير في شوارع المدينة الكبيرة المزدحمة الزاخرة بألوان عديدة من البشر. لمح محلًا للحلاقة، فدخل وطلب من الحلاق أن يغسل له شعره ويقصه ويحلق ذقنه، وتم له ما أراد ومنح الحلاق عشرين قرشًا، فابتسم الحلاق وانحنى له شاكرًا. وظل يدور في الشوارع على غير هدى. واسترعت انتباهه واجهة أحد متاجر الأثاث الكبرى، ففكر في دخول ذلك المتجر لا ليشتري منه شيئًا ولكن لمجرد الشعور بآدميته وبأن أحدًا من الناس لن يرتاب فيه في هذه المرة أو ينظر إليه نظرة ازدراء.

دخل المحل. وفي أحد أركانه رأى غرفة جلوس أنيقة من طراز حديث معروضة للبيع. وفي سرعة الكمبيوتر أخذ يقارن بينها وبين الكرسي الحقير في غرفته التي فوق سطح المنزل والكنبة الجرباء الجرداء المتداعية الملقاة هناك. وجد بطاقة تحمل ثمن هذه الغرفة. إن ثمنها أربعة وعشرون جنيهًا، ففكر في شرائها على الفور. ولكنه تردد قبل تنفيذ هذه الرغبة.

أين سأضع هذا الأثاث الثمين؟ من غير المعقول أن أضعه في تلك الغرفة الممتهنة التي أعيش فيها. إن هذه الخطوة لا بد أن يسبقها خطوة أخرى. لا بد أن أبحث عن مسكن يتناسب مع مستوى هذا الأثاث الجديد. إنني لن أشتري غرفة جلوس فقط، بل أنوي شراء غرفة نوم مريحة. لقد تعبت كثيرًا في هذه الحياة وآن لي أن أستريح. والشقة الجديدة التي آمل في الحصول عليها لا بد أن تكون في مكان هادئ في شارع جميل تظلله الأشجار، ولا بد أن تتسع لغرفة الجلوس وغرفة النوم.

وخرج من المحل واستمر في تجواله. ولاحت له واجهة أحد متاجر الكتب، واجتذبه منظر الكتب المعروضة خلف زجاج الواجهة، فوقف يقرأ عناوينها. إنه لم ينل قسطًا وافيًا من التعليم وتحركت في أعماق نفسه رغبة شديدة في القراءة. إن الكتب تحوي ثقافة وأفكارًا جميلة لم تسعده الظروف بالاطلاع عليها، فدخل المكتبة، وأخذ يدير بصره في أنحائها. وجذب انتباهه كتاب بعنوان «حواء بلا آدم» فأخذ الكتاب وذهب إلى البائع ليدفع ثمنه. فأخذه منه البائع ولفه في ورقة أنيقة تحمل اسم المكتبة وسلمه له بكل احترام، فأخذه رمزي ووضعه تحت إبطه وأخرج من جيبه جنيهًا سلمه للبائع،

فأخذه البائع وأعطاه تسعين قرشًا وخرج رمزي من المكتبة. لم يكن قد قرأ سوى عنوان الكتاب واسم مؤلفه «محمود طاهر لاشين» وأخذ يفكر في ذلك العنوان «حواء بلا آدم»، ويردد العنوان «حواء بلا آدم»، إنني آدم بلا حواء! لم أفكر من قبل في هذه المسألة. لكل آدم حواء، وها هو إذًا تحت إبطي كتاب بعنوان «حواء بلا آدم». أتمنى أن أعثر على هذه الحواء التي بلا آدم. إنها روايات. ولكن الروايات تعبر عن الحياة. لا بد أن هناك حواء، بل عديدًا من الحواءات بلا آدمين، كما أن هناك عديدًا من الآدمين بلا حواءات.

لا أود الرجوع إلى ذلك المسكن الحقير الذي أعيش فيه. ولا أحب أن أعيش قريبًا من منزل ذلك الرجل المجنون الذي اشترى رأسي بهذا المبلغ الهائل من المال. أريد الابتعاد عنه فلا أرى وجهه. ولكن الرجل أنقذ حياتي، وهو سبب بقائي في هذه اللحظة على قيد الحياة. وهو الذي هيأ لي فرصة الحياة المريحة الرغدة. هو الذي ملأ جيوبي بالمال، فهو يستحق مني الشكر والعرفان بالجميل، ولكنه لا بد أن يكون معتوهًا غريب الأطوار، كيف يشتري رأس إنسان لا يعرفه ولا يمت له بأية صلة ويدفع في مقابل ذلك آلاف الجنيهات؟! لقد فتح لي كنزًا. ربما تكون هبة من الله وهبني إياها عن طريق هذا الرجل، لما قاسيته في الحياة من مشقة وعذاب. ولكن يوجد معذبون كثيرون وأشقياء غيري في هذه الحياة لم تهبط عليهم مثل هذه الثروة، ربما لأنني إنسان طيب. ولكن يوجد طيبون كثيرون مثلي في محنة وشقاء.

وبينما هو مستغرق في التفكير، تذكر شيئًا رهيبًا جعله يجري بأقصى سرعة ويعبر الشارع غير عابئ بالسيارات المنطلقة التي كادت تدهمه! لقد تذكر أن جزءًا كبيرًا من الألفي جنيه كان قد تركه في بعض جيوب البدلة القديمة التي ألقى بها في الخرابة ونسي أن يأخذه قبل التخلص منها!

كان الظلام قد بدأ يهبط وبدأت مصابيح الشوارع تضيء. وظل رمزي يعدو متجهًا نحو الخرابة، آملًا أن يجد البدلة القديمة في مكانها خلف السور المتهدم ولم تمتد إليها يد إنسان.

وصل إلى المكان. وأطل من بعيد فوجد البدلة الكالحة لا تزال ملقاة في نفس المكان الذي ألقاها فيه. ووجد بالقرب منها ثلاثة كلاب وكأنها تحرسها! ولكنه عندما اقترب منها لالتقاطها والتفتيش في جيوبها هجم عليه أحد الكلاب، وعلا نباح الكلاب الثلاثة فتراجع إلى الخلف. وبدأت المارة تتجمع. وأخيرًا انقض رمزي على البدلة فاختطفها وانطلق يعدو والكلاب تعدو خلفه. وانضم كلب رابع إلى المظاهرة. ثم بدأت الكلاب تتعارك فيما بينها، فانتهز رمزي هذه الفرصة واختفى في أحد الشوارع الجانبية المظلمة وتوقف ليلتقط أنفاسه. ثم استأنف سيره في بطء وهو ينظر ليتأكد من أن أحدًا لا يراه.

وفي مكان خلا من المارة دس يده في جيوب البدلة القديمة فوجد النقود التي نسيها في جيب السروال كما هي، إذ لم يطمع إنسان في أن يمد يده إلى مثل هذه الملابس القذرة الممزقة. فأخذ النقود ودسها في جيوب البدلة الجديدة التي يرتديها. وأعاد تفتيش جيوب البدلة القديمة عدة مرات ليتأكد في هذه المرة أنه لم يترك فيها مليمًا واحدًا. وعلى الرغم من ذلك فلقد أحس برغبة في الاحتفاظ بها. وفسر

ما حدث بأن البدلة القديمة حزنت لفراقه بعد تلك السنوات العديدة وعز عليها أن يلقى بها ويُستغنى عنها في أول فرصة بعد عشرة الليالي والأيام فنادته ليعود إليها. ولم يشأ أن يكون أقل وفاء منها فطواها بعناية وحملها تحت إبطه. وفي الطريق اشترى صحيفة لفها حولها.

أين سأجد الشقة الجديدة؟ توجد مساكن كثيرة خالية. لا بد أن أنتقي شقة كتلك التي يعيش فيها الناس المحترمون.

كان في أثناء تجواله قد وصل إلى شارع جميل هادئ تحف به أشجار البوانسيانا. ووجد لافتة مكتوبًا عليها «شقة للإيجار» على باب عمارة رائعة الجمال. فدخل العمارة وسأل عن البواب. ذكر للبواب رغبته في رؤية الشقة الخالية، فهبط البواب بضعة سلالم وأحضر من مسكنه مصباحًا ووقف بجوار باب المصعد ورمزي بجواره. أخذ رمزي يفحص البواب. إنه نوبي، بدين، يرتدي جلبابًا نظيفًا ناصع البياض. وهبط المصعد، فصعدا معًا. وتوقف المصعد عند الطابق الخامس، فغادراه. وفتح البواب باب إحدى الشقق بمفتاح كان في يده.

كانت الشقة تحمل رقم 15. دخل البواب الشقة الخالية وخلفه رمزي الذي أخذ يتأمل الشقة في سعادة وإعجاب على ضوء المصباح الذي يحمله البواب. كانت الشقة فاخرة. رأى البهو وثلاث غرف. ثم قاده البواب إلى حمام فاخر به حوض للاستحمام أزرق اللون، ثم إلى المطبخ ذي الدواليب العديدة. وعرف رمزي من البواب أن إيجار هذه الشقة ستة جنيهات في الشهر فأبدى موافقته على الإيجار.

قاده البواب بعد ذلك إلى الشقة رقم 17 التي يسكنها صاحب المنزل في الدور السادس، وتمت كتابة العقد. وسلم رمزي إيجار الشهر الأول لصاحب المنزل الذي التفت إلى رمزي وقال:

- شقة مباركة إن شاء الله.

فشكره رمزي وأخذ نسخة من العقد وطواها مرتين ووضعها بعناية في أحد جيوبه الداخلية. وأعطى البواب ثلاثين قرشًا ففرح بها وشكر رمزي قائلًا:

- متشكرين يا سعادة البك.

سعادة البك؟ رنت هذه الجملة في أذن رمزي كما ترن ألحان سيمفونية رائعة. إنه لأول مرة في حياته يسمع إنسانًا يلقبه بسعادة البك. وأراد أن يهبط السلم ولكن البواب أسرع قائلًا:

- المصعد موجود يا سعادة البك. تفضل.

لثاني مرة في خلال دقائق يسمع كلمة يا سعادة البك. دخل المصعد وخلفه البواب الذي ضغط على أحد الأزرار فهبط المصعد. وصافح رمزي البواب الذي انحنى له باحترام وخرج إلى الطريق من جديد بين زحام البشر.

وخطرت له فكرة العودة إلى غرفته، ولكنه طرد هذه الفكرة. إنه يريد الابتعاد عن تلك الغرفة أطول مدة ممكنة. وواصل تجواله.

رأى محلًّا يبيع الآلات الموسيقية. لقد مر في هذا الطريق مرارًا ولكن يخيل إليه كأنه يرى ذلك المحل لأول مرة. توقف أمام المحل، فوجده حافلًا بشتى أنواع الآلات الموسيقية، فتذكر الناي المسكين الذي كان ينفخ فيه كل ليلة قبل أن ينام فتنبعث منه تلك الأنغام التي أعجب بها ذلك الرجل الغريب الأطوار الذي اشترى رأسه. وأخذ يتأمل الآلات الموسيقية.

أتمنى أن أشتري كل هذه الآلات. ولكن لا داعي لشرائها كلها. يكفي أن أشتري هذا البيانو الرائع. إن صوت البيانو من الأصوات التي تعجبني. وهذا العود الأنيق المزخرف، أتمنى أن أشتريه أيضًا.

دخل المحل، وسأل عن ثمن البيانو وثمن العود فعلم أن ثمن البيانو أربعون جنيهًا وثمن العود ثلاثة جنيهات.

لا بأس. أثمان زهيدة بالنسبة للسعادة التي سأشعر بها عند امتلاكها. سأشتريها بمجرد الانتقال إلى الشقة الجديدة. وسأشتري الصالون وحجرة أنيقة للنوم وخزانة أملؤها بالكتب. أنا في حاجة للثقافة والتعليم والكتب التي هي أداة الثقافة. سأضع البيانو في ركن البهو. سيبدو البهو جميلًا والبيانو في ركنه. وسأضع الصالون في البهو. سأحيا حياة جديدة.. ما هذه الحياة التافهة التي كنت أحياها؟ كنت أعيش كالكلب الضال الذي لا مأوى له. سأعيش الآن كإنسان يتمتع بوجوده على سطح هذه الدنيا.

وحانت منه التفاتة نحو قدميه فتعجب كيف نسي أن يشتري حذاء جديدًا. إن هذا الحذاء البالي الذي يضع فيه قدميه لا يتناسب مع البدلة الجديدة، فاشترى حذاء وعددًا من الجوارب.

كان قد تعب من السير على قدميه فجلس في مقهى ولم يخجل من وضع ساق فوق ساق، وقد بدا الحذاء الجديد لامعًا والجورب أنيقًا. ظل في المقهى إلى ما بعد منتصف الليل ووجد أن العودة إلى غرفته أصبحت لا مفر منها، فقام واتجه نحو منزله شاعرًا بخوف لا يدري سببه. قد يكون مبعثه وجود مئات الجنيهات في جيبه.

وعندما دخل الشارع الذي يقع فيه منزله تمنى ألا يراه أحد في الطريق إذ خيل إليه أن كل سكان الشارع يعلمون تفاصيل ما حدث له. لم يصادفه في أثناء سيره سوى ثلاثة شبان يتحدثون ويضحكون بصوت مرتفع ومروا بجواره دون أن يعيروه أي اهتمام، وشعر بارتياح عندما وجد أن جميع النوافذ لم يعد ينبعث منها أي ضوء، فيما عدا نافذة واحدة، نافذة الرجل الغريب الذي اشترى رأسه كانت لا تزال مضاءة. فأحس بانقباض وتعجب لبقاء هذا الرجل ساهرًا حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل.

دخل باب العمارة وأخذ يصعد السلم على أطراف أصابعه ولم يصادفه أحد أثناء صعوده حتى بلغ السطح الذي تقع فيه غرفته التي وجد بابها مفتوحًا وتذكر أنه لم يغلق الباب عندما غادرها في

الصباح بصحبة الرجل الغريب. وبينما هو يهم بدخول غرفته التفت نحو نافذة الرجل الغريب فوجده مطلًّا من النافذة ناظرًا نحو غرفته!

ترى هل ظل الرجل ساهرًا منتظرًا رجوعي؟ ولماذا يفعل ذلك؟

أضاء رمزي مصباح البترول الذي بغرفته، وعندما ذهب لإغلاق النافذة التي كانت لا تزال مفتوحة. لاحظ أن النافذة التي كان ينبعث منها الضوء في منزل الرجل الغريب قد أغلقت وساد الظلام في جميع أنحاء المنزل.

لم يكن رمزي يهتم بإغلاق باب حجرته إذ لم يكن بها ما يخشى عليه من السرقة، ولكنه في بعض الأحيان كان يغلق الباب لأن ذكر البط الذي يسكن الحجرة المجاورة لحجرته كان لا يحلو له التخلص من محتويات أمعائه إلا فوق كنبة رمزي!

في هذه الليلة اهتم رمزي بإغلاق باب الغرفة والنافذة. وعلى ضوء مصباح البترول الخافت أخرج النقود من جيوبه ووضعها على المنضدة وأخذ يعدها.

ترى هل أتركها في جيوب البدلة؟ أو من الأفضل تخبئتها في مكان بعيد عن الأنظار؟

وأخيرًا وضعها في جيوب سترته القديمة وطوى السترة بعناية ووضعها كمخدة لتظل تحت رأسه طوال فترة نومه وأطفأ المصباح وتمدد فوق الكنبة وأغمض عينيه محاولًا النوم. ولكنه لم ينم. شعر بوقع خطوات تصعد السلم فأسرعت دقات قلبه وجلس فوق السترة القديمة مرهفًا السمع. توقفت الخطوات ولم يعد يسمع شيئًا فتمدد من جديد على الكنبة. ومرت فترة طويلة دون أن يسمع شيئًا. وغلبه النوم فنام.

وفي نومه رأى مشاهد كثيرة من الأحداث التي مرت به في هذا اليوم. كانت مشاهد غير مترابطة وغير مرتبة وكأنها فيلم سينمائي ذو مونتاج عشوائي ركّبت أجزاؤه كيفما اتفق. ثم انتفض من نومه جالسًا على الكنبة على صوت ضوضاء بالقرب من نافذة غرفته. واتضح له أن سبب هذه الضوضاء مشاجرة نشبت بين عدد من القطط.

ثم تذكر أن حبل المشنقة لا يزال معلقًا في سقف الغرفة فتشاءم من ذلك وفكر في الصعود على الكرسي لفك الحبل من الخطاف المثبت به، ولكنه عدل عن هذه الفكرة وفضل الانتظار حتى الصباح. وحاول النوم من جديد. وعندما صحا من نومه كانت الشمس تغمر سطح المنزل.

في خلال أسبوعين كان رمزي قد انتقل إلى شقته الجديدة وانتهى من تأثيثها. وفي أول ليلة قضاها فيها لم يغمض له جفن حتى نحو الثالثة صباحًا. كان يدور في أنحاء الشقة ويخرج إلى الشرفة يطل منها على المدينة الكبيرة. وخيل إليه كأنه يرى المدينة لأول مرة. ثم أوى إلى فراشه. وأمضى ليلته لأول مرة في حياته في فراش مريح فوق سرير أنيق وبجواره كمودينو عليه أباجورة وكتاب «حواء بلا آدم» وعندما صحا من نومه وجد عقارب الساعة الجديدة التي اشتراها تشير إلى الثانية عشرة ظهرًا تقريبًا.

لقد انتقل من حياة إلى حياة تختلف عن حياته السابقة كل الاختلاف، كما يحدث للفراشة عندما تنتقل من طور اليرقة الدودية الشكل إلى طور الفراشة التي تنطلق بأجنحتها بين الأزهار ترتشف رحيقها!

ذهب إلى المطبخ وأخرج من الثلاجة قطعة من الجبن وبيضتين سلقهما وعمل لنفسه فنجانًا من الشاي وجلس يتناول إفطاره لأول مرة في تلك الشقة الجديدة، وبعد أن انتهى من الأكل جلس في البهو على أحد الكراسي الأنيقة المريحة ونظر إلى البيانو الموضوع في الركن وفوقه العود وبجوار العود الناي وهو الشيء الوحيد الذي حرص على إحضاره معه من بين حطام الغرفة التي كان يعيش فيها. لقد اكتشف في أعماقه حبًّا قويًّا للموسيقى وتمنى أن يصبح موسيقيًّا شهيرًا.

قام وجلس على البيانو وأخذ يداعب مفاتيحه فتنبعث من أوتاره أنغام جميلة.

إن حب الموسيقى لا يكفي، لا بد أن أتعلم قواعدها. الموهبة وحدها غير كافية. لكل شيء قواعد وأصول ينبغي تعلمها.

لم يكن يعتني فيما مضى بحلاقة ذقنه أو رؤية وجهه في المرآة، ولكنه في هذا اليوم ذهب إلى الحمام ووقف أمام المرآة. رأى وجهه وسيما. وَهَمّ بحلاقة ذقنه. ولكنه تردد. فكر في أن يستحم قبل الحلاقة. فملأ حوض الاستحمام بالماء، وذهب إلى غرفة النوم فأحضر ملابس داخلية جديدة، وألقى بجسده في حوض الماء، وهزته النشوة فانطلق يغني، وأخذ صوته يرتفع شيئًا فشيئًا، واكتشف شيئًا جديدًا لم يدر كيف غاب عنه طوال هذه السنين التي عاشها على ظهر الدنيا، إن صوته جميل. لقد أعجبه صوته!

لما فرغ من الاستحمام ارتدى ملابسه ووقف أمام المرآة يصفف شعره، ثم أخذ يحلق ذقنه.. وفي هذه اللحظة قفزت في رأسه فكرة غريبة أشعرته بشيء من القلق. إنه يخشى أن يكون قد نفذ عملية الشنق، وأنه مات، وهذه الحياة التي يحياها الآن، في العالم الآخر! لكنه طرد من ذهنه هذه الفكرة وأخذ يستعرض في ذاكرته الأحداث القريبة، عندما ذهب ليشتري الحبل ليشنق نفسه، وعندما ثبت الحبل في سقف الغرفة، وعندما فوجئ بذلك الرجل الغريب يحتضنه لمنعه من الانتحار، وعملية شراء رأسه.

وعند ذلك انطلقت منه ضحكة!

رجل يشتري رأسي؟! إنها مسألة عجيبة! رجل يشتري رأسي ويسجله في الشهر العقاري ويمنحني آلاف الجنيهات ثمنًا لهذا الرأس، ثم يتركه لي في مكانه ويختفي من حياتي! هذا الرأس الذي أراه الآن أمامي في المرآة اشتراه ذلك الرجل. لا بد أنه رجل معتوه غريب الأطوار!

وانتهى من حلاقة ذقنه.. فارتدى بدلته الجديدة وغادر المنزل. وفكر أين يذهب؟ شعر برغبة في الذهاب إلى معهد الموسيقى، وداعبته الآمال.

لا بد أن أعمل، النقود التي معي لن تبقى مدى الحياة، سأصبح موسيقيًّا. أنا أحب الموسيقى. ضاعت سنوات عديدة من حياتي سدى.

وعند باب معهد الموسيقى وقف حائرًا، هل يدخل؟ إنه لا يعلم شيئًا عما يدور داخل جدرانه، ولكن توجد بداخله موسيقى، هذا هو الشيء الوحيد الذي يعلمه عنه. ودخل من باب المعهد، وأخذ يدير بصره في أنحائه. وفي إحدى الحجرات رأى فتاة جالسة وبجوارها رجل في نحو الخمسين يحتضن عودًا يداعب أوتاره ويغني، ثم يتوقف عن الغناء والفتاة تردد غناءه. لا بد أنه ملحن يحفّظ هذه الفتاة لحنًا. ورأى رمزي رجلًا يهم بدخول هذه الغرفة فاستوقفه قائلًا:

- من فضلك، هل يمكنني مقابلة مدير المعهد؟

فأشار الرجل نحو غرفة من الغرف وقال:

- هناك، في هذه الغرفة.. الثانية على اليمين.

وقف رمزي على باب الغرفة وتردد قبل الدخول، ثم تشجع ودخل، فوجد الغرفة خالية. فاتجه نحو الغرفة التي شاهد فيها الفتاة والملحن. كان الملحن ما زال يردد بعض مقاطع الأغنية والفتاة تعيد غناءها، ولما رآه هذا الرجل توقف عن الغناء، ونظر إليه وقال:

- هل تبحث عن أحد؟

قال رمزي:

- كنت أرغب في مقابلة المدير، ولكني وجدت غرفته خالية.

فاتكأ الرجل على العود وقال:

- ولماذا تود مقابلة المدير؟

- أريد أن أتعلم الموسيقى.

فضحك الرجل، وشعر رمزي بشيء من الضيق لهذه الضحكة وخيل إليه أنها ضحكة سخرية. قال الرجل:

- أنا أعلمك قواعد الموسيقى إذا كنت جادًّا في هذه الرغبة.

فشعر رمزي بالفرحة تسري في جسده كما تسري الكهرباء، وكان على وشك أن يقول شيئًا، ولكن الرجل سبقه في الحديث، إذ قال:

- اجلس. استرح. سأتفرغ لك بعد لحظات.

جلس رمزي وأخذ يتأمل محتويات الغرفة، كان أثاثها من الطراز العربي. عدد من الكراسي وأريكة تتسع لثلاثة أشخاص في مثل حجمه. كانت الفتاة جالسة على الأريكة والرجل على كرسي يعمل مع الأريكة زاوية منفرجة. واستمر الرجل في الغناء والفتاة تردد ما يقول، ويلفت انتباهها بين حين وآخر إلى بعض الأخطاء فيعود لترديد الجملة من جديد ويطلب منها غناءها.

استمرت هذه العملية نحو ساعة، وأخيرًا قال الرجل للفتاة:

- يكفي هذا اليوم، ونتقابل غدًا في الساعة الرابعة بعد الظهر.

غادرت الفتاة المكان، ووضع الرجل العود على الأريكة والتفت إلى رمزي وقال:

- تقول إنك تريد أن تتعلم أصول الموسيقى؟

- هذه أمنيتي.

في هذه اللحظة أطل من باب الغرفة وجه رجل.. ما إن رآه رمزي حتى شحب لونه وأسرعت دقات قلبه. كان هذا وجه الرجل الغريب الذي اشترى رأسه. التقت عيناه بعيني رمزي، ولكنه أسرع بالتراجع والاختفاء.

كان رمزي قد نسي كل شيء عن هذا الرجل. لقد ترك الغرفة القريبة من مسكنه وابتعد حتى لا يرى وجهه. شعر بالضيق عندما رآه، ولا يدري ما الذي أتى به هنا في معهد الموسيقى في هذه اللحظة؟! وقفزت في ذهنه أفكار عديدة قطعها الملحن عندما قال له:

- ألديك إلمام بالعزف على أية آلة موسيقية؟

فقال رمزي مضطربًا:

- لم أجرب. ولكنني أستطيع عزف أنغام لا بأس بها بالناي.

قال الملحن وقد بدا شارد الذهن:

- الناي؟

- نعم. الناي.

- لا بأس. أريد أن أسمع هذه الأنغام، وبعد ذلك أقرر إذا كنت أقبل تعليمك الموسيقى أو لا أقبل. متى تسمعني أنغامك هذه؟

- في أي وقت تشاء إذا شرفتني في منزلي.

- في منزلك؟ ولماذا لا نتقابل هنا؟

- أفضل أن يكون ذلك في منزلي.

- أين تسكن؟

فذكر له رمزي عنوانه وأخرج الملحن من جيبه نوتة صغيرة دوّن فيها الاسم والعنوان، ثم قال:

- لا مانع. سأحضر إلى منزلك.

- متى أنتظرك؟

- غدًا. العاشرة صباحًا.

خرج رمزي من الغرفة خائفًا يتلفت متوقعًا رؤية الرجل الغريب، ولكنه لم يجد له أثرًا. وفي أثناء خروجه من الباب الخارجي للمعهد لاحظ وجود رجل في نحو الأربعين في جبهته أثر جرح عميق يطيل النظر إليه، فلم يعره اهتمامًا واتجه نحو محطة الترام.

وعندما وصل الترام قفز رمزي وجلس فيه. وتحرك الترام. وبعد فترة رأى رمزي الرجل ذا الجبهة المجروحة جالسًا بالقرب منه يختلس النظر إليه بين حين وآخر. وتعجب رمزي. لماذا يقتفي هذا الرجل أثري ويتتبع خطاي؟ ولكنه أزاح هذه الأفكار من ذهنه واعتقد أنها مجرد مصادفة، وأن الرجل لا يقصد اقتفاء أثره إذ لا يوجد ما يدعو ذلك.

هبط رمزي من الترام واتجه نحو منزله، وحانت منه التفاتة وهو يدخل باب العمارة، فرأى ذلك الرجل ذا الجرح الذي في الجبهة واقفًا على بعد أمتار ينظر إلى المنزل!

وعندما دخل رمزي شقته أسرع بفتح النافذة، ونظر من خلالها فلم يجد لذلك الرجل أثرًا!

استيقظ رمزي في اليوم التالي في نحو الرابعة صباحًا على أثر حلم. رأى في منامه أنه يسير في شارع لم يره من قبل. كان الطريق طويلًا، وعند نهايته كوبري يعبر نهرًا، وعندما هَمّ بالسير على الكوبري لاحظ أنه مكون من عدد من الأخشاب الضيقة الممتدة بطول الكوبري متباعدة عن بعضها تباعدًا يسمح بسقوط رمزي من بينها. فسار فوق إحدى هذه الأخشاب ورأى ماء النهر يلمع أسفل الكوبري. كان يبذل مجهودًا عنيفًا ليحافظ على توازنه حتى لا يسقط في مياه النهر. ثم سمع صوت قطار يهدر وأصوات أشخاص تصرخ تحذره ليبتعد عن القطار، فجرى مسرعًا فوق أخشاب الكوبري التي لا يزيد سمك أي واحدة منها على ثمانية سنتيمترات. وعندما وصل إلى الشاطئ الآخر من النهر التفت خلفه فلم يجد قطارًا. ثم سمع أصوات عدد من الناس يتحدثون ويضحكون ولكنه لم يستطع أن يفهم شيئًا من حديثهم.

ونظر أمامه فوجد ميدانًا فسيحًا يتفرع منه عدد من الشوارع الضيقة. فسار في أحد تلك الشوارع. كان الشارع غير مستقيم، وعلى جانبيه منازل ذات شرفات خشبية. وخرج من الشرفات عدد هائل من الناس، نساء ورجال وأطفال ينظرون إليه. ثم سمع ضحكات هؤلاء الناس وكأنها ضحكات هستيرية ذات رنين يشبه رنين الصدى. لم يكن يسير في الشارع سواه. واختلط حديث الناس بضحكاتهم، وأمكنه أن يلتقط من حديثهم بعض كلمات. سمع أحد الرجال يقول ضاحكًا: "إنه يسير بلا رأس!". ثم استمرت الضحكات. ووضع رمزي يده على رأسه يتحسسه فوجد الرأس في مكانه فوق كتفيه. وتعجب، لماذا لا يرى الناس رأسه؟ فسرت في جسده قشعريرة وأخذ يرتجف وانطلق يعدو في الطريق، ولكن الطريق بدا وكأنه بلا نهاية!

وعلى طول الطريق وهو يعدو كان الناس يخرجون من الشرفات الخشبية لينظروا إليه وهم يضحكون ويشيرون إليه بأصابعهم. وظل يعدو وهو يلهث. وأخيرًا وجد نهاية الشارع، ووجد عند نهايته نفس الكوبري الذي سبق له أن عبره. فسار فوق إحدى الأخشاب الضيقة. وسمع هدير القطار من جديد وصيحات الناس تحذره من القطار القادم. وتلاشى صوت القطار دون أن يرى قطارًا. وفي منتصف الكوبري زلت قدمه وإذا به يهوي في النهر وأصوات عدد من البشر لا يراهم ترن في أذنه صارخة في فزع.

وفي هذه اللحظة صحا من نومه وهو يرتعد. فأضاء المصباح الذي بجوار سريره. وظل فترة من الزمن يكاد لا يصدق أن ما رآه لم يكن سوى حلم. فأسرع يتحسس رأسه بحركة لا إرادية. ثم امتدت يده إلى كتاب حواء بلا آدم الموضوع بجوار المصباح وحاول أن يقرأ، ولكنه لم يستطع التركيز فأعاد الكتاب إلى مكانه.

ذهب إلى المطبخ وعمل لنفسه فنجانًا من القهوة وجلس في البهو يحتسيه. وعندما انتهى من شرب القهوة قام وفتح النافذة فلفحت وجهه نسمات رقيقة.

ونظر إلى المدينة الكبيرة النائمة. كان السكون يخيم على القاهرة وأضواء المصابيح تكشف عن شوارع خالية من المارة.. فأغلق النافذة، وجلس على أحد المقاعد وسبح في بحر من الذكريات.

تذكر عندما كان طفلًا في نحو الثامنة من عمره، عندما كان يعيش في إحدى القرى مع والده ووالدته وأخته الصغيرة، وعندما كان يذهب إلى المدرسة. كانت المدرسة في المدينة التي تبعد عن القرية مسافة ساعة سيرًا على الأقدام، على قدميه هو، وكان يعبر شريط القطار مرتين في اليوم، مرة وهو ذاهب إلى المدرسة في الصباح، ومرة عند عودته في المساء. وتذكر عندما أوشك القطار أن يدهمه في صباح أحد الأيام وهو في طريقه إلى المدرسة. كان الضباب يخيم على الطريق فلم ير القطار وهو قادم. ولكن في أثناء عبوره القضبان الحديدية سمع هدير القطار، وما كاد يعبر القضبان حتى مر القطار وهو يصفر ويهدر. ووقف في ذلك اليوم ينظر مشدوهًا إلى القطار وهو منطلق مبتعدًا عنه وقد ابتلعه الضباب!

وتذكر عندما استيقظ من نومه في أحد الأيام فرأى منزله يموج بكثير من البشر، وعلم أنه لن يرى والده بعد ذلك اليوم لأنهم حملوه من المنزل ودفنوه في مكان بعيد.

وتذكر عندما ظهرت نتيجة الشهادة الابتدائية وذهب إلى المدينة ليشتري الصحيفة التي نشرت أرقام الناجحين، ورجع إلى منزله مسرورًا يخبر أمه وأخته أنه نجح في الامتحان.

وتذكر ليلة وفاة أمه التي كانت تكافح لتهيئ له فرصة الاستمرار في التعليم، وكيف أنه بعد وفاتها اضطر إلى الانقطاع عن الدراسة. وتذكر أنه في اليوم التالي جلس على شاطئ الترعة ووجد نفسه يبكي في وحدته. كان متفوقًا في دراسته، يحب قراءة الكتب، ولكنه منذ ذلك اليوم ظل في صراع مع الحياة ليضمن لقمة العيش له ولأخته.

وتذكر يوم وفاة أخته بسبب لدغة بعوضة حقنت في دمها ميكروب الملاريا. وكيف غادر القرية وذهب إلى المدينة ينتقل من عمل لعمل. ثم يوم ركب القطار لأول مرة في حياته ليستقر به المقام في مدينة القاهرة وينتقل فيها بين شتى الأعمال التي فشل فيها واحدًا بعد الآخر، وكيف انتهى به الأمر إلى شراء حبل يلفه حول عنقه لينهي حياته التعسة!

وفي أثناء اجترار هذه الذكريات لم يشعر بالوقت وهو يمر إلى أن انتشله من بحر ذكرياته صوت جرس الباب. فأسرع وفتح الباب فوجد مدرس الموسيقى الذي حضر في الموعد المحدد. فصافحه بحرارة وأجلسه في البهو.

أخذ مدرس الموسيقى يدير بصره في أنحاء البهو فرأى البيانو الموضوع في الركن وفوقه العود، وبجوار العود رأى الناي.

ذهب رمزي إلى المطبخ وعاد ومعه قدح من القهوة قدمه للضيف الذي نظر إليه وقال:

- أرى عندك بيانو وعودًا ونايًا، فهل تستطيع العزف على كل هذه الآلات؟!

- أستطيع أن أنفخ في الناي فتخرج منه بعض الأنغام. ولقد حاولت العزف على البيانو والعود وأمكنني تكوين بعض الألحان المعروفة.

فقام المدرس وجلس على كرسي البيانو وأخذ يداعب مفاتيحه، ثم أمسك الناي وقدمه إلى رمزي قائلًا:

- أسمعني بعض ألحانك.

فتناول رمزي الناي وأخذ ينفخ فيه، فلم يستطع المدرس أن يسيطر على نفسه، فانتصب واقفًا وأخذ يعبر البهو جيئة وذهابًا، ثم وقف أمام رمزي وقال:

- أنت موهوب! أنت فنان.. لم أسمع في حياتي أجمل من هذه الألحان.. أين كنت طوال هذه السنين؟!

- كنت أكافح في الحياة من أجل كسرة من الخبز!

- تكافح في الحياة؟! مثلك لا ينبغي أن يجوع.

ثم جلس رمزي على كرسي البيانو وأخذ يضغط على مفاتيحه، وإذا بالأنغام تنبعث عذبة متناسقة.

فصاح المدرس قائلًا:

- هائل. هائل. أنت فنان. هل تمارس العزف على البيانو منذ زمن بعيد؟!

قال رمزي:

- لم يكن عندي بيانو. لقد اشتريته منذ أيام قلائل.

- سيصبح لك شأن عظيم في يوم من الأيام. سأتولى تعليمك أصول الموسيقى والنوتة الموسيقية، وستصبح من أعظم الموسيقيين الذين يشار إليهم بالبنان. هيا بنا إلى الدرس الأول.

أقبل رمزي على دروس الموسيقى إقبالًا منقطع النظير. أصبحت الموسيقى طعامه وشرابه وشغله الشاغل ليلًا ونهارًا. كان كالجائع المحروم الذي دعي إلى وليمة عامرة بأشهى الأطعمة فأقبل عليها بنهم. كان يلتهم الدروس التهامًا. وفي فترة قصيرة أتقن العزف على العود والبيانو، وتمكن من الإحاطة بأصول النوتة الموسيقية وكل ما يمت للموسيقى بصلة.

وحين كان خارجًا من منزله ذات يوم، رأى إبراهيم البواب جالسًا على الدكة الخشبية التي اعتاد الجلوس عليها بجوار بوابة العمارة وبجواره شاب في نحو الثلاثين من عمره. فحيا البواب الذي قام ورد تحيته، ثم استوقفه البواب قائلًا:

- ألا يلزمك خادم يطهو لك الطعام وينظف المنزل؟

قال رمزي:

- نعم. أنا محتاج لمثل هذا الخادم.

قال البواب مشيرًا إلى الشاب الذي وقف بجواره:

- ها هو. إنه طباخ ماهر وأمين، على ضمانتي فهو من بلدي بالصعيد، وكان في خدمة عائلة يونانية تربى بين أفرادها منذ الصغر، ولكن هذه العائلة تركت البلاد وسافرت إلى اليونان، ولن تجد أفضل منه.

فقبل رمزي على الفور وسلم الخادم أحد مفتاحي الشقة، وطلب منه أن يصعد ويبدأ عمله في الحال بتنظيف الشقة، وسلمه بعض النقود لإعداد طعام الغداء.

سار رمزي وقد وضع إحدى يديه في جيب سرواله واعترته حالة نشوة فأخذ يصفّر بفمه وشعر بالسعادة تملأ قلبه. لم يكن يتصور أن بيته في يوم من الأيام سيضم خادمًا. لن يصبح وحيدًا في البيت بعد اليوم. وانطلق يصفر في نشوة وبهجة متجهًا نحو معهد الموسيقى.

وعندما اقترب من المعهد رأى الرجل الغريب الذي اشترى رأسه واقفًا بالقرب من بوابة المعهد يتحدث مع ذلك الشاب ذي الجرح الذي بالجبهة، فاختبأ رمزي حتى لا يراه أحد منهما. ولما تأكد من ابتعادهما عن المعهد واختفائهما عن نظره تسلل ودخل المعهد.

توجه نحو الغرفة التي رأى فيها مدرس الموسيقى لأول مرة، فلم يجده، ولكنه وجد شابًّا نحيلًا جالسًا وقد أطرق للأرض. سأله عن مدرس الموسيقى فأخبره بأنه سيحضر بعد قليل. فجلس رمزي ينتظر

المدرس الذي كان قد طلب منه الحضور إلى المعهد في ذلك الموعد ليقدمه إلى بعض المطربين أو المطربات. وبعد سبع دقائق حضر المدرس فصافح رمزي والتفت إلى الشاب النحيل وقال:

- ها هو رمزي الذي حدثتك عنه.

- وهذا هو المطرب عبد الحميد سالم.

فصافح رمزي المطرب قائلًا:

- فرصة سعيدة.. كنت أتمنى أن أراك.

فقال له المطرب:

- إنها فرصة سعيدة لي. أنا الذي كنت أتمنى أن أراك، فلقد حدثني عنك الأستاذ وعن عبقريتك الموسيقية.

وجلس الثلاثة. والتفت المدرس إلى المطرب عبد الحميد وقال:

- أين كلمات الأغنية؟

فأخرج عبد الحميد من جيبه ورقة وسلمها للمدرس قائلًا:

- ها هي.

فقرأها المدرس، ثم قال:

- أغنية جميلة.

ثم سلم الورقة لرمزي قائلًا:

- ها هي الأغنية التي ستلحنها للأستاذ عبد الحميد.

فقال رمزي بلهفة ودهشة:

- أنا؟ سألحن الأغنية؟!

قال المدرس:

- نعم. ستلحنها ليغنيها عبد الحميد في الإذاعة وأنا واثق أن المسئولين هناك سيعجبون بلحنك وسيوافقون على اعتمادك ملحنًا بالإذاعة. والمطلوب منك الانتهاء من تلحينها في خلال ثلاثة أيام. ممكن؟

فقال رمزي وقلبه يكاد يقفز من صدره فرحًا:

- ممكن طبعًا. غدًا أنتهي من اللحن.

لما وصل رمزي إلى منزله وجد محمدًا الخادم قد انتهى من إعداد الطعام.. فتناول غداءه وأخذ العود وبدأ يترنم ببعض الأنغام محاولًا تلحين الأغنية.

شعر بإرهاق شديد، واقترب منه الخادم ليذكره بأنه لم يتناول عشاءه، ولكن رمزي كان مستغرقًا في التلحين فطلب من خادمه أن يتركه وشأنه ويذهب لينام.

وبعد فترة ترك رمزي العود وجلس أمام البيانو وبدأ يعزف ألحان تلك الأغنية. ثم وضع رأسه على يديه. وسمع صوتا يناديه قائلًا:

- يا أستاذ رمزي. يا أستاذ رمزي.

رفع رمزي رأسه وفتح عينيه، فرأى ضوء الشمس يغمر البهو، والتفت فوجد الخادم واقفًا بجواره، قال الخادم:

- هل نمت هنا طوال الليل؟ لماذا لم تذهب لتنام في فراشك؟!

فتعجب رمزي. لقد ظل يلحن الأغنية حتى ساعة متأخرة من الليل، أو ساعة مبكرة من الصباح، ولم يدر أنه ظل نائمًا بعد ذلك طوال الليل وهو مستند برأسه على البيانو!

انتهى رمزي من تلحين الأغنية وأخذ يعزف بعض ألحانها على العود، فطلب من الخادم أن يعد له فنجانًا من القهوة. ولما احتسى قهوته جلس يدوِّن ألحان الأغنية، ثم أخذ عوده وغادر منزله متجهًا نحو معهد الموسيقى ليسلم اللحن للمطرب.

كان عبد الحميد المطرب جالسًا بمفرده في غرفة المعهد. فصافحه رمزي وتناول عوده وأخذ بألحان الأغنية، فلم يستطع المطرب أن يسيطر على مشاعره فقام واحتضن رمزي قائلًا:

- هذا أجمل لحن سمعته في حياتي. ما هذا الجمال كلّه؟

وبدأ رمزي يردد اللحن ليحفظه.

علم رمزي أن الأغنية ستذاع من محطة الإذاعة بعد أسبوع، وعلى التحديد في الساعة السابعة وخمس دقائق من مساء يوم الأربعاء. فظل ينتظر تلك اللحظة بصبر نافد. وقبل إذاعة الأغنية بنحو ساعتين ظل جالسًا في منزله بجوار الراديو وبجواره خادمه محمد الذي جلس القرفصاء في انتظار هذا الحدث العظيم!

وأذيعت الأغنية. وظل رمزي طوال مدة إذاعتها مطرقًا للأرض منصتًا إليها بكل جوارحه. وعندما انتهت إذاعة الأغنية أقبل عليه خادمه مهنئًا في حرارة فطرية خالية من التكلّف. وعندما نظر الخادم إلى وجه رمزي وجد الدموع تنساب من عينيه على خده. لم يكن يدري رمزي شيئًا عن عدد الذين استمعوا إلى هذه الأغنية. كم من الناس كان منصتًا إليها؟ وكم من الذين أنصتوا إليها انتبهوا إلى اسمه الذي يذاع لأول مرة كملحن لهذه الأغنية؟ وكم من الذين أنصتوا للاسم اهتموا به واختزنوه في ذاكرتهم؟ إنه لم ير من الجماهير سوى خادمه محمد الذي أنصت إليها بحكم منصبه ولا يعرف حقيقة مشاعره.

خيل لرمزي في هذه اللحظة أنه إذا سار في الطريق فلن يسمع سوى تعليقات على تلك الأغنية، وإذا تصفح صحيفة فسوف يجد العناوين الضخمة تشير إليها! وأن الناس تجمعت في الطرقات حول أجهزة الراديو في أثناء إذاعتها وانصرفت بعد انتهاء الأغنية ولا همّ لهم سوى التساؤل فيما بينهم "من هو رمزي عبد الحميد هذا؟.. إنه فنان عبقري!".

وتصور أن التليفون لن يتوقف له رنين حاملًا إليه تهاني المعجبين. ولكن تليفونه ظل صامتًا كالقبر. فعاد يقول لنفسه إن كل ما دار في ذهنه أوهام أو أحلام يقظة وأن شيئًا من هذا لا يمكن أن يحدث مهما اهتزت الجماهير طربًا لألحانه. فالفنان قد يحلم في يقظته ويشطح به الخيال فيظن أن عمله الفني هو محور تفكير الكون، وأن الجماهير سوف تهتم بفنه وتحس به بنفس القدر من الإحساس الذي يشعر به الفنان تجاه عصارة ذهنه. ولكن الناس في الواقع قد يلتفتون إليه بطرف عيونهم ثم تحتويهم بعد ذلك مشاغل ومشكلات كثيرة يرزحون تحت أعبائها فلا يشغل العمل الفني من تفكيرهم سوى دقائق أو بضع ثوان. فاهتمام الإنسان بأبنائه لا يمكن أن يقارن باهتمام سائر الناس بهم.

ثم اعترت رمزي حالة من النشوة. شعر برغبة في الخروج من المنزل والتجول في الشوارع على غير هدى، ولكنه عدل عن هذه الفكرة. وقام واحتضن العود وارتفع صوته مرددًا نفس الأغنية، فوقف خادمه مشدوهًا وقد فتح فمه كالأبله ولم يتكلم. وعندما انتهى من الغناء قال له الخادم:

- لماذا لم تؤد الأغنية بصوتك؟ إن صوتك أجمل بكثير من صوت المطرب الذي غناها. صوتك جميل، جميل وليس له مثيل!

اعتبر رمزي حديث خادمه نوعًا من المجاملة. فوضع العود فوق البيانو وذهب إلى سريره ونام بدون عشاء.

وفي الصباح خرج يسير في شوارع المدينة، ووجد نفسه أمام محطة الإذاعة، ترى هل كان وصوله إلى محطة الإذاعة عن قصد أو بدون قصد؟ صعد سلم الإذاعة، وسأل عن مراقب الموسيقى. ودون أن يدري لماذا أتى وما الذي يريده من مراقب الموسيقى دخل الغرفة وذكر اسمه للمراقب. فقام المراقب وصافحه بحرارة قائلًا:

- تفضل اجلس يا أستاذ رمزي.

ونادى الفراش وطلب منه إحضار قهوة لرمزي. وبعد أن شرب القهوة التفت إليه المراقب وقال:

- لحن الأغنية في غاية الجمال، ونتمنى المزيد من هذه الألحان الرائعة.

فشعر رمزي بالسعادة وأراد أن يقول شيئًا، ولكنه لم يجد ما يقوله، وبعد فترة قصيرة قال وهو مطرق للأرض:

- نصحني بعض الناس أن أغني بصوتي. يقولون إن صوتي جميل.

قال مراقب الموسيقى:

- سأحدد لك موعدًا لاختبار صوتك.

وفتح نوتة كانت أمامه وأخذ يقلب في صفحاتها، ثم قال لرمزي:

- يوم الأربعاء القادم الساعة العاشرة صباحًا.

كانت لجنة الاختبار لصوت رمزي مكونة من ثلاثة أشخاص، مراقب الموسيقى وشخصين آخرين سمع عنهما رمزي ولكنه يراهما اليوم لأول مرة.

وقف رمزي يؤدي الاختبار فشعر بدقات قلبه تسرع وخيل إليه أنه يسمع لها صوتًا، وخشي أن يلتقط الميكروفون صوت دقات قلبه فتنبعث من مكبر الصوت وكأنها دقات الطبول! وبدأ يغني مثبتًا نظره على وجوه أعضاء اللجنة محاولًا أن يستشف من خلجاتها ما ينم عن الاستحسان أو الاستهجان، ولكنها كانت جامدة وكأنهم وضعوا على وجوههم أقنعة لا تنم عن أي إحساس بالرضا أو بعدم القبول. في هذه اللحظة تذكر رمزي أمه. كانت تدعو لله وهو ذاهب لأي امتحان قائلة:

- ربنا يفتح عليك، ويجعل في وجهك القبول، ويلهمك الصواب.

ولكن أمه ماتت منذ سنوات عديدة ولا يوجد الآن من يدعو له أو يفرح أو يحزن من أجله. واستمر يغني. وعندما انتهى من الغناء وجد أعضاء اللجنة يتبادلون فيما بينهم حوارًا قصيرًا. وقام مراقب الموسيقى وصافحه قائلًا:

- مبروك يا أستاذ رمزي. صوتك جميل فعلًا ولا مثيل له في الأصوات التي نسمعها.

وبعد عشرة أيام سلمه مراقب الموسيقى ثلاث أغانٍ من "مختارات الإذاعة" لتلحينها وغنائها. فأعد رمزي لافتة نحاسية مكتوبًا عليها "رمزي عبد الحميد" وتحت اسمه كلمة «موسيقار»! وثبتها عند باب شقته. ثم دخل الشقة وبدأ في تلحين الأغاني.

كان رمزي قد انتهى من قراءة رواية حواء بلا آدم وشعر برغبة شديدة في الاستمرار في القراءة. إنه يعلم جيدًا أبعاد ثقافته، وأنه لم تتح له فرصة إتمام التعليم. فهو يريد أن يقرأ، ويقرأ كثيرًا ليستكمل هذا النقص. ولكن ماذا يقرأ؟ ومن الذي يأخذ بيده ويدله على الكتب التي تستحق القراءة؟ فالكتب في كل مكان. على أرصفة الشوارع وفي المكتبات وفي أكشاك الصحف. كتب كثيرة تحمل عناوين كثيرة يتوه فيها الإنسان. القليل منها جيد جدير بالقراءة والكثير غث هابط لا تقدم قراءته وقد تؤخر، إذ إن البعض منها يحمل بين طيات صفحاته السم الزعاف.

لقد أضاع رمزي أعوامًا طوالًا من عمره لم يفكر في أثنائها في قراءة كتاب مفيد. كان يرزح تحت أعباء الحياة، تطحنه الأيام وكأنه بين شقي رحى. لم يكن يفكر إلا في قوت يومه، فكلما مضى يوم كان يفكر كيف سيعيش يومًا آخر. حياة قلقة مضطربة. لم يكن يدرك في تلك الأيام أنه يحب القراءة. حتى الموسيقى لم يكن يدرك أبعاد موهبته فيها. كل ما كانت تتركه له أعباء الحياة من راحة النفس لم تكن تتعدى تلك اللحظات القصيرة التي كان يتناول فيها الناي المصنوع من الغاب وينفخ فيه بضع نفخات تتحول إلى أنغام.

كان في تلك الأيام كمسافر في سفينة تصارع الأمواج في عاصفة عاتية، وفي مثل هذه اللحظات لا يفكر الإنسان إلا في محاولة النجاة من الموت أو الاستسلام للقدر.

وضع رمزي العود فوق البيانو وخرج إلى شوارع القاهرة يبحث عن كتاب يقرؤه. وفي ميدان سليمان باشا بالقرب من محل «جروبي» وجد كشكًا للصحف والكتب. كم من مرة سار في هذه الطريق ولم يلاحظ وجود هذا الكشك.

وقف أمام الكشك وأخذ يتابع بعينيه عناوين الكتب المرصوصة. واسترعى انتباهه كتاب بعنوان "عظماء عصاميون" فاشتراه. ولم ينتظر حتى يصل إلى منزله بل جلس في أحد أركان مقهى قريب وطلب فنجانًا من القهوة وبدأ يقرأ.

وبعد أن انتهى من قراءة ست وأربعين صفحة رفع عينيه عن الكتاب وبدأ يفكر فيما قرأه. لقد علم لأول مرة أن شكسبير الإنجليزي وبرناردشو الأيرلندي ومكسيم جوركي الروسي وشارلز دكنز الإنجليزي لم تتح لهم الظروف فرصة الاستمرار في التعليم المدرسي والجامعي، ومع ذلك فلقد أذهلوا الدنيا بروائع المؤلفات التي أصبحت تدرس في الجامعات. لقد علّموا أنفسهم ولم يتلقوا العلم في فصول ينتظم فيها التلاميذ ومدرجات تمتلئ بالطلبة. فلم يضيعوا سنوات عمرهم سدى في استظهار معلومات جافة. والضياع في متاهات دراسية تخرب مواهبهم وتدمرها. فشعر بشيء من راحة النفس.

نادى الجرسون ودفع الحساب وطوى كتابه وغادر المقهى. وفي أثناء سيره استرعى انتباهه خزانة للكتب كبيرة الحجم معروضة في أحد متاجر الأثاث، فدخل المتجر واشتراها وأعطى عنوانه لتوصيلها إلى منزله.

وصل إلى المنزل، ووقف ينتظر المصعد. وهبط المصعد، وخرج منه رجل قصير بدين، ودخل رمزي. وبينما هو يحاول إغلاق باب المصعد استعدادًا للصعود أبصر فتاة تسرع الخطى نحو المصعد، فانتظرها، دخلت الفتاة وأقفل باب المصعد وسأل الفتاة عن الدور الذي هي صاعدة إليه فأخبرته أنه الدور الخامس. فقال لها إنه نفس الدور الذي هو صاعد إليه. وتحرك المصعد إلى أعلى. وفي خلال تلك الفترة القصيرة أمكنه أن يدرك أن الفتاة في نحو التاسعة عشرة، وأنها جميلة، ذات شعر طويل مرسل ووجه ناصع البياض به بعض النمش، ترتدي ثوبًا أزرق سماويًّا وفي يدها حقيبة سوداء متوسطة الحجم.

وتوقف المصعد عند الدور الخامس فخرجت الفتاة، وخرج بعدها رمزي وأقفل باب المصعد واتجه نحو شقته واتجهت الفتاة نحو إحدى الشقق في ذلك الدور. ودخل رمزي شقته والفتاة لا تزال واقفة تضغط على جرس الشقة رقم 14 المجاورة لشقة رمزي.

كان محمد الخادم متكورًا فوق أحد الكراسي الفوتيل في البهو يغط في نومه وقد علا شخيره، والراديو مفتوح بجواره يذيع نشرة الأخبار. استيقظ محمد على صوت إغلاق باب الشقة، وانتفض

واقفًا عندما أبصر رمزي، فقال له رمزي:

- الغداء جاهز يا محمد؟

فأجاب محمد وهو يفرك عينيه:

- جاهز يا أستاذ رمزي.

فتناول رمزي غداءه وجلس يواصل قراءة كتاب "عظماء عصاميون" ولم يتركه إلا بعد أن أتم قراءته. ثم تناول العود ووضع أمامه كلمات إحدى الأغاني الثلاث التي تسلمها من الإذاعة. لم يستطع إتمام التلحين فترك العود وذهب إلى غرفة النوم ليستريح. ثم غلبه النوم فنام.. ورأى في منامه حلمًا.

رأى أنه يسير في أحد الشوارع الفسيحة بالقاهرة. وبدأ الناس يتجمعون والكل ناظر نحو السماء. فوقف معهم ونظر حيث ينظرون فرأى نجمًا لامعًا. وأخذ ضوء النجم يزداد تألقًا ولمعانًا يكاد يخطف الأبصار. ثم رأى جميع هؤلاء البشر تتحول عيونهم من النظر إلى السماء وينظرون نحوه. فشعر بخوف شديد وأخذ يعدو والجموع المحتشدة تجري خلفه. ولحق به الناس وحمله بعضهم على أكتافهم وساروا في مظاهرة يهتفون هتافات عالية ولكنها متداخلة وغير واضحة فلم يستطع فهم كلماتهم. واجتازوا به بابًا متسعًا على شكل نصف دائرة كبيرة. ووضعوه فوق خشبة مسرح كبير. ووجد نفسه يقود فرقة موسيقية فوق هذا المسرح أمام عدد هائل من الجماهير منصتين باهتمام إلى الموسيقى.

ثم أسدل الستار. وفتح الستار من جديد. ونظر رمزي إلى الجماهير فلم يجد سوى رجل واحد ذي ملامح مخيفة جالس أمام آلة ضخمة تشبه آلات تسجيل النقود التي نراها في المحال التجارية.. كان الرجل يضغط على أزرار هذه الآلة فتنبعث منها أنغاما غير متناسقة.. وتحولت هذه الأنغام إلى صوت رياح تهدر ثم إلى رعد يقصف.. وأخذ البرق يلمع فشعر بفزع وقفز من فوق المسرح ووجد نفسه يعدو في شارع ضيق موحش مظلم، وكلما سار فيه بضع خطوات برز له في الظلام ذلك الرجل المشوه الوجه يضحك ضحكات جنونية ثم يختفي!

وعندما صحا من نومه كانت الشمس قد غربت وساد الظلام.. استأنف تلحين الأغنية فأتمه. ثم بدأ في تلحين الأغنية الثانية وانتهى منه.. وتناول الأغنية الثالثة، ولما انتهى من تلحينها أدرك أن يومًا جديدًا قد بدأ.

وفي معهد الموسيقى بدأت بروفات الأغاني بمصاحبة الفرقة الموسيقية، وفي خلال أسبوع كان على استعداد لتسجيل الأغاني الثلاث، وتحددت الساعة الثانية عشرة ظهر يوم الخميس موعدًا لهذا التسجيل بالإذاعة.

وفي الموعد المحدد ذهب رمزي إلى دار الإذاعة فوجد الفرقة الموسيقية في انتظاره، وبدأ تسجيل الأغنية الأولى، ثم الثانية، ثم الثالثة.

وعندما أذيعت هذه الأغاني مع برامج الإذاعة توقع رمزي ألا تكف أجراس تليفونه عن الرنين، وأن تصله مئات الخطابات من المعجبين والمعجبات. ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث. لم يصله سوى خطاب واحد بعد نحو أسبوعين، وجده داخل الشقة بالقرب من الباب. التقط الخطاب بلهفة وفتحه، وقبل أن يقرأه نظر إلى الإمضاء. إنه من فتاة تدعى "إلهام". من تكون إلهام هذه؟ أخذ يقرأ الخطاب. لم يكن طويلًا، خمسة أسطر فقط. تقول الفتاة صاحبة الخطاب إنها رأت رمزي مرة واحدة، وكان ذلك في المصعد، فهي تسكن بجواره في نفس العمارة. وتقول إنها استمعت لأغانيه، وهي معجبة به إعجابًا شديدًا، وسوف تلقاه يوم الخميس القادم في أحد المنازل بالزمالك، وستنتهز هذه الفرصة للتحدث إليه ولو لبضع دقائق.

دارت الأفكار في رأس رمزي. شعر بفرحة تهزه من الأعماق ممتزجة بالحيرة. هذه أول مرة في حياته يصله خطاب. ولكنه خطاب عجيب.. ستقابله في منزل في الزمالك يوم الخميس القادم؟! أي منزل هذا.. إنها لم تذكر عنوان المنزل ولا موعد اللقاء! وأخذ يرهق ذهنه لحل هذا اللغز.

ومن تكون هذه الفتاة المعجبة به؟ أضاءت في رأسه فكرة. لا بد أنها الفتاة الجميلة ذات الثوب الأزرق التي ركبت معه المصعد، إنها تسكن بجواره في الشقة رقم 14. احتار ولم يدر ماذا يفعل؟! هل يذهب إليها في منزلها ويستوضح منها الأمر؟!. منعه خجله الشديد من الإقدام على هذه الخطوة، ثم عجز عن الاستمرار في التفكير في هذا الموضوع المحير. فطوى الخطاب بعناية ووضعه بين صفحات كتاب «حواء بلا آدم».

انتابه شعور غريب لا عهد له به من قبل، فتاة معجبة به تود أن تراه وتتحدث معه! إنه شيء لم يألفه. وتمنى أن يدق الجرس ويفتح الباب فيرى هذه الفتاة. ولكن الجرس ظل صامتًا لا يدق. وماذا تريد أن تقوله الفتاة؟ وماذا سيقول لها؟ وبينما هو سابح في بحر أفكاره، دق الجرس. فانتفض وأسرع بفتح الباب. لم تكن الفتاة، بل وجد رجلًا طويلًا نحيلًا. سأله الرجل:

- الأستاذ رمزي الموسيقي موجود؟

- أنا رمزي.

- أهلًا وسهلًا. تسمح لي أتكلم معك خمس دقائق؟

- بكل سرور. تفضل.

دخل الرجل وجلس في البهو وساد الصمت فترة من الزمن. من يكون هذا الرجل؟ ترى هل هو والد إلهام؟ ولماذا أتى؟ هل يعلم شيئًا عن خطاب إلهام؟ وماذا يريد أن يقول؟

ولكن الرجل قطع فترة الصمت قائلًا:

- فرح ابنتي يوم الخميس القادم.

قال رمزي:

- مبروك. ألف مبروك.

ومن تكون ابنته هذه؟ هل هي إلهام؟ وما شأنه هو بفرح ابنته؟ ولكنه عرف علاقته بالفرح عندما قال الرجل:

- نود أن تحيي لنا هذا الفرح يا أستاذ رمزي. ابنتي اختارتك أنت بالذات من بين جميع المطربين، وأصرت على ذلك.

لم يستطع رمزي أن يخفي الفرحة التي أطلت من عينيه وقال:

- أنا أشكرها على هذه الثقة.

ولكن من هي ابنته؟ هل هي إلهام؟ سأله رمزي:

- وأين سيكون الفرح إن شاء الله؟

فقال الرجل:

- في منزلنا بالزمالك.. وسنرسل لك السيارة في الثامنة من مساء ذلك اليوم لتقلك إلى المنزل.

ثم أطرق لحظة واستطرد قائلًا:

- أما فيما يختص بالأجر فسأترك لك تقدير ذلك. كم يا ترى تطلب أجرًا لإحياء ذلك الحفل؟

احتار رمزي ولم يدر ماذا يقول. هذه أول مرة يطلب منه الغناء في حفل زواج ولا علم له بالأجر المناسب. فأطرق للأرض ولزم الصمت. فأخرج الرجل محفظة نقوده وسلم رمزي خمسين جنيهًا قائلًا:

- أتعشم أن تكون مائة جنيه أجرًا مناسبًا. ها هو نصف المبلغ، وسأسلمك النصف الباقي عقب انتهاء الحفل.

أخذ رمزي الخمسين جنيهًا دون أن يتكلم ووضعها أمامه على المنضدة وبذل مجهودًا لكي لا تبدو في ملامح وجهه الفرحة التي جاشت في أعماق نفسه. مائة جنيه لكي أغني ليلة واحدة! لقد بدأت أبواب الأمل تنفتح أمامي!

وعندما خرج الرجل من منزله تناول رمزي الخمسين جنيهًا من فوق المنضدة وأخذ يعدها ثم وضعها في أحد الأدراج وجلس يفكر في أفراد الفرقة الموسيقية الذين سيصطحبهم معه إلى ذلك الحفل. ثم عاد يفكر في خطاب إلهام. أهي العروس؟ ولماذا يقام حفل زفافها في منزل بالزمالك؟ ربما يكون منزل أحد أقاربها. وعاد يفكر في أفراد الفرقة الموسيقية.

في الساعة الثامنة وخمس دقائق من مساء الخميس دق جرس الباب. وعندما فتح رمزي وجد أمامه شابًّا عرف أنه سائق السيارة التي ستحمله إلى مكان الحفل. توقفت عند باب حديقة فيلا أنيقة بشارع الجبلاية بالزمالك. فهبط رمزي من السيارة وقاده السائق عبر ممر طويل في وسط الحديقة انتهى بسلم. أسرع السائق بصعود السلم وضغط على زر جرس الباب. ولما فتح الباب أطل منه خادم أسمر يرتدي جلبابًا أبيض وحزامًا من القماش الأحمر. قال الخادم مبتسمًا:

- الأستاذ رمزي. أهلًا وسهلًا. تفضل.

دخل رمزي بهو المنزل، بهو فسيح، جدرانه محلاة بنقوش ذهبية وتزينه لوحات رائعة. كان ممتلئًا بالمدعوين رجالًا ونساء وفتيات وأطفالًا. تطلع الجميع إلى رمزي الذي حياهم، ثم وقف برهة حائرًا لا يدري أين يذهب. وبعد فترة قصيرة رأى والد العروس قادمًا نحوه وصافحه بحرارة قائلًا له:

- أهلًا وسهلًا يا أستاذ رمزي. تفضل.

وقاده نحو أحد أركان البهو وأجلسه على أحد الكراسي وجلس بجواره. وأراد رمزي أن يطمئن على وصول العازفين فقال لصاحب المنزل:

- ترى هل وصل العازفون؟

قال والد العروس:

- أجل. وصلوا منذ نحو ربع ساعة، وهم هناك في الحديقة الخلفية حيث سيكون الحفل.

أقبل الخادم الأسمر وقدم لرمزي كوبًا من الشربات. وبعد نحو عشر دقائق التفت والد العروس إلى رمزي قائلًا:

- هل تحب أن نبدأ الحفل؟

- لا مانع ما دام العازفون قد حضروا.

صحبه الرجل إلى الحديقة الخلفية فوجدها تتلألأ بالأضواء، ورأى المناضد متناثرة فوق بساط من النجيل الأخضر وبين الأشجار، وقد جلس حولها عدد كبير من المدعوين. وفي صدر المكان منصة مرتفعة جلس عليها العازفون وتركوا كرسيًّا شاغرًا في الوسط ليجلس عليه رمزي. وفي الاتجاه المضاد كانت العروس جالسة بجوار عريسها وخلفهما وعلى الجانبين عدد هائل من باقات الأزهار.

اعتلى رمزي المنصة فارتفع دوي التصفيق. إنها أول مرة في حياته يواجه فيها الجماهير. انحنى لهم ليرد تحيتهم. ثم جلس على الكرسي المعد له. واعتلى المنصة شاب ضئيل الحجم ضبط ارتفاع الميكروفون أمام رمزي. وبدأ العازفون يضبطون آلاتهم. وحانت من رمزي التفاتة نحو الجماهير. وإذا بقلبه يشتد خفقانه، فلقد رأى إلهامًا جالسة مع بعض الفتيات والنساء حول منضدة بالقرب من المنصة ناظرة إليه وعلى شفتيها ابتسامة وبدت سعيدة مبتهجة. ظل رمزي ناظرًا لإلهام واحتار ماذا يفعل. هل يجيبها؟ وأخيرًا أومأ برأسه محييًا فردت تحيته وكأنها طفلة صغيرة على وشك أن تقفز فرحًا. أدرك رمزي أن إلهامًا كانت تعلم بموعد هذا الحفل، ولذا كتبت إليه في خطابها القصير أنها ستراه يوم الخميس في منزل بالزمالك. وها هو ذا يراها في مكان لم يكن يخطر على باله أن يراها فيه.

بدأت الفرقة الموسيقية تعزف مقدمة الأغنية ورمزي لا يزال شارد اللب. وانتهت الفرقة من العزف وكان المفروض أن يبدأ رمزي الغناء، ولكنه لم يفعل. فأعادت الفرقة عزف المقدمة. ولما انتهت المقدمة في هذه المرة بدأ رمزي يغني أغنيته الأولى:

من طول سؤالي عليك كترت ظنون الحبايب

وازاي راح أشكي إليك وأنت ناسيني وغايب؟

* * *

فضلت وحدي مع الأيام محروم من الود الصافي

لا نوم يزورني ولا أحلام تسامر القلب الوافي

لما الزمان ضمّك ليَّ رفرف على القلب حنانك

عرفت معنى الحنيّة وفضِلْت عايش علشانك

ولما طاب الود وطال حَرَمت ليه عِيني منَّك

خليتني بعد الهجر خيال   شارد وحيد يسأل عنَّك

وازّاي يفوت يوم يا حبيبي   ما اسألش عليك؟

وأنت اللي م الدنيا نصيبي   والروح في إيديك

وطول سؤالي عليك،   كَتَّر ظنون الحبايب

وازاي راح أشكي إليك   وأنت ناسيني وغايب؟

* * *

أسأل عليك كل الأحباب   من يوم ما غاب حسنك عني

وطال عذاب القلب وداب   من غير ما حد يطمني

شافوا الحبايب أحوالي   قالوا لي، لازم هايم بيه!

حفظت في القلب سؤالي   ليبَيِّن اللي فضلت أداريه

محروم من اللي باحبه   ومن سؤالي عليه

وامتى حاسْعَد بقربه   وأشكي عذابي إليه؟

وازاي يفوت يوم يا حبيبي وما اسألش عليك؟

وأنت اللي م الدنيا نصيبي والروح في إيديك

وطول سؤالي عليك كَتّر ظنون الحبايب

وازاي راح أشكي إليك وأنت ناسيني وغايب؟

وعلت صيحات الاستحسان عدة مرات في أثناء الغناء تطلب إعادة أجزاء من الأغنية. وعندما انتهى من الغناء وقفت إلهام تصفق. وفي فترة الاستراحة من الغناء هبط رمزي من فوق المنصة واتجه نحو إلهام وصافحها كما صافح من كان معها حول نفس المنضدة وأسرعت إلهام فالتقطت أحد الكراسي ووضعته بالقرب منها حول نفس المنضدة ودعت رمزي للجلوس فجلس.

ثم بدأ العازفون يعزفون لحنًا من ألحان الرقص وظهرت فجأة في الحديقة راقصة ذات شعر أشقر لم يدر رمزي من أين أتت، وكأنها خرجت من تحت الأرض. وأخذت تدور في أنحاء المكان راقصة على أنغام الموسيقى. تلف وتنحني وتهتز وتعتدل في حركات رشيقة جعلت رمزي ينظر إليها مشدوهًا. ثم اتجهت نحو العروس والعريس وأخذت ترقص لهما. وعلى غير انتظار قفزت وجلست على كتفيهما وأخذت تميل إلى الخلف ثم اعتدلت وابتعدت عنهما وأخذت تدور من جديد راقصة في أنحاء الحديقة. وكما ظهرت فجأة، اختفت فجأة!

لم تتح لرمزي فرصة الحديث مع إلهام في أثناء الرقص. وعندما اختفت الراقصة صعد رمزي على المنصة ليغني أغنيته الثانية:

سابحٌ عند السحابْ بين أحضان المساء

طائر ذاق العذاب ظلّ في بحر السماءْ

* * *

كلما راح يغني   خانه الدمع، بكى..

لو رأى خلا يواسي أو حبيبا، لاشتكى..

* * *

ودّع الجوَّ ومالْ   بعد أن طال الصراعْ

وهوى فوق الرمال   في أنين والتياعْ

* * *

ضمّه قلبي ولكن   طيفه يسكن عيني

يتغذى من دموعي كلما أبكى التجنّي

فإذا جفت عيوني خِفتُ أن يبعد عني

وقوبلت أغنيته هذه بنفس الحماس والاستحسان الذي أثارته أغنيته الأولى ووقفت إلهام تصفق، وكأنها في ملعب من ملاعب كرة القدم، وقد أحرز الفريق الذي تشجعه هدفًا ضد الفريق الآخر!

هبط رمزي من فوق المنصة وجلس حول المنضدة التي تجلس عندها إلهام وفوق الكرسي الذي حرصت إلهام أن يظل شاغرًا حتى يعود إليه. وظهرت الراقصة للمرة الثانية وأخذت ترقص. وبعد لحظات التقطت عصا من أحد المدعوين وأخذت تحركها في أثناء الرقص. ثم ثبتتها في وضع أفقي فوق ثدييها وهي ماضية في رقصها وكأن العصا قد التصقت بجسدها بمغناطيس أو بمادة لاصقة! فألقى لها أحد المدعوين عصا أخرى. فطوحت بالعصا الأولى نحو صاحبها وأحلت العصا الثانية محلها واستمرت في رقصها والعصا مرتكزة على ثدييها. شدت هذه الحركة انتباه رمزي وأدهشت

جميع المدعوين وبدت الراقصة وكأنها ساحرة!، ثم طوحت بالعصا الثانية نحو صاحبها الذي التقطها، ثم اختفت الراقصة وكأن الأرض انشقت وابتلعتها!

صعد رمزي إلى المنصة ليغني أغنيته الثالثة. كانت الأغنية من نوع «السريناداا»، عزفت الفرقة المقدمة الموسيقية للأغنية ثم بدأ رمزي يغني:

هايم في حسنك

أناجي رسمك

ينادي باسمك   قلبي العليل

عيوني تشكي من بُعدك   والفكر والروح ويِّاك

وقلبي محروم من قربك وهوَّ طول عمره معاكِ

* * *

من كتر وجـدي

يضنيـني سهدي

وأهيم لوحدي   والدنيا ليل

وكل آمالي في حبك   أسعد عيوني بجمالك

يكفيني من بُعد أنظرْلِك   أنعش خيالي بخيالك

من غير ماتدري

شغلتِ فكري

ونمتِ بدري   والليل طويل

ليه بس تتجنّى عليَّ   ونور عيوني من طيفك

حرام أصونك في عينيَّ وتنامي من غير ما تشوفك

* * *

وقفت ساكت، والليل سكون آخذ نصيبي من الشجون

لما النسيم يخطر عندي   أشكي إليه

يشوف دموعي على خدي   أصعب عليه

أحَلِفه يحمل حُبّي   ويمر عليكِ

ويبلغك أشواق قلبي   الهايم بيكِ

* * *

فضلتِ نايمة وأنا حيران ما بين شجوني والأوهام

ضاعت وتاهت أحلامي وتسعدي أنت بالأحلام

كانت عينا رمزي طوال الأغنية في عيني إلهام التي كانت تنظر إليه مبتسمة. كان يشعر بأن إلهامًا هي الإنسانة الوحيدة التي يعرفها من بين جميع المدعوين. ثم تصور أنه ارتكب خطأ إذ كان من دواعي المجاملة أن ينظر إلى العروس، ولكنه عاد يقول لنفسه إنه كان من الأصوب عدم النظر نحو العروس حتى لا يثير غيرة العريس! وأراحت نفسه هذه الفكرة الساذجة!

وحان موعد «البوفيه» فاتجهت نحوه العروس وبجوارها عريسها وخلفهما جميع المدعوين. ووقف العريس والعروس أمام كعكة الزفاف المتعددة الطبقات وكأنها إحدى ناطحات السحاب. وأخذ رمزي يدير بصره باحثًا عن إلهام فرآها تتحدث وتضحك مع إحدى صديقاتها، وما إن رأته حتى هرولت نحوه ووقفت بجواره. لم تتح له فرصة الحديث مع إلهام فقد تجمعت حوله باقة من الفتيات الجميلات. وقالت له إحداهن:

- كنا نريد أن يستمر الغناء حتى الصباح يا أستاذ رمزي.

قال رمزي:

- لا أحب أن أرهقكن بالسهر.

قالت فتاة أخرى:

- إنها متعة يا أستاذ وليست إرهاقًا. لم أسمع في حياتي أجمل من صوتك.

تمنت إلهام أن تكون هي التي قالت هذا، وشعرت بغيرة لم تعرف لها سببًا. أتى المدعوون على كل ما كان فوق المائدة من حلوى وفطائر وكأنهم سرب من الجراد انقض على بستان من الفراولة فالتهم الأخضر واليابس وأحاله إلى أرض جرداء. وعندما هَمّ رمزي بالانصراف تقدم نحوه والد العروس وشكره على ما أشاعه في قلوبهم من بهجة وفي نفوسهم من متعة بصوته الشجي وفنه الرائع في هذه الليلة وسلمه ظرفًا به باقي الأجر. وضع رمزي الظرف في جيبه دون أن يفتحه. وقال له والد العروس:

- السيارة في انتظارك أمام الباب لتوصيلك إلى منزلك.

شكره رمزي وسارا معًا نحو الباب الخارجي، وبقي والد العروس عند الباب حتى ركب رمزي وتحركت السيارة. أبصر رمزي إلهامًا تسير بمفردها فطلب من سائق السيارة أن يتوقف وعرض على إلهام أن تركب معه فطريقهما واحد. وكالعصفور قفزت إلهام دون تردد وجلست بجوار رمزي ولم تستطع إخفاء سعادتها.

ساد الصمت بينهما فترة من الزمن. كانت إلهام تنتظر أن يبدأ رمزي الحديث، ولكنه ظل صامتًا مطرقًا نحو الأرض. فنظرت إليه وفتحت فمها على وشك أن تحدثه، ولكنها أطبقت فمها ولم تتكلم عندما رأته مستغرقًا في التفكير. وأخيرًا قالت له مبتسمة:

- فيم تفكر؟

فانتفض رمزي وكأن أحدًا أيقظه من نومه بغتة وقال:

- في أشياء كثيرة.

- لقد كنت تنظر إليّ طوال أغنيتك الأخيرة.

- حقًّا؟ لم أشعر بذلك. من الطبيعي أن أنظر إليك وحدك فأنت الوحيدة التي أعرفها من بين جميع المدعوين في الحفل، بل الوحيدة التي عرفتها في الدنيا بأسرها!

فاحمرت وجنتا إلهام وتحركت شفتاها المبتسمتان ولم تتكلم. قال رمزي:

- لم أفهم خطابك عندما قرأته.. كيف عرفت أنني سأكون مطرب الحفل؟

ترددت إلهام قبل أن تقول:

- العروس صديقتي. وأنا التي أقنعتها بأن تكون أنت مطرب الحفل.

قال رمزي وقد شعر بشيء من خيبة الأمل:

- إذن فأنت صاحبة الفضل. أشكرك من كل قلبي على هذا الشعور، وأتمنى ألا تكون العروس قد ندمت على اقتناعها برأيك.

- كن مطمئنًّا من هذه الناحية، لقد أعجب بك العروس والعريس وجميع المدعوين. لقد كنت رائعًا.

فهزته الفرحة وقال:

- هل أعجبك غنائي؟

- أعجب به كل من سمعك.

ثم اختفت ابتسامة شفتيها وقالت وفي حديثها رنة حزن:

- لقد كثر المعجبون بك.

- ألا يسعدك أن يعجب بي أكبر عدد من الناس؟

- يسعدني ويشقيني.

- ولماذا يشقيك؟

- عندما تعجب فتاة بإنسان لا تحب أن يشاركها الإعجاب به أحد.

- ولكن الفنان الذي لا يعجب به سوى فتاة واحدة لا بد أن يكون فنانًا فاشلًا. وليس المهم من يعجب بي، بل المهم من أعجب أنا به.

لم تجد إلهام ما تقوله. فساد الصمت بينهما ودون أن تشعر بمرور الوقت وجدت السيارة تقف أمام باب المنزل.

فهبطت من السيارة وهبط بعدها رمزي. ودخلا العمارة. كان المصعد في الدور الأرضي، فدخلا وأغلق رمزي باب المصعد وضغط على الزر فأخذ المصعد يرتفع عن الأرض. وخرجا من المصعد في الدور الخامس. فحياها رمزي واتجه نحو شقته واتجهت هي نحو شقتها. وبينما هو يحاول فتح باب شقته هرولت إلهام نحوه وقالت:

- عندي مفاجأة لك.

قال رمزي بلهفة:

- ما هي المفاجأة؟!

- ستعرفها في حينها.

وأسرعت نحو شقتها وفتحت الباب بمفتاح كان في حقيبتها واختفت داخل الشقة وأغلقت الباب وتركت رمزي حائرًا.

عندما دخل رمزي شقته وجد الخادم نائمًا. فخلع ملابسه ولبس المنامة، واستلقى في الفراش يفكر في أحداث تلك الليلة، وفي تلك المفاجأة التي حدثته عنها إلهام.

ترى ما هي هذه المفاجأة؟ هل هي هدية ترغب في تقديمها لي؟ وما هي هذه الهدية؟ إنها فتاة جميلة.. لم أكن أحلم أنني في يوم من الأيام سأتحدث مع فتاة جميلة مثلها. لم أكن أتصور أن بالمدينة كل هذا العدد الضخم من الفتيات الجميلات اللاتي رأيتهن في الحفل. ولكن إلهام أجملهن جميعًا وأخفهن ظلًّا. السيارة التي ركبتها فاخرة ومريحة. المدينة مملوءة بالسيارات الفاخرة. لم أكن أعيرها اهتمامًا. كنت أخشى أن تدهمني إحدى تلك السيارات.

أخشى أن يكون كل هذا حلمًا! هل من المعقول أن يكون حلمًا؟ لم تكن أحلامي من هذا النوع. كانت أحلامي من نوع آخر. كلا، ليس حلمًا. إنه حقيقة. كيف تمكنت تلك الراقصة من تثبيت العصا فوق ثدييها؟ أول مرة في حياتي أرى راقصة. ترى هل استمتع الناس بالراقصة أكثر من استمتاعهم بغنائي؟ كان حفلًا رائعًا، لا بد أنه كلفهم مئات الجنيهات. يوجد أغنياء كثيرون. لم أكن أعلم عنهم شيئًا. كنت أعجز في بعض الأحيان عن الحصول على لقمة الخبز. يوجد مساكين كثيرون في الدنيا. ترى من الذي سكن في الغرفة التي كنت أعيش فيها فوق السطح؟ ربما يكون ذكر بط آخر!

لم يشعر متى غلبه النوم. ولكن شعر بالخادم يوقظه قائلًا:

- قم يا أستاذ رمزي. بقينا الظهر، وفي البهو شخص ينتظرك منذ ساعة.

فتساءل رمزي وهو نصف نائم:

- من هو؟

- بنت حلوة!

فانتفض رمزي قافزًا من الفراش وقد طار نومه، وأسرع بارتداء ملابسه وخرج إلى بهو المنزل فإذا به يرى إلهامًا جالسة في أحد الأركان. ولما رأته لم تحاول مصافحته بل ظلت جالسة ناظرة إليه مبتسمة وقد شحب وجهها. تعجب رمزي من وجودها في منزله ولكنه فرح لرؤيتها، وبدا عليه الارتباك، فقال لها مبتسمًا:

- أهلًا وسهلًا. خطوة عزيزة.

جلس بالقرب منها، وساد السكون فترة بدت في خلالها إلهام مطرقة للأرض وكأنها تفكر تفكيرًا عميقًا. قطع رمزي فترة السكون قائلًا:

- كنت أفكر طوال الليل في المفاجأة التي وعدتني بها.

قالت إلهام وهي لا تزال مطرقة للأرض وقد احمرت وجنتاها:

- ستعرفها الآن.

قال رمزي بلهفة:

- ما هي يا ترى؟

- جئت أطلب يدك!

بدت الدهشة على وجه رمزي وقال:

- تطلبين يدي؟! لمن؟

- لي. أنا معجبة بك وأريد أن أخطبك لنفسي. فهل تحبني كما أحببتك؟

كان هذا آخر ما يتوقع أن يسمعه منها. قال بدون تفكير وقد أذهلته المفاجأة:

- طبعًا أحبك.

قالت إلهام وهي لا تزال مطرقة للأرض تعبث بأصابعها بحركة عصبية:

- أنا لا أصدق!

- ولماذا لا تصدقين؟!

- أنت لا تعرفني المعرفة الكافية لتحبني.

لم يدر رمزي ماذا يقول. وبعد فترة تفكير قصيرة نظر إليها مبتسمًا وقال:

- قد يحدث الحب من أول نظرة. ولقد أحببتك منذ رأيتك لأول مرة، عندما تقابلنا في المصعد.

فأطرقت إلهام إلى الأرض فترة من الوقت، ثم نظرت إلى رمزي وقالت:

- إن كنت صادقًا في حبك كما تقول، فهل تقبل أن تتزوجني؟!

كان رمزي في أعماق نفسه يتوق للحياة الزوجية، ويتمنى أن يصادف الفتاة التي يرتبط معها بذلك الرباط المقدس. ولكنه لا يدري لماذا صدمته كلمة «الزواج» عندما خرجت من بين شفتي إلهام. أي نوع من الفتيات هذه التي تدخل منزل شاب لم يسبق لها أن التقت به سوى مرة أو مرتين وتطلب منه الزواج؟! إنه لا يعلم عنها شيئًا، وبدأت تساوره الظنون، فلم يدر ماذا يقول، وظهرت عليه الحيرة ولزم الصمت. فقالت إلهام:

- قد يبدو طلبي هذا غريبًا في نظرك. فمنذ بدء الخليقة والرجل هو الذي يختار الأنثى التي تعجبه وتروق له. ولكن هذه الأنثى المسكينة المغلوبة على أمرها لم تمنح الفرصة مطلقًا لاختيار الرجل الذي يعجبها ويحلو في عينيها!

فكر رمزي لحظة قصيرة، ثم قال:

- للأنثى حق رفض طلب الرجل الذي لا تريده.

فقالت إلهام على الفور:

- إذا منحوها حق الرفض فهي محرومة من حق الاختيار. وشتان بين حق الرفض وحق الاختيار. الأول سلبي أما الثاني فإيجابي. وحتى حق الرفض قد تحرم منه الأنثى في كثير من الأحيان.

فأطرق رمزي للأرض ولزم الصمت ولم يدر ماذا يقول. فقالت إلهام:

- من الواضح أنك لم تكن تفكر في الزواج، ومع ذلك تدعي أنك تحبني. فما هو مصير الحب في نظرك إن لم يتوجه الزواج؟

قال رمزي وهو شارد اللب:

- الحب شيء، والزواج شيء آخر.

قالت إلهام في ارتباك:

- هل تريد إقناعي بأن في نيتك أن تحبني حبًّا سرمديًّا لا يكلل بالزواج؟!

- أنا في الواقع لا أحاول إقناعك بأي شيء. فما هي إلا أفكار دارت في رأسي.

وأراد رمزي أن يغير مجرى الحديث فقال:

- أراك تخرجين كل صباح وفي يدك حقيبة كتب، إلى أية مدرسة تذهبين؟

قالت إلهام وهي مطرقة للأرض:

- إلى معهد التمثيل. أنا طالبة في هذا المعهد.

قال رمزي بدهشة:

- معهد التمثيل؟! لم يخطر ذلك على بالي.

قالت إلهام دون أن تلتفت نحوه:

- ولماذا لم يخطر على بالك؟

- لست أدري، كنت أعتقد أنك تلميذة في مدرسة ثانوية.

- انتهيت من دراستي الثانوية والتحقت بمعهد التمثيل، وأنا على وشك التخرج في ذلك المعهد. ومنذ رأيتك وأنا...

- وأنت ماذا؟

في هذه اللحظة دق جرس التليفون، فقام رمزي ليرد عليه. تناول سماعة التليفون وقال:

- ألو.. أفندم.

فقال الصوت المنبعث من الطرف الآخر:

- حضرتك الأستاذ رمزي عبد الحميد؟

- نعم، أنا رمزي عبد الحميد.

- هل توافق على الغناء في حفل «أضواء المدينة» الذي ستقيمه الإذاعة في سينما «ريفولي» بعد غد؟

فرح رمزي بهذا العرض. ولكنه تعجب، كيف يطلب منه الاستعداد في هذه الفترة القصيرة للغناء في حفل كبير كهذا؟ ولماذا لم يطلب منه ذلك قبل الحفل بمدة كافية؟ فقال للمتكلم:

- ألا ترى أن الوقت ضيق ولا تكفي هذه الفترة القصيرة للاستعداد على أحسن وجه للغناء لأول مرة في حياتي في حفل أضواء المدينة؟

- أقول لك بكل صراحة إن أحد المطربين الذي كان مقررًا اشتراكه في الحفل اعتذر اليوم لمرض مفاجئ، ورأت الإذاعة إنقاذًا للموقف أن تحل أنت محله، وهي فرصة لا ينبغي أن تضيعها وسيذاع الحفل في الراديو كما تعلم. وستغني في الحفل أغنية واحدة. فما رأيك؟

فأجاب رمزي على الفور:

- وهو كذلك.

وعندما انتهت المكالمة التليفونية، وعاد رمزي ليخبر إلهامًا بمضمون المكالمة، اكتشف أنها غادرت المنزل دون أن يشعر بخروجها.

أين ذهبت؟ أخشى أن أكون قد جرحت شعورها. أنا لا أحب أن أجرح شعور أي إنسان. ترى ماذا كانت تريد أن تقول؟ إنها لم تكمل الجملة التي قالتها. كنت أحب أن أخبرها أنني سأغني في حفل أضواء المدينة. لم أكن أتصور أن أغني في هذا الحفل. إنها فرصة ذهبية لا ينبغي أن أتركها تفلت من يدي. إلهام جاءت تطلب يدي! شيء عجيب لم يحدث له مثيل! هل من المعقول أن تطلب الفتاة يد الشاب الذي يعجبها؟! ظروفي لا تسمح لي الآن بالزواج. يجب أن أفكر في مستقبلي. سأتصل الآن بالفرقة الموسيقية لإجراء بروفات الأغنية.

في يوم الحفل كان رمزي قد استعد للغناء، ولكنه شعر برهبة لم يشعر بها من قبل. لقد سبق له أن غنى في الإذاعة، ولكن ذلك كان أمام الميكروفون وليس أمام أعداد هائلة من البشر. كما سبق له أن غنى في حفل زفاف، ولكن الحفل لم يكن مذاعًا. ولكن في هذه المرة سيغني أمام الجماهير الكثيرة، وفي نفس الوقت سيذاع في جميع أنحاء البلاد وخارج حدودها.

تقدم المذيع على مسرح (ريفولي) وأعلن أن الأستاذ «رمزي عبد الحميد سيغني»، وانفرجت الستائر عن رمزي واقفاً وأمامه الميكروفون وخلفه أفراد الفرقة الموسيقية. وبدأ يغني.

قوطعت أغنيته مرات كثيرة بأصوات هادرة تطلب منه إعادة غناء بعض أجزائها. وفي أثناء الغناء حانت منه التفاتة فوجد إلهامًا جالسة وبجوارها سيدة تذكر أنه رآها مرتين في مصعد المنزل فتأكد أنها لا بد أن تكون والدتها. كانت إلهام في هذه المرة مطرقة للأرض يبدو عليها الحزن.

وعندما انتهى الغناء دوى التصفيق في جميع أنحاء المكان، وكأنه صوت انفجار بركان. ظل رمزي ينحني للجماهير عدة مرات. وقبل أن تقفل الستائر رأى رمزي بين الجماهير القريبة من المسرح وجهًا تذكر أنه رآه من قبل. إنه وجه الرجل ذي الجرح العميق الذي في جبهته! وتعجب رمزي. لماذا يتعقبه ذلك الرجل في كل مكان يذهب إليه؟!

ولما عاد رمزي إلى منزله في ذلك المساء ظل ساهرًا غير شاعر برغبة في النوم، وصورة الجماهير التي ملأت مقاعد دار السينما ماثلة أمام عينيه. ومن خلال مئات الوجوه التي كانت تنظر إليه وهو على خشبة المسرح لم يطبع في ذاكرته سوى وجه واحد، وجه إلهام. ذلك الوجه الجميل الحزين الغامض.

لماذا ذهبت إلى الحفل؟ هل كانت تعلم أنني سأغني فيه؟ وكيف علمت ذلك؟ لم يطلب مني الغناء إلا في آخر لحظة ولم يكن من المقرر أن أغني. لقد غنيت لأن أحد المطربين المشتركين في الحفل اعتذر عن عدم الغناء. ربما تكون أذناها قد التقطت بعض الكلمات في أثناء حديثي في التليفون فهمت منها أنني سأغني في ذلك الحفل.

نقلت أجهزة الراديو الحفل إلى آلاف البيوت. بدأ نجمي يعلو ويسطع. إن إلهامًا تحبني. وتود أن تتزوجني، ولكن كيف تجرؤ فتاة على الحضور إلى منزلي لتطلب يدي؟ شيء عجيب لم يحدث له مثيل! من المفروض أن يتقدم الشاب ليخطب الفتاة ويطلب منها الزواج. ولكن لم أسمع في حياتي عن فتاة تتقدم إلى شاب طالبة الزواج منه! من هي إلهام هذه؟ قد تكون فتاة ساذجة. وقد تكون فتاة خبيثة. لست أدري. أرى أن التفكير في الزواج الآن سابق لأوانه. أريد أن أبني مستقبلي قبل كل شيء وأعيش كالطائر المغرد الطليق الذي يطير من فنن إلى فنن. لا أحب الحياة داخل قفص ولو من ذهب. لست متأكدًا حتى هذه اللحظة إذا كنت أحب إلهامًا حبًّا يجعلني أرتبط معها برباط مدى الحياة.

إنني أرتاح لرؤيتها وأتوق للجلوس معها. ولكن هل هذا هو الحب؟ إنني أرتاح لرؤية أية أنثى جميلة. وما هو الحب؟ الحب عاطفة قوية سامية تجعل الإنسان لا يرى في الدنيا سوى المخلوق الذي يحبه. ترى هل أشعر بهذه العاطفة نحو إلهام؟ لست أدري. الحب قد ينقض على الإنسان في لحظة خاطفة، وقد ينمو متمهلًا مع الأيام كما ينمو الهلال ليصبح بدرًا. وهل تحبني إلهام حقًّا؟ أم هو مجرد إعجاب بفنان تتوقع له مستقبلًا متألقًا؟

كانت هذه الأفكار تدور في رأس رمزي وهو مستلق على فراشه. وأخيرًا شعر برغبة في النوم، فأطفأ النور ونام.

* * *

مضت أيام ثلاثة. وفي صباح اليوم الرابع حينما كان سائرًا في طريقه إلى معهد الموسيقى اشترى إحدى المجلات وأخذ يتصفحها، فإذا به يفاجأ بشيء لم يكن يخطر له على بال. رأى صورته وهو يغني على مسرح «ريفولي» تملأ نصف صفحة من صفحات هذه المجلة وبجوارها مقال بلا إمضاء يتحدث عنه. يقول كاتب المقال «إن رمزي عبد الحميد سيصبح نجم الموسم، فهو فنان ذو موهبة أصيلة نادرة وصوت ذهبي».

ظل رمزي يقرأ المقال ويعيد قراءته عدة مرات.. فشعر بالسعادة وجعلته النشوة يسرع الخطى. واعتقد أن كل من يمر بهم من الناس سيتعرفون عليه ويشرئبون بأعناقهم لرؤيته ويتجمهرون حوله، فصورته تملأ صفحة المجلة. ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث. كان يسير ولا يبدو أن فردًا واحدًا قد تعرف عليه. فشعر بحزن وخيبة أمل. كيف لا يعرفه الناس بعد أن نشرت المجلة صورته؟ وأخيرًا أقنع نفسه بأن صور الأشخاص وأسماءهم لا تعلق بذاكرة الناس بسهولة. فكم من صور يراها الإنسان في الصحف وإذا رأى أصحابها لا يتعرف عليهم. وكم من أسماء يذيعها الراديو ولا تعلق بذاكرة الناس. مئات الأسماء تتدفق من الراديو في برنامج «ما يطلبه المستمعون» ولا يعلق منها اسم واحد في ذاكرة المستمعين. إذ إن هذه الأسماء لا تهم سوى أصحابها أو بعض أقاربهم، أما باقي الناس فلا يعيرونها أدنى اهتمام. مئات الصور يراها الناس في الصحف، ومئات الأسماء يسمعونها من الراديو ولا يهتم بها أحد. لا بد أن تتكرر الصورة مئات المرات، ويتردد نفس الاسم مئات المرات لتعلق بعض الشيء بذاكرة الجماهير. لقد أدرك رمزي أن الطريق إلى الشهرة طويل، طويل جدًّا، فذاكرة الناس تحفظ الأسماء بصعوبة وتنساها بسهولة!

ووصل إلى معهد الموسيقى. فدخل المعهد. وأجرى تجارب بعض الأغاني الجديدة التي كانت الإذاعة قد طلبت منه تلحينها وغناءها. وانتهى من تلك التجارب وأصبح مستعدًّا للذهاب إلى الإذاعة في الموعد المحدد يوم السبت القادم لتسجيلها. وفي أثناء عودته سمع إحدى أغنياته تنبعث من جهاز راديو صغير الحجم في أحد أكشاك بيع السجائر. فوقف أمام هذا الكشك ينصت لأغنيته، واضطر لشراء علبة سجائر ليبرر سبب وقوفه. أخرج من العلبة سيجارة وأشعلها وأخذ يدخنها وهو منصت للأغنية. كانت هذه أول سيجارة يدخنها في حياته.

ولما انتهت الأغنية أراد أن يسمع اسمه يخرج من بين شفتي بائع السجائر فسأل البائع:

- ترى من الذي كان يغني هذه الأغنية؟

- مطرب جديد لم أنتبه لاسمه.

وسار مطرق الرأس نحو محطة السيارات العامة. وعندما وصلت السيارة انحشر فيها بين أكداس من الأجسام البشرية، ولم يتعرف عليه أحد. ولكن الشيء الذي أثلج صدره أن أحد الباعة الجائلين قفز إلى السيارة و هو يردد إحدى أغانيه، ومر أمام رمزي وداس على قدمه فتألم.

* * *

مرت عشرة أيام لم ير رمزي في خلالها إلهامًا، فلقد تعود أن يراها في كثير من الأحيان من خلال النافذة عند عودتها إلى منزلها بعد الظهر. وفكر في الذهاب إلى شقتها ليسأل عنها، فقد تكون مريضة. ولكنه تردد في الذهاب، إذ بأية صفة يدخل منزلها ليسأل عنها؟ إنه لا يعلم عنها الشيء الكثير. ولا يعلم شيئًا عن عائلتها. قد لا يرحبون بزيارته، بل إن إلهامًا نفسها قد لا ترتاح لزيارته لها في منزلها. وهو غير متأكد من عاطفته نحوها، ولا يفكر في الزواج في الوقت الحاضر، وبينما تدور في رأسه هذه الأفكار دق جرس التليفون، فأسرع بالتقاط السماعة، فإذا في الطرف الآخر من الخط صوت نسائي يقول:

- منزل الأستاذ رمزي عبد الحميد؟

- نعم. أنا رمزي.

- أريد مقابلتك لأمر هام. متى يمكنني أن أراك؟

- وما هو هذا الأمر الهام يا ترى؟

- أمر يتعلق بمستقبلك، ستعرفه عندما نلتقي، متى نتقابل؟

- كما تشائين. مساء اليوم إذا أردت.

- وأين نتقابل؟

- في منزلي، إذا شئت.

فضحكت ضحكة رقيقة وقالت:

- أفضل أن يكون اللقاء في منزلي أنا. ألديك مانع؟

ففكر رمزي قليلًا ثم قال:

- لا مانع لديّ.

فقال الصوت النسائي:

- أنا أسكن في الفيلا رقم 16 بشارع مظهر بالزمالك، وسأنتظرك اليوم، الساعة السابعة. إلى اللقاء.

وانتهت المحادثة التليفونية، وجلس رمزي وقد وضع رأسه بين يديه.

من تكون هذه السيدة التي تحدثت إليّ في التليفون؟ وماذا تريد مني؟ ما هو الشيء الهام الذي يتعلق بمستقبلي؟ هل أذهب إلى منزلها في الموعد الذي حددته أو أتجاهلها؟ ولماذا لا أذهب؟ إنني أشكو من الوحدة، فعلى الرغم من سلم النجاح الذي بدأت أتسلقه إلا أنني أشعر بوحدة قاتلة، فأنا لا أعرف في هذه المدينة الكبيرة سوى خادمي محمد وإلهام التي لا أكاد أعرف عنها شيئًا وبعض العازفين في الفرقة الموسيقية التي تصاحبني في أثناء الغناء الذين تربطني بهم صلة العمل. أما فيما عدا ذلك فدنياي خالية من الأصدقاء والمعارف. إنني أسير بين زحام البشر وكأنني في صحراء جرداء. فقد يعيش إنسان بين ملايين الناس ويشعر بالوحدة في حين أنه لا يشعر بالوحدة وهو في صحراء مع بعض الأصدقاء. وأنا لا أصدقاء لي، فلماذا لا أذهب في الموعد الذي حددته لي هذه السيدة المجهولة؟

* * *

في الساعة السابعة وخمس دقائق من مساء ذلك اليوم كان رمزي واقفًا أمام باب الفيلا رقم 16 بشارع مظهر بالزمالك يضغط على زر الجرس. فتحت له الباب فتاة سمراء ترتدي ثوبًا أبيض وكأنها ممرضة في مستشفى. ابتسمت الفتاة ابتسامة عريضة كشفت عن أسنان ناصعة البياض وكأنها ومضات البرق في ليلة مظلمة، وقالت:

- الأستاذ رمزي؟

- أجل.

- تفضل.

ودخل البهو في الطابق الأرضي وأخذ يدير بصره في أنحاء المكان. ما هذه الفخامة؟ جميع الجدران مكسّوة بالخشب الثمين. والأثاث المتناثر في أنحاء البهو رائع كأنه في قصر أحد الملوك. والصور

الزيتية المعلقة على الجدران والتحف والتماثيل التي في الزوايا والأركان تدل على أن مبدعيها من كبار الفنانين.

شعر رمزي برهبة. وانتبه على صوت الخادمة السمراء تقول له مشيرة إلى أحد الكراسي الوثيرة التي بالبهو:

- تفضل اجلس. سيدتي ستأتي حالًا.

فجلس رمزي على ذلك الكرسي المواجه للسلم الخشبي الأنيق المؤدي إلى الدور العلوي للفيلا. وما هي إلا لحظات حتى أبصر سيدة رائعة الجمال في نحو الخامسة والأربعين ترتدي ثوبًا أرجوانيًّا تهبط السلم وقد انبعث منها أريج عطر زكي. وقف رمزي استعدادًا لمصافحتها، وأقبلت نحوه وقد انفرج ثغرها عن ابتسامة رقيقة وقالت وهي تصافحه:

- أهلًا وسهلًا يا أستاذ رمزي.

- أهلًا بك.

- تفضل.

فجلس رمزي وجلست بالقرب منه. وسادت فترة صمت قصيرة قطعتها تلك السيدة عندما قالت:

- لقد أعجبت بك عندما رأيتك في حفل «أضواء المدينة» بسينما «ريفولي»، وأعجبني صوتك. لم أسمع في حياتي صوتًا أجمل من صوتك ولا ألحانًا أعذب من ألحانك. وسمعت صوتك في الراديو عدة مرات. وأعتقد أن فنانًا مثلك لا بد أن يوضع في المكان اللائق به. أنت في نظري أعظم موسيقي أنجبته بلادنا، وأتوقع لك مستقبلًا رائعًا.

استولى على رمزي خجل شديد فلم يدر ماذا يقول، وبعد فترة قصيرة قال:

- أشكرك من كل قلبي على هذا الشعور النبيل.

ومدت السيدة يدها إلى صندوق صغير مطعم بالصدف على مائدة بجوارها وفتحته فإذا هو مملوء بالسجائر. قدمت الصندوق لرمزي قائلة:

- تفضل سيجارة.

فقال رمزي:

- أشكرك. أنا لا أدخن.

فقالت السيدة وقد ارتفع حاجباها في دهشة:

- لا تدخن؟ ولماذا لا تدخن؟!

فلم يدر رمزي ماذا يقول. وبعد فترة صمت قصيرة قال:

- أخشى أن يؤثر التدخين على صوتي.

فضحكت السيدة ضحكة رقيقة وقالت:

- تعجبني شدة محافظتك على صوتك. أما أنا فليس لي صوت جميل كصوتك أحافظ عليه.

وأخرجت سيجارة وأشعلتها وجذبت منها نفسًا طويلًا وأخذت تنفث الدخان. وفي هذه اللحظة أقبلت الخادمة السمراء ذات الرداء الأبيض تدفع أمامها منضدة صغيرة تسير على أربع عجلات دقيقة، عليها إبريق وفناجين وآنية من الفضة وكعكة كبيرة وشطائر كثيرة.

قطعت السيدة جزءًا كبيرًا من الكعكة ووضعته في طبق من الفضة ووضعت بجواره بعض الشطائر وناولت الطبق لرمزي الذي أخذه منها شاكرًا، ثم صبت له فنجانًا من الشاي وسألته:

- كم قطعة من السكر؟

- ثلاث قطع.

فوضعت السكر بنفسها وأخذت تحرك الملعقة في الفنجان حتى ذاب. ثم وضعت الفنجان على منضدة صغيرة أمام رمزي.

تصور رمزي نفسه في هذه اللحظة وكأنه في قصر من قصور ألف ليلة. قصر من القصور الخيالية. وبعد فترة صمت قالت السيدة:

نتحدث الآن في الموضوع الذي من أجله طلبت منك الحضور.

فنظر إليها رمزي وفي أعماق نفسه لهفة لمعرفة هذا الموضوع. واستمرت السيدة تقول:

- أنا ولله الحمد غنية. لديّ من الأموال ما لا يعد ولا يحصى. وأريد أن أنفق بعض ما لديّ من مال في سبيل تدعيم مستقبلك، فأنت تستحق كل خير ورعاية.

فتلعثم رمزي وغمغم قائلًا:

- أشكرك من كل قلبي على هذا الشعور وأتمنى أن أكون أهلًا لذلك.

واستمرت السيدة تقول:

- لقد فكرت في إنتاج فيلم سينمائي غنائي. كتبت أنا قصته، وسأعهد به لأحد كبار المخرجين لإخراجه. وستكون أنت بطل هذا الفيلم.

مفاجأة مذهلة! هل أنا في حلم؟ وهل سأصحو من هذا الحلم الجميل فأجد أن ما سمعته في هذه اللحظة لم يكن سوى أضغاث أحلام؟ إن هذا أجمل من أن يكون حقيقة. وقفزت في ذهنه لحظات اليأس المظلم التي مرت به في ذلك اليوم الذي كان قد صمم فيه على الانتحار، وحديث ذلك الرجل الغريب الأطوار الذي وجده في حجرته في ذلك اليوم وكأنه هبط من السماء. وحال بينه وبين الانتحار واشترى رأسه بألفين من الجنيهات! ورنت في أذنيه في تلك اللحظة كلمات ذلك الرجل وهو يقول: «قد تكون لديك موهبة لم تتح لها الفرصة لتظهر وتكتشف. ما رأيك في أنك موسيقي موهوب؟ أرأيت كيف كنت سببًا في إسعاد إنسان لم تره عيناك؟ منذ ذلك الحين وأنا أحرص على سماع أنغامك التي تعزفها بالناي قبل أن أنام. أنغام حزينة ولكنها جميلة. قد لا أكون مبالغًا إذا أخبرتك أنها أجمل أنغام سمعتها في حياتي».

وانتزعه من ذكرياته وأفكاره صوت السيدة وهي تقول:

- هذا الفيلم سيدعم شهرتك ويظهر موهبتك، فما رأيك؟

- سأكون عاجزًا عن رد مثل هذا الجميل.

فضحكت السيدة وقالت:

- أنا لا أنتظر منك رد الجميل، فأنا لا أعتبر هذا جميلًا أسديه إليك، بل أنت المتفضل. لقد وهبك الله أقصى ما يمكن أن يهبه لإنسان، جعلك فنانًا ذا موهبة، والموهبة لا تقدر بكل ما في الدنيا من أموال. وأنا أشعر بسعادة لا حدود لها عندما أكون سببًا في رفع إنسان ذي موهبة أصيلة إلى أعلى درجات المجد. نفس الشعور الذي تشعر به الأم عندما ترى ابنها وقد تبوأ أعلى درجات المجد والشهرة ولا تنتظر منه شكرًا أو جزاء. وأنا لم أنجب أطفالًا.. كان زوجي مليونيرًا.. توفي وترك لي ثروة هائلة لا أعرف كيف أنفقها.

لم يستطع رمزي السيطرة على مشاعره فانسابت دموعه على خديه. فأخرج منديلًا وصار يجففها، وتعمدت السيدة صب فنجان آخر من الشاي حتى لا تُشعر رمزي بأنها رأت دموعه.. ثم قالت:

- سأعطيك القصة لتقرأها، وإذا أعجبتك فسوف يبدأ العمل في الفيلم على الفور. وسيكون في الفيلم خمس أغان.

قالت ذلك وهي غير ناظرة إليه حتى لا تحرجه عندما تراه يبكي. ثم قامت ودخلت إحدى الحجرات وعادت ومعها ظرف كبير سلمته لرمزي قائلة:

- ها هي القصة. اقرأها واتصل بي لتخبرني عن رأيك فيها.. وستجد اسمي ورقم تليفوني بداخل هذا الظرف.. وكن متأكدًا من أنني أحب أن أراك.. بيتي مفتوح لك على مصراعيه في أي وقت تشاء.

قال رمزي بصوت متهدج:

- لست أدرى كيف أشكرك.

فضحكت السيدة وقالت:

- أنا التي أشكرك. أشكرك من صميم قلبي.

فقام رمزي وصافح هذه السيدة. ووجد نفسه ينحني ويقبل يدها، وغادر المنزل وهو في خجل من دموعه التي ما زالت تنساب من عينيه، وعندما نظر إليها وهو يغادر باب الحديقة، وجدها تبكي!

* * *

كان أول شيء فعله رمزي بعد أن ابتعد عن منزل هذه السيدة أن فتح الظرف الذي سلمته له باحثًا عن اسمها. إنه لا يعرف اسمها حتى الآن. وفي لهفة قرأ الاسم فوجده «صفاء شاكر».

* * *

ألقت صفاء جسدها المتعب على أحد كراسي البهو بعد أن غادر رمزي منزلها. وبدا وجهها شاحبًا. نادت خادمتها بصوت ضعيف قائلة:

- يا زعفرانة.. زعفرانة.

أقبلت الخادمة مسرعة، فابتدرتها السيدة قائلة:

- اطلبي الدكتور أيمن يا زعفرانة. لقد عاودني الألم.

فهرولت زعفرانة نحو التليفون وطلبت الدكتور أيمن وهو الطبيب المشرف على علاج صفاء. ثم جلست على الأرض بجوار سيدتها وأمسكت بيدها ونظرت إليها في صمت. ثم قالت لسيدتها:

- هل الألم شديد في هذه المرة أيضًا يا سيدتي؟

فقالت صفاء وعضلات وجهها تتقلص من الألم:

- بدأت أشعر بالألم عندما كنت أتحدث مع رمزي. ولكنني كتمت ألمي حتى لا يشعر بعذابي. لا أحب أن أُشْعِرَ أحدًا بعذابي.

وبعد نحو عشر دقائق دق جرس الباب. أسرعت زعفرانة وفتحته، فرأت الدكتور أيمن وفي يده حقيبته، وهو رجل وقور في نحو الستين من عمره، يضع أمام عينيه نظارة ذات عدسات سميكة لا يوجد حولها إطار.

أقبل الطبيب نحو صفاء التي لم تتحرك من مكانها وجلس بجوارها وسألها:

- متى شعرت بالألم في هذه المرة؟

قالت صفاء بصوت خافت:

- منذ نحو نصف ساعة.. ألم شديد فوق طاقة البشر.

ثم خبأت عينيها بيدها وأجهشت بالبكاء. فحمل الطبيب حقيبته واتجه مسرعًا نحو قطعة أثاث بجوار الجدار. وضع الحقيبة فوقها وفتحها وأخرج منها حقنة ملأها بسائل امتصته الحقنة من زجاجة دقيقة الحجم، وأسرع نحو صفاء وتناول يدها وغرس فيها إبرة الحقنة ودفع السائل في دمها. أمسك يدها وأخذ يعد نبض القلب. ثم أسند يدها برفق فوق الكرسي الذي تجلس عليه. وسادت فترة صمت. ثم التفت نحو صفاء وقال:

- أتعشم أن يكون الألم قد تلاشى.

- بدأت تخف حدته، ولكنني ما زلت أتألم.

- سيزول تمامًا بعد لحظات.

فالتفتت صفاء إليه والدموع تملأ عينيها وقالت:

- سيزول الآن ليعود مرة أخرى. أنا تعبت. تعبت من الحياة!

وانهمرت الدموع من عينيها، وسادت فترة صمت. ثم التفتت للطبيب قائلة:

- يا دكتور أيمن، أنا شجاعة لا أخشى الموت، ولكنني لا أطيق العذاب. أريد أن أعرف بكل صراحة، متى سأرتاح من هذا العذاب؟ كم عامًا أو كم شهرًا، أو كم يومًا سيمتد بي العمر على سطح هذه الدنيا الفانية؟!

أطرق الطبيب في حزن ولزم الصمت. فعادت صفاء تقول:

- لم تجب عن سؤالي يا دكتور، تأكد أنني لن أحزن لو أخبرتني أنني سأغادر الدنيا غدًا، أو بعد ساعات. ولكنني أحب أن أعرف. لا أحب أن يغتالني الموت على غرة دون أن أستعد للقائه. هناك أشياء أحب أن أنتهي منها قبل أن أموت. هذا هو كل ما يهمني.

فنظر إليها الطبيب وقال:

- أنت تسألينني عن شيء لا يعرفه إلا الله!

- ولكنني أسألك عن رأيك الخاص كطبيب خبير بمثل هذه الأمراض. عندما زرتني أول مرة أخبرتني أن الجراحة لا لزوم لها، وفهمت من ذلك أن المرض قد سرى في جسدي وانتشر وأصبحت السيطرة عليه مستحيلة.

قال الطبيب بعد فترة صمت:

- قد تحدث معجزة.

- ولماذا تحدث معجزة من أجلي؟ أنا لا أستحق أن تحدث من أجلي معجزة.

وأراد الطبيب أن يغير مجرى الحديث فقال:

- يخيل إليّ أن الألم قد زال الآن.

قالت صفاء وقد أدركت أنه لا يرغب في الاستمرار في مثل هذا الحديث:

- نعم. لا أشعر في هذه اللحظة بأي ألم. شكرًا لك يا دكتور.

وقامت ومدت إليه يدها مصافحةً، فصافحها، ثم اتجه نحو الباب.

عكف رمزي على قراءة القصة التي أعطتها له صفاء. إنها قصة امرأتين في حياة موسيقي ذي موهبة أصيلة نادرة. الأولى تزوجها فكانت سببًا في تحويل حياته إلى جحيم لا يطاق. قتلت موهبته وألقت به في هاوية اليأس والتشرد والضياع، وانفصلت عنه عندما أفل نجمه وخبا ضوؤه.. وتزوج الثانية فانتشلته من ظلام اليأس والشقاء وأعادت إليه ثقته بنفسه ودفعته من جديد إلى قمة المجد(*).

أعجبت رمزي القصة، فأدار قرص التليفون واتصل بصفاء وأخبرها بذلك فطلبت منه الحضور إلى منزلها.

فتحت له الباب الخادمة السمراء زعفرانة وقادته إلى غرفة جلوس لم يكن قد رآها في الزيارة السابقة. وبعد لحظات أقبلت صفاء مبتسمة، وجلست بالقرب منه وقالت:

- هل أعجبتك القصة حقًّا؟!

- إنها قصة رائعة.

فأشعلت صفاء سيجارة وسحبت من خلالها نفسًا طويلًا ثم نفثت الدخان وقالت:

- إنها قصة حياتي!

فبدت الدهشة على وجه رمزي وقال:

- هل كان زوجك فنانًا؟

فابتسمت صفاء وقالت:

- كلا. لم يكن فنانًا. كان من رجال الأعمال، ولكنني جعلته في القصة موسيقيًّا لتصبح أنت بطل الفيلم. وعلى العموم قد يكون من المستحسن تغيير بعض الأشياء عندما تحول الحياة إلى قصة. فهي ليست سردًا تاريخيًّا، بل فكرة تعبر عنها قصة.

فنظر إليها رمزي وعلى فمه ابتسامة وقال:

- وما هي القصة الحقيقية يا ترى؟

قالت صفاء:

- أنا لا أذكر أبي، فلقد توفي وأنا دون الثانية من عمري، وتوفيت والدتي وأنا في نحو الخامسة. كان والدي موظفًا فقيرًا لم يترك لي ما أستعين به على مواجهة معركة الحياة. عطف عليَّ أحد أصدقاء أبي فأخذني أعيش في منزله. كانت له زوجة شريرة حولتني إلى خادمة أمسح الأرض وأنظف الأثاث وأحضر لها ما يلزمهم من الأسواق. ولكن زوجها كان رجلًا فاضلًا لم يشأ أن يحرمني من التعليم على الرغم من معارضة زوجته في ذلك. وكان لهذا الرجل ابن وحيد يدرس الهندسة. أحببته.. أحببته من كل قلبي، فلقد كان عطوفًا. وتزوج هذا الابن بعد أن أصبح مهندسًا، وظل يصعد سلم المجد والثروة بخطى سريعة. ولكن زوجته قوضت أركان حياته حتى أشرف على حافة الجنون. فأهمل عمله وتشرد وتركته وهو حطام. وتوفي والده بأزمة قلبية حزنًا على ما آل إليه مصير ولده. ولحقت والدته بأبيه بعد أقل من عام. في هذه الفترة العصيبة أحبني هذا الرجل، وتزوجني. هيأت له كل أسباب السعادة وأخذت بيده أعينه على تسلق سلم النجاح حتى بلغ قمة المجد والثروة في سرعة الصاروخ.

ثم أطرقت للأرض برهة وسحبت نفسًا من سيجارتها وقالت:

- إنني أمتلك موهبة من نوع غريب. في مقدوري أن أدفع أي إنسان إلى قمة المجد.

ثم توقفت عن الحديث ولمعت الدموع في عينيها وقالت:

- ولكن، بنفس السرعة التي وصل إليها زوجي إلى قمة الثروة، فقدته. فقدته في لحظة.. في لحظة رهيبة. في حادث طائرة!

كان رمزي مطرقًا للأرض وهو ينصت لقصة صفاء. ثم التفت إليها وقال:

- ولكن القصة التي قرأتها نهايتها سعيدة.

فابتسمت صفاء، وقالت:

- لا بد للخيال أن يلعب دورًا.

قال رمزي:

- الحقيقة والخيال كلاهما رائع.

وسادت فترة صمت قطعتها صفاء عندما قالت:

- ترى من هو المخرج الذي ترشحه لإخراج هذا الفيلم؟

فابتسم رمزي وقال:

- أعتقد أنك أقدر مني على اختيار المخرج.

قالت صفاء بعد فترة تفكير قصيرة:

- يخيل إليَّ أن عاطف صلاح هو أصلح مخرج لهذا الفيلم. إنه من أقدر المخرجين على تدريب الوجوه الجديدة. وأنا أرى أن يكون جميع أبطال الفيلم رجالًا ونساء من الوجوه الجديدة. إنني أجد لذة في تهيئة فرصة الشهرة والمجد لأي إنسان.

فنظر إليها رمزي وقال:

- أنت سيدة عظيمة ذات قلب كبير.

ضغطت صفاء على أحد الأزرار بجوارها، فدق جرس أقبلت على أثره الخادمة زعفرانة مسرعة. طلبت منها صفاء أن تحضر لها التليفون ودفتر التليفون.

قالت وهي ترفع السماعة وتطلب رقما:

- سأتصل بعاطف صلاح.

وحملت الأسلاك صوت فتاة عند الطرف الآخر من الخط تقول:

- ألو.

- الأستاذ عاطف موجود؟

- لا.

- هل تعرفين أين ذهب؟

- كلا. لا أعرف.

- أريد الاتصال به لأمر هام، فمتى أستطيع أن أجده بالمنزل؟

- قبل العاشرة صباحًا.

- أشكرك.

وضعت السماعة في مكانها وقالت لرمزي:

- سأتصل به غدًا قبل العاشرة صباحًا، وسأتصل بك.

* * *

في الساعة التاسعة وخمس دقائق من صباح اليوم التالي اتصلت صفاء تليفونيًّا بمنزل المخرج فوجدته في منزله. أخبرته بالموضوع فقال لها إنه سيكون عندها بعد نحو ربع ساعة كما اتصلت برمزي وطلبت منه الحضور.

بعد نحو ربع ساعة كان المخرج يضغط على زر جرس الفيلا. فتحت له الخادمة السمراء وقادته إلى حجرة الجلوس. رحبت به صفاء، وجلس المخرج منتظرًا منها أن تبدأ الحديث. وبعد فترة قصيرة قالت صفاء:

- أعتقد أنك استمعت إلى صوت رمزي عبد الحميد وهو يغني.

فقال المخرج مبتسمًا وهو مطرق للأرض:

- لم تتح لي فرصة الاستماع إلى غنائه، ولكنني قرأت عنه في إحدى الصحف.

قالت صفاء:

- إن صوته أجمل صوت سمعته في حياتي. وعلاوة على ذلك فهو فنان أصيل، يلحن أغانيه كما قام بتلحين أغان لبعض المطربين.

- يؤسفني أنني لم أستمع إليها.

- جميع ألحانه رائعة. وسيغني في الفيلم خمس أغان ويضع موسيقى الفيلم وألحانه.

قال المخرج:

- أعتقد أن رمزي لم يسبق له التمثيل.

- كلا. سيكون هذا أول أفلامه.

فأطرق المخرج إلى الأرض وقد بدا عليه الارتباك، ثم قال وفي حديثه رنة سخرية:

- وفي أول فيلم سيكون بطلًا في التمثيل والموسيقى والغناء؟!

قالت صفاء:

- لن تندم على ذلك. أنا أعرف كيف أختار.

- لقد أعجبك صوته، ولكن هل أنت واثقة من قدرته على التمثيل؟ الموسيقى والغناء شيء والتمثيل شيء آخر.

- أنا واثقة منك أنت. واثقة في قدرتك على تدريبه على التمثيل.

فأطرق المخرج وبدا وكأنه يفكر تفكيرًا عميقًا، ثم قال:

- سأبذل كل جهدي.

ثم أردف قائلًا: ليس كل موسيقي أو مطرب صالحًا للتمثيل، ومن الناس من لا يصلح للتمثيل إطلاقًا مهما تلقى من تدريب وتعليم. لا بد من وجود بذور الموهبة. لا بد من البذرة لكي تنمو الشجرة. لا شيء يأتي من العدم. الله وحده هو القادر على خلق أشياء من العدم.

فأطرقت صفاء إلى الأرض وأخذت تفرك يديها في حركة عصبية ثم قالت:

- لقد كتبت القصة من أجله، لكي يصبح نجمًا ساطعًا. وإذا لم يصلح للبطولة فلن تكون لديّ أية رغبة في إنتاج هذا الفيلم.

- على أية حال سوف أرى. قد يكون قادرًا على التمثيل. وسأكون مسئولًا عن نجاح الفيلم أو فشله، وإذا وجدت أن مستواه في التمثيل لا يرقى إلى المستوى الذي ينبغي أن يتوفر في البطل فلن أجازف بسمعتي. في هذه الحالة سأجد نفسي مضطرًّا للاعتذار عن عدم إخراج الفيلم.

وفي هذه اللحظة دق جرس الباب. فأسرعت زعفرانة وفتحته فوجدت أمامها رمزي. قادته إلى غرفة الجلوس.

عندما دخل الغرفة قامت صفاء وصافحته، كما وقف المخرج وصافحه وقدمت كلًّا منهما للآخر. وجلس الجميع. وساد الصمت وظلت صفاء مطرقة للأرض واضعة ساقًا فوق ساق وأخذت تهز ساقها في حركة عصبية. وفي هذه الأثناء دخلت زعفرانة تدفع أمامها عربة الشاي. وعندما انتهوا من شرب الشاي وتناول الفطائر والحلوى سأل المخرج:

- هل يمكن أن أطلع على القصة؟

كانت القصة موضوعة داخل ظرف على منضدة بجوار صفاء. ناولت الظرف للمخرج قائلة:

- ها هي القصة وأتعشم أن تعجبك.

قال المخرج:

- هل يمكن أن أسمع منك ملخصها؟

سردت صفاء ملخص القصة للمخرج فقال:

- الموضوع جميل. من مؤلفها؟

قالت صفاء:

- أنا التي كتبتها.

فأخرج المخرج القصة من الظرف وأخذ يتصفحها، ثم قال:

- ولكن القصة لا تزال بدون عنوان. فماذا تقترحين عنوانًا لها؟

فكرت صفاء قليلًا ثم قالت:

- أرى أن يكون عنوانها «البعث».

فأطرق المخرج لحظة، ثم قال:

- عنوان جميل يعبر عن موضوع القصة. فالزوجة الثانية بعثت الفنان للحياة من جديد بعد أن تركته الزوجة الأولى، وكأنه أنقاض منزل قوضه زلزال عنيف. سأقرؤها الليلة وإذا احتاجت لبعض التعديلات فسوف أتشاور معك فيها.

ثم قال موجهًا حديثه لرمزي:

- أنا ذاهب الآن إلى ستديو مصر للإشراف على بعض عمليات المونتاج والدوبلاج في الفيلم الذي انتهيت من تصويره، فهل من الممكن أن تأتي معي لإجراء بعض الاختبارات في التمثيل؟

قال رمزي:

- بكل سرور.

* * *

لو أن عرافة تنبأت لي منذ سنوات أنني في يوم من الأيام سأركب بجوار مخرج سينمائي من أعظم المخرجين في بلادنا والسيارة تنطلق بنا نحو ستوديو مصر لاتهمتها بالغباء، ولاعتبرت تنبؤها ضربًا من الهذيان. ولكن هأنذا ذاهب إلى الاستديو بصحبة المخرج عاطف صلاح لإجراء اختبارات في التمثيل. هل من المعقول أن أصبح كوكبًا سينمائيًّا؟ هل سأجتاز الاختبار بنجاح؟ صفاء شخصية غريبة. إنها تدفع بي نحو المجد. ولكن لماذا تفعل ذلك؟ شخصيتها يكتنفها الغموض. لقد هيأت لي فرصة لم أكن أحلم بها. هل هذه هي الأهرام؟ إن أكبرهم هرم خوفو. لماذا لم أفكر في زيارة منطقة الأهرام.. هل يصدق أحد أنني أراها الآن لأول مرة في حياتي بينما يأتي السياح لرؤيتها من أقصى البلاد؟! أخشى أن تسقط بنا السيارة في هذه الترعة! إنها أكثر اتساعًا من ترعة قريتي. لم تكن بهذا الاتساع. كنت أجلس على شاطئ الترعة وأذاكر. كنت أحب المذاكرة والقراءة. جلست على شاطئ الترعة أبكي عندما ماتت أمي. كانت ستدعو لي بالتوفيق والنجاح في اختبار التمثيل هذا. كانت تدعو لي كثيرًا في صباح كل يوم من أيام الامتحان. كنت أتمنى أن تكون على قيد الحياة، هي وأبي وأختي... هل تفرح الأرواح وتحزن كما يفعل الأحياء؟ ربما. من يدري؟!

وانتزع رمزي من أفكاره وذكرياته صوت المخرج عندما قال:

- هل تعرف السيدة صفاء منذ زمن طويل؟

- كلا. لم أرها إلا منذ أيام قلائل.

قال المخرج وكأنه يحدث نفسه:

- شيء غريب.

- وما وجه الغرابة في ذلك؟

- إنها مهتمة بك اهتمامًا كبيرًا. قالت لي إنها تنتج هذا الفيلم من أجلك. حسبْت أنها تمت إليك بصلة قرابة، أو بينكما صداقة وطيدة. هل أنت الذي اتصلت بها؟

- كلا. هي التي اتصلت بي ولم تكن تربطني بها أية صلة أو معرفة.

ثم لزم المخرج الصمت وحرك عجلة القيادة فانحرفت السيارة إلى اليسار واجتازت باب الاستديو. توقفت السيارة وهبطا منها وسار رمزي بجوار المخرج وقد لزما الصمت.

هل هذا هو الاستديو الذي تصنع فيه الأفلام؟ ما هذا؟ بيوت من الطين؟ هل من المعقول أن يكون في هذا المكان بيوت مبنية بالطين؟ إنها حارة تذكرني بالحارة التي نشأت فيها في قريتي. هذا المنزل يشبه منزلنا تمامًا.

وظل سائرًا بجوار المخرج صامتًا لا يعلم إلى أين هو ذاهب. وحانت منه التفاتة نحو الحارة، فوجد الجهة الخلفية لمنازلها خاوية جرداء لا يبدو منها سوى ألواح من الخشب ومساحات من الخيش.

يبدو أن أحد مناظر الفيلم تدور أحداثه في قرية. إذا صور من الجهة الأمامية بدا مثل قريتنا. ولكنه من الخلف لا يدل على أي شيء أهكذا تصور المشاهد في السينما؟ شيء عجيب..

واستمر سائرًا مع المخرج ملتزمًا الصمت. اجتازا معًا أحد الأبواب. سارا في ممر طويل. وصلا إلى غرفة صغيرة. رجل جالس أمام منضدة عليها جهاز به شاشة صغيرة الحجم تبدو فيها مشاهد وتنبعث منها أصوات وموسيقى. ظل رمزي واقفًا عند باب الغرفة ودخل المخرج وتبادل مع الرجل الجالس أمام الشاشة حديثًا قصيرًا، ثم عاد إلى رمزي وقال:

- هيا بنا نلتقط لك بعض الصور.

اجتازا ممرًا آخر واتجها معًا نحو اليمين ثم خرجا من باب المبنى ودخلا مبنى آخر. سارا معًا في دهليز واتجها إلى اليسار، ثم وصلا إلى غرفة متوسطة الحجم بها بعض الكراسي والستائر. قال المخرج لرمزي:

- اجلس هنا وسأعود إليك.

عاد المخرج بعد لحظات وبصحبته رجل قصير مستدير الوجه يحمل في إحدى يديه آلة تصوير، وتحت إبط المخرج دفتر كبير الحجم.

التقط الرجل لرمزي عدة صور من زوايا مختلفة. قال المخرج للمصور:

- أرجو أن يتم التحميض والطبع في الحال ليتسنى لي رؤيتها الآن.

غادر المصور الغرفة وبقي المخرج مع رمزي، فتح المخرج الدفتر الذي كان تحت إبطه وأخذ يتصفحه، ثم طلب من رمزي قراءة بعض الحوار الذي كان في إحدى صفحاته.

أخذ رمزي يقرأ الحوار. قال المخرج:

- لا تقرأه بهذه الطريقة. أريد منك أن تقرأه متقمصًا شخصية صاحب هذا الحديث. إنه رجل اكتشف خيانة زوجته بعد زواج دام عشرين عامًا. ستقرأ أنت الحوار الخاص بالرجل وسأتلو أنا الحوار الخاص بالزوجة.

وقف المخرج بجوار رمزي ناظرًا إلى الصفحة المفتوحة أمامه وبدأ رمزي الحوار متقمصًا شخصية الزوج والمخرج يرد عليه متقمصًا شخصية الزوجة. وبعد فترة لم يدرك رمزي طولها قال المخرج:

- يكفي هذا.

طوى المخرج الدفتر ووضعه تحت إبطه وسارا معًا في ممرات عديدة ووصلا إلى غرفة. دخل المخرج الغرفة وبقي رمزي عند بابها، وبعد لحظات خرج المخرج. وفي يده مظروف متوسط الحجم لا يدري رمزي ما بداخله. وسارا معًا في اتجاهات كثيرة، ثم خرجا من أحد الأبواب فوجد رمزي نفسه أمام الحارة التي رآها عند دخوله الاستوديو. استقلا السيارة التي انطلقت بهما نحو المدينة. نظر رمزي إلى اليسار فرأى أهرام الجيزة وأبا الهول.

لماذا يلزم الصمت؟ لماذا لا يخبرني عن نتيجة الاختبار؟ ما الذي بداخل هذا الظرف؟ هل هي الصور التي التقطها لي المصور؟ لماذا لا يطلعني عليها؟ لماذا لا ينطق؟! إنني في شدة الشوق لمعرفة نتيجة التصوير ونتيجة الاختبار. ألا يدرك شدة لهفة إنسان مثلي ينتظر معرفة مصيره؟ هل أسأله؟ كلا لن أسأله. ولكن لماذا لا أسأله؟

- ترى هل اجتزت الاختبار بنجاح؟

- لست أدري!

ليس يدري؟ ومن الذي يدري إذن. لا بد أنني فشلت في الاختبار. لا داعي لأن أصبح كوكبًا سينمائيًّا. يكفي أن ألحن وأغني وأؤلف موسيقى يعجب بها الناس.

وقطع المخرج فترة الصمت التي طالت عندما قال:

- هل تنوي الذهاب إلى منزلك الآن يا أستاذ رمزي؟

- أجل.

- سأوصلك إلى المنزل. أين تسكن؟

ذكر له رمزي عنوانه وانطلقت السيارة نحو هذا العنوان، ووقفت أمام باب عمارة رمزي. فشكر المخرج وغادر السيارة ودخل من باب العمارة. كان المصعد عند الطابق الأرضي فدخله رمزي وضغط على الزر وتحرك المصعد إلى أعلى.

عندما دخل شقته فوجئ بوجود الخادم محمد يرقص بطريقته الخاصة على أنغام موسيقى تنبعث من الراديو، وعندما رأى رمزي ارتبك وأسرع بفك الحزام الذي كان قد لفه حول وسطه ووقف ناظرًا إلى رمزي مبتسمًا ببلاهة. طلب منه رمزي أن يعد له فنجانًا من القهوة فأسرع بتلبية طلب سيده واختفى داخل المطبخ.

(*) هذه القصة "البعث"، إحدى قصص د. يوسف عز الدين عيسى، كتبها وأذيعت في فترة الخمسينيات في البرنامج العام.

في مساء اليوم نفسه أوقف المخرج سيارته أمام منزل صفاء. قال لها:

- لقد قرأت القصة وأعجبتني، واختبرت قدرة رمزي على التمثيل والتقطنا له عدة صور فوتوغرافية.

ثم أطرق للأرض. قالت صفاء بلهفة:

- وما رأيك فيه؟ هل اجتاز الاختبار بنجاح؟

ظل المخرج مطرقًا للأرض فترة من الزمن وعينا صفاء مصوبتان نحوه تكادان تخترقان أعماقه. رفع المخرج رأسه ونظر إلى صفاء التي أطل القلق من عينيها وقال:

- شكله وسيم وجذاب في جميع الأوضاع ولكن...

قالت صفاء وقد شحب لونها:

- ولكن ماذا؟

- ولكنه ضعيف في التمثيل.

- من الممكن تدريبه.

- أخشى أن يحتاج تدريبه إلى وقت طويل. من الأفضل اختيار بطل غيره، وفي هذه الحالة سوف يقوم رمزي بوضع الموسيقى التصويرية للفيلم وتلحين الأغاني.

أشاحت صفاء بوجهها وأخذت تعبث بحافة الكرسي في حركة عصبية، ثم قالت:

- أنا أختلف معك في هذا الرأي. ما من أحد لا يستطيع التمثيل لو أحسن تدريبه. كلنا نمثل. من منا لم يمثل ويحسن التمثيل في لحظة من لحظات حياته؟

- ولكن نجاح الفيلم يتوقف إلى حد كبير على قدرة البطل على التمثيل.

- أنا واثقة كل الثقة من قدرتك على أن تجعل منه كوكبًا ناجحًا. أنا أيضًا يهمني نجاح الفيلم، وسيكون رمزي أحد عوامل هذا النجاح. عن إذنك لحظة.

وقامت وصعدت السلم، ثم هبطت وفي يدها ظرف. جلست ثم فتحت الظرف وأخرجت نسختين من العقد، سلمتهما للمخرج قائلة:

- ها هو ذا العقد، وإذا وافقت على ما فيه أرجو أن تضع إمضاءك على النسختين.

قرأ المخرج العقد وعلم أن أجره على إخراج الفيلم سيكون ستة آلاف جنيه يتسلم نصف المبلغ عند إمضاء العقد والنصف الباقي عند الانتهاء من التصوير وإعداد الفيلم للعرض، كما نص على أن يكون رمزي هو البطل، وبطلتا الفيلم من الوجوه الجديدة، فأخرج قلمه في صمت ووضع إمضاءه وسلم صفاء إحدى النسختين واحتفظ بالنسخة الأخرى، وقبل أن ينتهي من وضع العقد في محفظته امتدت له يد صفاء بالشيك، فأخذه ووضعه مع العقد.

وقبل أن يهم المخرج بالقيام سألته صفاء:

- ألديك فكرة عن الوجوه النسائية التي ستعمل بالفيلم؟

قال المخرج بعد لحظة تفكير:

- لديّ فكرة عن الفتاة التي ستحطم الفنان ولكني سأواصل البحث عن الفتاة الأخرى التي سترفعه إلى المجد. مثل هذه الفتاة لا بد أن تكون ذات صفات خاصة.

* * *

كتب المخرج سيناريو الفيلم بنفسه واتفق مع الشاعر الكبير أحمد سامي على اختيار مواضع الأغاني وكتابة كلماتها، ولما انتهى الشاعر من كتابة الأغاني سلمها المخرج لرمزي لتلحينها.

عكف رمزي على تلحين الأغاني، فكان يقضي النهار بطوله وشطرًا من الليل مُكِبًّا على التلحين وأهمل الطعام فشحب لونه وغارت عيناه.

وفي صباح أحد الأيام بينما كان مشغولًا بتلحين إحدى أغاني الفيلم دق الجرس. فأسرع وفتح الباب، فوجد إلهامًا. لم يكن قد رآها منذ حفل أضواء المدينة، وتعجب من قدومها إليه في ذلك الصباح المبكر. كانت في يدها صحيفة أعطتها لرمزي قائلة وفي صوتها لهفة ورنة فرح:

- أرأيت هذا؟

نظر رمزي إلى الصحيفة فأبصر شيئًا غريبًا. رأى صورته تملأ نصف مساحة إحدى صفحات هذه الصحيفة اليومية الكبرى ومعها إعلان عن فيلم «البعث» إعلان ضخم عن ذلك الفيلم الذي يستعد لبطولته مكتوب هكذا: «قريبًا على شاشة السينما التحفة الرائعة «البعث» بطولة رمزي عبد الحميد وإخراج عاطف صلاح».

ولم يذكر الإعلان أية أسماء أخرى. شعر رمزي بالفرحة والنشوة تسريان في جسده، ورفع رأسه عن الصحيفة ليشكر إلهامًا على هذه البشرى التي حملتها إليه في ذلك الصباح الجميل، لكنه لم يجدها. كانت قد اختفت ولا يدري هل دخلت شقتها أو هبطت سلم العمارة.

أسرع رمزي إلى التليفون واتصل بالمخرج ليشكره على هذا الإعلان، ولكنه وجده خالي الذهن ولا علم له به. لم يكن قد اطلع على صحف الصباح وأكد لرمزي أنه لا علاقة له بهذا الإعلان.

وبعد نحو ساعة دق جرس التليفون في منزل رمزي، فالتقط السماعة وسمع صوتًا رقيقًا يقول:

- صباح الخير.

- صباح النور. من حضرتك؟

- أنا صفاء، ألا تعرف صوتي؟

قال رمزي بلهفة:

- أهلًا وسهلًا، صباح الخير.

فضحكت صفاء ضحكة رقيقة وقالت:

- هل قرأت صحف الصباح؟

- قرأت صحيفة واحدة، وشاهدت الإعلان.

- ستجد الإعلان نفسه في جميع صحف الصباح والمساء، وفي جميع المجلات بلا استثناء.

صاح رمزي في فرح:

- غير معقول، في جميع الصحف والمجلات؟!

فضحكت صفاء وقالت:

- ما رأيك في الإعلان؟ هل أعجبك؟

- إعلان رائع!

- أنا التي أرسلته للصحف والمجلات، وسيتكرر ظهوره في جميع الصحف لألفت إليك الأنظار.

قال رمزي وقد تهدج صوته من فرط التأثر:

- أشكرك من كل قلبي. أشكرك جزيل الشكر.

ضحكت صفاء وقالت:

- لا شكر على واجب.

- ولكن لماذا لم تذكري اسمك في الإعلان وأنت مؤلفة القصة؟

ضحكت صفاء وقالت:

- لقد أنتجت الفيلم من أجلك ولا يهمني مطلقًا أن أكون مؤلفة. وما هي أخبار الألحان؟

- أتممت تلحين ثلاث أغان.

- أدعو لك بالتوفيق، وأحب أن تسمعني ألحانك في منزلي عندما تنتهي منها. لا بد أنها ستكون رائعة. أنا مشتاقة لسماعها.

فاحتار رمزي ولم يدر ماذا يقول، وبعد فترة قصيرة قال:

- ستكون رائعة بفضل تشجيعك لي.

ضحكت صفاء ضحكتها الرقيقة وقالت:

- أنت صاحب الفضل. إلى اللقاء.

لماذا توليني صفاء كل هذا العطف وكل هذا الاهتمام؟ لماذا تدفع بي نحو الشهرة والمجد بكل ما تملك من قوة؟ هل كل هذا لأنها مؤلفة القصة؟ لا أظن. هل تهدف لغرض معين؟ هل ترمي شباكها حولي لتتزوجني؟ إنها تكبرني بأعوام كثيرة، ولكن هذا لا يمنع فهي لا تزال رائعة الجمال.

شعر رمزي بشيء من الارتباك.

إلهام فتاة جميلة وفقيرة، وصفاء امرأة ناضجة، لديها من الأموال ما لا يعد ولا يحصى. يمكنها أن تنتج فيلمًا كل شهر لو أرادت. يمكنها أن تجعل اسمي على كل لسان. إنني في أشد الحاجة إليها.

ثم وجد نفسه يقارن بين صفاء، وذلك الرجل الغريب الأطوار الذي اشترى رأسه.

كلاهما منحني شيئًا. الرجل الغريب منحني ألفين من الجنيهات، وصفاء منحتني الشهرة والمجد.

وعند ذلك قفزت في ذهنه فكرة حزينة حجبت كل ما عداها من أفكار.

إن صفاء حتى الآن لم تسلمني العقد الخاص بي، ولم آخذ منها حتى هذه اللحظة مليمًا واحدًا وأنا بطل الفيلم. لماذا لم تمنحني ولو جزءًا من الأجر، إنها لم تفاتحني في هذا الموضوع. ما هدفها من ذلك؟ ربما يكون في نيتها استغلالي بلا أجر. إذا كان الأمر كذلك فسأكون ضحية استغلال بشع. إن ذلك الرجل الغريب منحني المال بلا مقابل. لا شك أنه رجل طيب خَيِّر أراد مساعدتي بطريقة مستترة فاخترع مسألة شراء رأسي ليوهمني أنه أخذ مني شيئًا في مقابل المال الذي أعطاه لي، ومسألة شراء رأسي وهمية بلا شك، فهأنذا أحيا حاملًا رأسي فوق كتفي ولم ينقص مني شيء. إنه نوع من الإحسان المستتر. لقد أعطاني ألفين من الجنيهات بلا مقابل في واقع الأمر، فهو لم يأخذ مني شيئًا حقيقيًّا. ولكن هذه المرأة، صفاء، تنوي استغلالي بلا مقابل، فهي لم تمنحني مليمًا واحدًا حتى الآن.

ولكن يكفي أنها مهدت أمامي فرصة المجد والشهرة ليتألق نجمي ويصبح اسمي على كل لسان.

واختلطت الأفكار في رأسه وأصبح وكأنه يسير في ضباب يحجب عن عينيه حقيقة الأشياء، فلم يعد في استطاعته التمييز بين الأبيض والأسود!

* * *

انتهى من تلحين جميع أغاني الفيلم وتدوينها على الورق، فتناول سماعة التليفون ليزف للمخرج هذه البشرى. ولكن المخرج لم يكن في منزله في تلك اللحظة فشعر بشيء من الضيق، وتذكر أن صفاء كانت قد طلبت منه سماع الأغاني بعد الانتهاء من تلحينها فاتصل بها تليفونيًّا فطلبت منه الحضور إلى منزلها في الحال. وضع العود داخل جرابه الأحمر وقبض عليه من رقبته بقوة وكأنه يخشى على الألحان أن تهرب منه، وترك المنزل متوجهًا إلى منزل صفاء.

وبينما هو يهم بالخروج من باب العمارة، أبصر الرجل ذا الجبهة المجروحة يحاول الاختفاء عن عيني رمزي خلف كشك لبيع الحلوى والمثلجات بالقرب من المنزل، فلم يعره اهتمامًا ووقف في انتظار تاكسي، فلم يجد تاكسيًا. سار بضع خطوات ونظر إلى الخلف فإذا بالرجل يسير خلفه. في هذه اللحظة مر تاكسي أشار إليه رمزي فتوقف، وركبه متوجهًا نحو منزل صفاء.

هبط رمزي من التاكسي عند باب فيلا صفاء، وبينما هو يعطي السائق أجره حانت منه التفاتة فوجد تاكسيًا آخر يقف بالقرب منه يطل منه الرجل ذو الجبهة المجروحة.

دخل رمزي منزل صفاء وجلس في البهو في انتظار قدومها. بعد نحو خمس دقائق أقبلت وعلى شفتيها نفس الابتسامة الرقيقة. صافحته وجلسا معًا في الصالون الداخلي. التفت إليها وقال:

- أنتِ أول من يسمع ألحان الفيلم، إذا استثنينا خادمي محمدًا الذي استمع إليها بحكم وظيفته.

ضحكت صفاء وقالت:

- أنا أحسد خادمك الذي سمعها قبلي. أنا في شدة الشوق لسماع ألحانك.

أخرج رمزي العود من جرابه وأخذ يداعب أوتاره ويضبط أنغامه فترة من الوقت، ثم قال:

- ها هو اللحن الأول.

وغنى الأغنية الأولى، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، ثم الخامسة. كانت صفاء في هذه الأثناء صامتة تصغي إلى الألحان بكل جوارحها، وعندما انتهى من الغناء نظر إليها فإذا بها تمسح دموعًا انسابت على خديها وقالت:

- لم أسمع في حياتي أجمل من هذه الألحان.. أنت فنان أصيل. فنان عظيم.

وقامت وغابت نحو خمس دقائق وعادت وفي يدها ظرف أبيض سلمته لرمزي قائلة:

- في هذا الظرف نسختان من العقد لإمضائهما، وشيك بمبلغ عشرة آلاف جنيه. وهذا المبلغ هو مقدم الأجر، أما باقي الأجر فهو جميع أرباح الفيلم!

قال رمزي وهو غير مصدق لما تسمعه أذناه:

- عشرة آلاف جنيه علاوة على جميع أرباح الفيلم لي أنا؟!

ثبتت صفاء نظرها في عيني رمزي لحظة، ثم قالت:

- أنت تستحق أكثر من ذلك. أنت لا تعرف قدر نفسك، ولكنني أعرف قدر الناس ولست في حاجة لمزيد من المال، وأرجو أن يظل الأجر الذي ستتقاضاه سرًّا بيننا.

اغرورقت عينا رمزي بالدموع وهَمّ بالقيام فسألته صفاء:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى منزلي.

- كلا. لا تخرج الآن. تعال معي.

أمسكت يده في رفق وقادته إلى غرفة ما إن دخلها حتى اتسعت عيناه من الدهشة واستولى عليه الذهول.

كانت الغرفة تبدو وكأنها ممتدة إلى ما لا نهاية! شعر كأنه يسير في غابة تزدحم بالأشجار الباسقة، وأخذ يدير بصره في أنحاء الغرفة. كان سقفها في لون السماء وفي هذه السماء طيور تنعكس عليها الأضواء. جداران متقابلان من جدرانها من البلّور، وفوق مرآة أحد الجدارين رسوم بارزة متعددة الألوان، وكأنها إحدى تحف مايكل أنجلو تبدو فيها الأشجار والحيوانات البرية. وهذا المنظر ينعكس على المرآة التي تملأ الجدار المقابل فتبدو الغابة في المرآة وكأنها ممتدة إلى نهاية الكون!

وتحت كل مرآة بوفيه فاخر وفي وسط الغرفة مائدة للطعام من الأبنوس يلتف حولها عدد كبير من الكراسي الفاخرة وعلى المائدة ألوان من الطعام كثيرة. وبالغرفة نافذة عريضة مغلقة.

جلست صفاء عند رأس المائدة وطلبت من رمزي الجلوس بالقرب منها:

- تفضل يا أستاذ رمزي. أريد أن تمنحني شرف العشاء معي في هذه الليلة.

أنا رمزي عبد الحميد الذي كنت على وشك الانتحار منذ أشهر قلائل ليأسي من الحياة عندما فشلت في كل عمل وعزت عليّ لقمة العيش، أجلس في هذه الغرفة الفاخرة وأمامي ألوان من الطعام لم ترها عيناي من قبل وفي جيبي شيك بعشرة آلاف جنيه؟!

أخشى أن يكون كل هذا حلمًا، ولكنه لا يمكن أن يكون حلمًا. لا بد أنه حقيقة؛ إذ إن أحلامي لم تكن من هذا النوع، فالإنسان يحلم بأشياء يعرفها، وما أراه الآن لا يرقى إليه خيالي ولا في الأحلام.

وجلس رمزي وهو لا يزال في ذهول:

- إنه شرف عظيم لي لم أكن أحلم به. شرف عظيم.

يوجد بعض التشابه في تسلسل الأحداث. فلقد دعاني الرجل الغريب للغداء في منزله بعد أن اشترى رأسي وأعطاني ألفين من الجنيهات ثمنًا له. وهذه المرأة أعطتني عشرة آلاف جنيه ثم دعتني للعشاء معها. إنه نفس الشيء. ولكن لا وجه للمقارنة بين روعة هذه الغرفة الفاخرة وحجرة الرجل الغريب المزينة جدرانها برؤوس الحيوانات المحنطة.

ورن جرس، أقبلت على أثره الخادمة السمراء مسرعة. طلبت منها السيدة أن تفتح النافذة ومن خلال تلك النافذة رأى رمزي حديقة خلفية رائعة الجمال. ودون أن يشعر أخذ يقارن بين الحياة التي كان يحياها في غرفته الكئيبة القديمة الأثاث فوق سطح المنزل والحياة التي تحياها هذه السيدة في ذلك القصر الفاخر.

خيل إليه كأنها نوع آخر من البشر لا يمت له بأية صلة. الحياة هنا تطيل العمر. يخيل إليّ أنني لو عشت في هذا القصر سأحيا إلى الأبد!

كان من بين ألوان الطعام التي قدمتها له صفاء ما لم تره عيناه من قبل، فأخذ يأكل في حذر كما تفعل القطة عندما يقدم لها لون من الطعام لم تألفه وعندما تتذوقه تجده لذيذ الطعم فتقبل عليه بشهية.

انتهى من تناول الطعام، فلما أراد الانصراف قالت صفاء:

- ولماذا لا نقضي بعض الوقت معًا في الحديقة؟

- بكل سرور.

خرجا معًا إلى الحديقة التي يغمرها بالضوء عدد من المصابيح المتعددة الألوان متناثرة بين فروع الأشجار. جلسا على مقعدين متقابلين بينهما مائدة تحت إحدى الأشجار، وساد الصمت فترة من الزمن قطعته صفاء عندما قالت:

- إنني أحيا هنا حياة رتيبة لا بهجة فيها ولا سرور. يكاد يقتلني الملل!

ترى ماذا يكون شعورها لو قدر لها أن تعيش في الغرفة التي كنت أعيش فيها فوق سطح العمارة بجوار ذكر البط؟ ماذا تريد أكثر من ذلك؟!

لاحظت صفاء شرود ذهنه فقالت:

- فيم تفكر؟

- في الدنيا.

- ما لها الدنيا؟

- عجيبة.

- كيف؟

- لم أكن أتصور أن مثلك يشكو من الملل!

- ولماذا لا تتصور ذلك؟

- لديك كل ما يتمناه أي إنسان. كل أسباب السعادة. المال والجمال والحياة الرغدة المترفة.

- أتظن أن هذه الأشياء التي ذكرتها هي كل مقومات السعادة؟

- وماذا تكون السعادة إذن؟

- الإنسان لا يسعد بما لديه، ولكنه يشقى بما هو محروم منه.

- وما هو الشيء الذي ترين أنك محرومة منه؟

- أشياء كثيرة.

- مثل ماذا؟

- يكفي أنني لن يذكرني بعد موتي فرد واحد من البشر. لم يعد لي في الدنيا أحد. أنسيت أنني فقدت زوجي وأقضي حياتي وحيدة بلا زوج ولا ولد؟ ما أقسى أن يعيش الإنسان ثم يموت وكأنه لم يكن، لا يذكره إنسان في الوجود.

- آسف إذا كنت قد أثرت في ذهنك ذكريات حزينة.

- إن هذا القصر الذي يبدو لعينيك فاخرًا أصبح بالنسبة لي شيئًا عاديًّا. لم يعد يبعث في نفسي ذرة من السعادة، بل أصبحت أراه وكأنه مقبرة كبيرة! فالسعادة ليست في رؤية الشيء الواحد مرارًا وتكرارًا.

- السعادة في نظري هي عدم الشعور بالألم أو العذاب.

- وما يدريك أنني لا أتعذب ولا أتألم؟

- عذاب المترفين يختلف عن عذاب الفقراء.

قالت صفاء وفي صوتها رعشة حزن:

- لا فرق بين عذاب وعذاب. قد تختلف الأسباب ولكن العذاب هو العذاب في جميع الحالات. ثم من يدريك أنني لا أتعذب عذابًا مريرًا يفوق عذاب أي إنسان؟!

قال رمزي مندهشًا:

- تتعذبين؟! من ماذا؟!

- حياة أي إنسان تشبه جبل الثلج الذي يطفو في الماء، ما يبدو منه للعيون جزء ضئيل، أما الجزء الأكبر فتغمره المياه وتخفيه عن الأبصار.

أطرق رمزي للأرض فترة قصيرة قبل أن يقول:

- يخيل إليّ أن في حياتك سرًّا لا أعرفه.

عن ذلك همت صفاء بأن تقول شيئًا، لكنها آثرت الصمت، ثم خبأت عينيها بيدها وأجهشت بالبكاء.

شعر رمزي بخجل شديد جعل العرق يتفصد من جبينه، واقترب منها وأخذ يربت على كتفها برفق:

- أنا متأسف. أخشى أن أكون قد جرحت شعور أرق وأنبل إنسانة رأيتها في حياتي.

أخرجت منديلًا مسحت به دموعها وتكلفت الابتسام، ثم قالت:

- ليس هناك ما يدعو للأسف. أنا الآسفة على ما بدر مني. لقد عكرت صفو هذه اللحظة الجميلة. أرجو أن تغفر لي بكائي. لم أستطع السيطرة على مشاعري.

ثم قامت وأمسكت يد رمزي برفق وسارت به نحو السلم الخلفي المؤدي إلى المنزل. صعدا السلم، ثم وقفت في البهو ومدت يدها وصافحته.

- أتعشم أن أراك قريبًا. في أية لحظة تشاء.

غادر رمزي منزل صفاء وهو يشعر بحزن عميق.

لم أكن أتصور أن امرأة وهبها الله كل هذا الجمال والمال من الممكن أن تبكي! إنها تشكو من الملل! ومن الوحدة! ولكن صفاء في إمكانها أن تملأ حياتها بهجة ومتعة. لماذا فرضت على نفسها هذه العزلة القاسية؟ في جيبي شيك بمبلغ عشرة آلاف جنيه. إنها ثروة لم أكن أحلم بها. في إمكاني الآن أن أشتري سيارة فاخرة. صفاء وهبتني أيضًا جميع أرباح الفيلم الذي أضطلع ببطولته.. ستهبط عليّ آلاف أخرى من الجنيهات.. لماذا تخصني بكل هذا العطف والتشجيع؟ لماذا تمنحني كل هذه الأموال الطائلة؟ لو أنها أعطتني ألفًا من الجنيهات فقط في مقابل دوري في هذا الفيلم لاعتبرت نفسي أسعد السعداء! لا بد أن في الأمر سرًّا. هل من المعقول أن يكون كل هذا لوجه الله؟!

تمنى رمزي في هذه اللحظة أن يجد صديقًا مخلصًا يستطلع رأيه في تلك الأشياء التي تحيّر فكره. ولكنه هو أيضًا وحيد!

اشترى رمزي سيارة بيضاء جميلة المنظر. وعن طريق عمال الجراج حصل على سائق يتولى قيادتها، إذ إن أعصابه لا تحتمل قيادة السيارات. كان هذا السائق نحيل الجسم أسمر البشرة قصير القامة، وأصبح رهن إشارته، ينقله بالسيارة إلى أي مكان يشاء.

وحين كان رمزي جالسًا في منزله يقرأ أحد الكتب بعد شراء السيارة بثلاثة أيام، دق جرس التليفون، وسمع صوت المخرج يقول:

- أين كنت يا أستاذ رمزي؟ طلبتك بالتليفون عدة مرات وفي كل مرة يخبرني خادمك أنك خارج المنزل.

- أنا متأسف. لم يذكر لي الخادم شيئًا عن ذلك. هأنذا الآن موجود بالمنزل وطوع أمرك.

- هل انتهيت من قراءة سيناريو وحوار الفيلم؟

- وحفظته عن ظهر قلب.

- شيء عظيم. أرجو أن تكون في ستديو مصر غدًا في العاشرة صباحًا. سيبدأ تصوير الفيلم.

- سأكون في الاستديو غدًا في الموعد.

في التاسعة صباحًا انطلقت سيارة رمزي تحمله إلى ستديو مصر. وجد المخرج واقفًا في البلاتوه يراقب عمال الإضاءة المنهمكين في إعداد المصابيح الكهربائية الضخمة التي تسلط الضوء على غرفة صالون أنيقة، وبالغرفة نافذة عريضة تطل على حديقة. وفي أحد أركان الصالون بيانو فاخر وفتاة جميلة جالسة على أحد كراسي الصالون تحتسي الشاي في كوب من الزجاج. كان مصور الفيلم يحرك آلة التصوير الضخمة فوق قضيبين من الحديد وينظر من خلال عدساتها إلى إحدى زوايا الصالون. وعندما دخل رمزي أقبل عليه المخرج مصافحًا:

- أهلًا يا أستاذ رمزي. كنت أخشى أن تتأخر عن الموعد.

وقبل أن يتكلم رمزي أمسك المخرج ذراعه وقاده نحو الفتاة الجالسة تحتسي الشاي وقدمه إليها قائلًا:

- الأستاذ رمزي، بطل الفيلم.

نهضت الفتاة ومدت يدها لرمزي لتصافحه وبصرها مثبت على وجهه:

- أهلًا وسهلًا.

ثم التفت المخرج إلى رمزي وقال:

- هذه هي زوجتك الأولى «بهيجة» التي ستحول حياتك إلى جحيم وتقذف بك من قمة المجد إلى هاوية اليأس والضياع، الآنسة عفاف.

فضحكت عفاف كما ضحك رمزي وقال:

- يا ساتر يا رب. تشرفنا يا سيدة بهيجة، أقصد يا آنسة عفاف.

قالت عفاف مبتسمة:

- إنها مهمة قاسية يا أستاذ رمزي. كنت أود أن أكون أنا التي أرفعك إلى قمة المجد ولكن ما باليد حيلة.

فابتسم المخرج وقال لعفاف:

- أرجو أن يوفقك الله كل التوفيق في تحطيم حياته.

فضحك الجميع، وقال رمزي:

- آمين يا رب.

أخذ رمزي يدير عينيه في أنحاء البلاتو ويتأمل الديكور ثم التفت إلى المخرج:

- ولكن أين الزوجة الثانية «عايدة» التي ستأخذ بيدي وتعيد لي الثقة في نفسي وترفعني من جديد إلى قمة المجد؟

- الزوجة الثانية لا تزال في عالم الغيب، لم أعثر عليها حتى الآن!

بدت الدهشة على وجه رمزي:

- هل تبدأ التصوير وإحدى الشخصيات الرئيسية في الفيلم ما زالت في عالم الغيب؟!

- منتجة الفيلم، السيدة صفاء، تصر على أن تكون الشخصيات الرئيسية من الوجوه الجديدة. ولقد ظننت أنني عثرت على ضالتي المنشودة ولكن...

قال رمزي في لهفة:

- ولكن ماذا؟

- في نحو الثامنة من صباح اليوم دق جرس التليفون في منزلي، وإذا بوالد هذه الفتاة يمطرني بوابل من الشتائم ويخبرني أن ابنته اتصلت بي بدون علمه، وأنه لا يقبل مطلقًا أن تعمل ابنته في السينما.. بعد أن بذلت مجهودًا مضنيًا لتدريبها.

بدا الوجوم على وجه رمزي:

- وما العمل الآن؟

- سأواصل البحث وأمري إلى الله.

قفزت في رأس رمزي فكرة:

- أنا أعرف فتاة تصلح لهذا الدور ولن تحتاج إلى تدريب.

- من هذه الفتاة؟

- فتاة تدعى «إلهام».

بدا الاهتمام على وجه المخرج:

- هل أنت متأكد قبل كل شيء من أن والدها سيسمح لها بالتمثيل في السينما؟

- كل التأكيد، فهى طالبة بمعهد التمثيل.

- وهل هي جميلة؟

- أجمل من رأيت في حياتي. وأعتقد أنها أصلح من يؤدي هذا الدور.

شعر المخرج أن حملًا ثقيلًا قد أزيح من فوق صدره:

- ومتى أراها؟

- في أي وقت تشاء. إنها تسكن معي في نفس العمارة.

- هل يمكنني أن أراها غدًا هنا في الاستديو الساعة العاشرة صباحًا لأجري لها الاختبارات اللازمة؟

- أعتقد ذلك.

كانت عفاف قد انتهت من عمل المكياج اللازم، فذهب رمزي إلى غرفة المكياج ثم عاد إلى «البلاتو» بعد أن أتم عمل المكياج. جلس مساعد المخرج وعلى يمينه رمزي وعلى يساره عفاف، وانضم إليهم شاب يرتدي جلبابًا أبيض. إنه الشاب الذي سيقوم بدور خادم رمزي في الفيلم. بدأ مساعد المخرج يراجع معهم الحوار اللازم للمشهد المعد للتصوير، وعندما انتهى من مهمته اتجه نحوهم المخرج وألقى عليهم بعض الإرشادات:

- هيا يا رمزي. ستجلس الآن على كرسي البيانو وتبدأ في عزف أحد ألحانك الجديدة، وفي أثناء العزف سيدخل خادمك ليخبرك أن بالباب فتاة معجبة بك تصر على مقابلتك، ثم تدخل عفاف وفي يدها «الأوتوجراف». هل حفظتما الحوار جيدًا؟

فأومأ رمزي برأسه، وقالت عفاف:

- حفظناه.

بعد إجراء عدة «بروفات» بدون تصوير، صاح المخرج قائلًا:

- الأنوار.

فتوهجت جميع المصابيح القوية المحمولة على الأخشاب في مستوى أعلى من مستوى الديكور وبدا الصالون وكأنه يسبح في ضوء النهار. جلس رمزي أمام البيانو متأهبًا للعزف ثم صاح المخرج قائلًا:

- كلاكيت.

فأسرع شاب منحنيًا أمام آلة التصوير حتى لا تظهر صورته في المشهد وفي يده خشبة الكلاكيت التي وضعها أمام عدسات آلة التصوير وقال:

- «البعث» 14 أول مرة.

ثم أطبق خشبتي الكلاكيت فأحدث انطباقهما صوتًا، ثم انسحب خارج المشهد. بدأ رمزي العزف على البيانو، ثم أقبل عليه الخادم من باب الغرفة قائلًا:

- يا سيدي شريف، فتاة بالباب تصر على مقابلتك.

فقال له رمزي (واسمه في الفيلم شريف) وهو مستمر في العزف:

- دعها تدخل.

فدخلت عفاف (واسمها في الفيلم بهيجة) مطرقة للأرض في حياء وفي يدها الأوتوجراف فتوقف رمزي عن العزف والتفت إليها قائلًا:

- ما الذي أستطيع أن أفعله لك يا آنسة؟

- لا أطمع في أكثر من توقيعك على الأوتوجراف. إن أملي في الحياة منذ أعوام أن أراك وأن تكتب لي في الأوتوجراف سطرًا واحدًا. سطرًا واحدًا فقط.

فقام رمزي وجلس بجوارها قائلًا:

- أهذا كل ما تريدين؟ شيء بسيط. ناوليني الأوتوجراف.

سلمته عفاف الأوتوجراف، فأخرج رمزي قلمه قائلًا:

- ها هو السطر الذي تريدينه.. "أتمنى لك من صميم قلبي السعادة والتوفيق" وها هو توقيعي: شريف مختار.

- أنا متشكرة. متشكرة جدًّا يا أستاذ.

وصاح المخرج قائلًا: "ستوب".

فأطفئت الأنوار العالية وأقبل المخرج على رمزي وعفاف قائلًا:

- رائع.. هائل.. لم أكن أتصور أن تؤدى اللقطة بهذه الروعة من أول مرة. ولكن سأعيد اللقطة لأنك يا عفاف لم تنظري إلى رمزي مطلقًا في أثناء حديثك معه. ينبغي أن تسترقي النظر إليه بين لحظة وأخرى، فأنت معجبة به أشد الإعجاب وليس من المعقول أن تظلي مطرقة للأرض طوال المشهد.

وأعيد المشهد ست مرات حتى رضي عنه المخرج. وبدأ الاستعداد للقطة التالية وتوقف التصوير نحو ساعة حتى تم الاستعداد. وانتهى مساعد المخرج من مراجعة الحوار. في ذلك المشهد يقف رمزي ناظرًا من خلال نافذة الصالون إلى إحدى أشجار الحديقة منصتًا لزقزقة العصافير بعد أن تم زواجه من بهيجة (عفاف) ثم تدخل عفاف الغرفة فيقول لها رمزي:

- ما أجمل الصباح. الطيور تستقبله بهذا التغريد الجميل. أنا أحب القيام من نومي مبكرًا لأسمع تغريد الطيور. إنه موسيقى.. إنه صوت الحياة.

فتقول عفاف في غضب وانفعال:

- أنا لا أحب تغريد الطيور. إنها تقلق منامي وتزعجني. هل لديك عمل اليوم؟

- أجل. سأذهب لإجراء التجارب الموسيقية للباليه.

فتصيح عفاف في تبرم وصبر نافد:

- موسيقى.. موسيقى! كل يوم موسيقى! ألا تستريح من الموسيقى بضعة أيام؟ أريد أن أخرج معك للنزهة. إنني أختنق!

يرد عليها رمزي في هدوء:

- لا تنسَيْ أنني موسيقي ولا عمل لي سوى الموسيقى، وهي التي تتيح لنا هذه الحياة الرغدة.

فتصرخ عفاف وتقذف بإحدى أواني الأزهار فتكسرها:

- سأجن. سأموت. سأختنق! لقد سئمت هذه الحياة المملة القاتلة!

وينتهي المشهد عند هذه الجملة وبعد ثلاث «بروفات» بدأ التصوير. ولكن التمثيل في هذه المرة لم يكن في مستوى الأداء في «البروفات». كان رمزي يتلعثم. وتخرج الكلمات من بين شفتي عفاف لا حرارة فيها ولا تعبير. وأعيد تصوير هذا المشهد ست عشرة مرة حتى رضي عنه المخرج الذي جلس غاضبًا عابسًا يضرب كفًّا بكف ويقول:

- لست أدري ما الذي حدث لكما. كان المفروض أن يحدث هذا التلعثم وهذا الخطأ في اللقطة الأولى لا في اللقطة الثانية!

وتم تصوير ستة مشاهد أخرى في ذلك اليوم تدور جميع أحداثها في غرفة الصالون ويضطلع ببطولتها رمزي وعفاف (الزوجة الأولى في الفيلم).

ذهب رمزي إلى منزله في مساء ذلك اليوم مرهقًا فارتمى على الفراش بملابسه الكاملة. ثم تذكر أن المخرج كان قد طلب منه رؤية إلهام في الاستديو غدًا. فقفز من الفراش وأصلح هندامه واتجه نحو شقة إلهام وضغط على زر جرس الباب. بعد فترة قصيرة فتحت إلهام الباب وما إن رأت رمزي حتى بدت عليها الدهشة الممزوجة بالفرح:

- أستاذ رمزي؟ أهلًا وسهلًا.

- أريد أن أتحدث معك في أمر هام.

- تفضل.. تفضل ادخل.

دخل رمزي بهو المنزل، وقادته إلهام إلى غرفة الصالون. كان الصالون من الطراز القديم المذهب. جلس رمزي على أحد الكراسي وخرجت إلهام من الغرفة مهرولة وغابت فترة من الزمن. في أثناء تلك الفترة أخذ رمزي يدير بصره في أنحاء الصالون.

رأى على أحد الجدران صورة متوسطة الحجم لرجل وسيم وفي طرف الصورة لاحظ وجود شريط أسود، فاستنتج رمزي أن هذا الرجل هو والد إلهام وأنه قد توفي. وعلى جدار آخر شاهد صورة لإلهام وبعض الصور الزيتية لمناظر طبيعية.

عادت وفي يدها صينية عليها كوب من شراب مثلج. وضعت الصينية على منضدة أمام رمزي. وفي حين كان رمزي يحتسي عصير الليمون المثلج دخلت الغرفة سيدة في العقد الخامس من عمرها صافحت رمزي، فقالت إلهام:

- هذه والدتي.

- أهلا وسهلا. تشرفنا يا هانم.

وجلست السيدة بجوار ابنتها إلهام صامتتين تنتظران أن يسمعا من رمزي ما يفسر لهما سبب تلك الزيارة المفاجئة. وبعد أن أطرق رمزي للأرض فترة من الزمن التفت إلى إلهام وقال:

- لقد رشحتك أمس للأستاذ عاطف صلاح المخرج للقيام بدور من الأدوار الرئيسية في فيلم «البعث» الذي أضطلع ببطولته.

فقفزت إلهام وكأنها طفلة صغيرة في العاشرة من عمرها وقالت في لهفة وفرح:

- أنا أمثل دورًا رئيسيًّا في فيلم سينمائي؟ ومعك في نفس الفيلم؟!

شعرت إلهام بأن قلبها على وشك أن ينطلق من صدرها من الفرحة والانفعال.

قالت والدتها والفرحة تطل من عينيها:

- ومتى سيبدأ تصوير هذا الفيلم؟

- لقد بدأ التصوير اليوم.

ثم التفت إلى إلهام وقال:

- والمخرج يرجو حضورك إلى ستديو مصر غدًا في العاشرة صباحًا لعمل الاختبارات اللازمة.

قالت والدة إلهام:

- إلهام ليست في حاجة لأي اختبار، فهي في معهد التمثيل وترتيبها الأولى في جميع سنوات دراستها.

قال رمزي:

- لا بد من عمل الاختبارات لأي ممثل أو ممثلة لم يسبق لهما التمثيل في السينما. وأنا متأكد من أن إلهامًا ستجتاز الاختبار بنجاح باهر.

قالت إلهام وقد شعرت بنشوة:

- وما هو موضوع الفيلم؟ وما دوري فيه؟

فقص عليها رمزي ملخصًا لموضوع الفيلم، وأخبرها أنها ستكون الزوجة الثانية للفنان التي ستأخذ بيده وتعيد إليه مجده.

فلم تستطع إلهام إخفاء الفرحة التي ملأت قلبها:

- أنا متشكرة. أشكرك من كل قلبي لتذكرك لي وترشيحي لتمثيل هذا الدور في الفيلم.

- سأنتظرك الساعة التاسعة والنصف من صباح الغد لنذهب إلى الاستديو معًا.

كان المخرج واقفًا في فناء الاستديو يتحدث مع مصور الفيلم، وعندما شاهد رمزي قادمًا وفي صحبته إلهام تقدم نحوهما مبتسمًا وصافحهما. قال رمزي:

- هذه إلهام.

وعندما دخلوا باب مبنى الاستديو التفت المخرج لإلهام وقال:

- تعالَيْ معي يا آنسة إلهام إلى غرفة المكياج.

انتهت إلهام من المكياج فصحبها المخرج إلى غرفة لإجراء الاختبارات وذهب رمزي إلى البلاتو. كانت عفاف في انتظاره فجلس بجوارها، وحياه مساعد المخرج وجلس بجوارهما يشرح لهما اللقطة التي سيبدأ تصويرها. بعد فترة أقبل المخرج وفي صحبته إلهام فقفز رمزي نحو المخرج وقال في لهفة:

- ما رأيك في إلهام يا أستاذ عاطف؟ هل اجتازت الاختبارات بنجاح؟

- إنها رائعة.

أسند المخرج الدور لإلهام فأدته على أحسن وجه ولم يبق سوى عدد قليل من اللقطات وينتهي تصوير الفيلم. كانت إلهام تذهب إلى الاستديو يوميًّا بصحبة رمزي في سيارته البيضاء الفاخرة. في ذلك اليوم ذهبا معًا إلى الاستديو كالعادة، كان من المقرر تصوير الست لقطات الباقية من الفيلم. خمس منها تشترك فيها إلهام ولقطة واحدة لرمزي بمفرده وهو يغني إحدى أغنيات الفيلم على المسرح بمصاحبة فرقة موسيقية ضخمة أمام عدد هائل من الجماهير.

أدت إلهام أربع لقطات بمصاحبة رمزي ولم يبق بالنسبة لها سوى لقطة واحدة وهي اللقطة التي سينتهي بها الفيلم (إذ إن تصوير اللقطات لا يتبع التسلسل الطبيعي لأحداث الفيلم) تدور أحداث هذه اللقطة في غرفة النوم في منزل رمزي بعد أن ارتفع إلى قمة المجد مرة أخرى وتمكن من شراء منزل جديد أنيق بفضل زوجته الجديدة إلهام (واسمها في الفيلم عايدة) التي أعادت له الثقة في نفسه.

لهذه الغرفة نافذة تطل على شجرة بحديقة المنزل. بدأ التصوير. بدت إلهام ساهمة. يقول لها شريف:

- فيم تفكرين؟

فتقول إلهام:

- أنصت لتغريد العصافير. إنه صوت جميل.. صوت الربيع.

فيرد عليها رمزي قائلًا:

- إنها أجمل موسيقى في الدنيا.

فتقول إلهام:

- انظر إلى الشجرة التي كانت جافة كقطعة من الخشب الميت في الخريف.. من كان يصدق أن تلك الخشبة الجافة تمتلئ بالأوراق الخضراء من جديد؟!

فيقول رمزي:

- دبت فيها الحياة.

- أريد أن أسمع قطعتك الموسيقية الجديدة. أنا لا أشبع من سماعها. عندما أسمعها يخيل إليّ أنني تناولت وجبة دسمة.

فيقوم رمزي ويحضر جهاز تسجيل وينصتان معًا للقطعة الموسيقية. وعندما تنتهي تقول إلهام:

- جميلة جدًّا، رائعة. ماذا ستسميها؟

فيقول رمزي بعد لحظة تفكير:

- سأسميها.. سأسميها.. «البعث»

وينتهي تصوير هذه اللقطة. وبعد نحو ساعة كان الاستعداد قد تم لتصوير اللقطة التي سيغني فيها رمزي أغنية «القرنفل» على المسرح. كانت الأغنية قد سبق تسجيلها وسوف يذاع التسجيل في أثناء التصوير وعلى رمزي أن يحرك شفتيه مع كلمات الأغنية. أضيئت الأنوار، وأعطى المخرج إشارة بدء التصوير وبدأت الفرقة الموسيقية تعزف مقدمة الأغنية. كانت إلهام جالسة خارج إطار التصوير تنظر إلى رمزي في لهفة وإعجاب. وبدأ رمزي يغني أغنية القرنفل:

مين اللي زيّـه فى بهجتــه!

ماخْلى عبـيره وصحبتـه !

أزهاره زي الكاس.. تِسْكِر عيون النـاس..

ساكن منصان، فوق الأغصان،

ساحر فتان، صاحي ونعسان،

بتحيي الخيــال، يا رمز الجمال،

يا زهر القرنفل

بتسبي العيون، يا تـــاج الغصون..

يا زهر القرنفل

* * *

شوفوا الندى مشغول بهواه من حُبُّه فيه بيوس خده

ويقضي طـول الليل وياه ميــن اللي يقـدر علـى بُعْده

والورد هايم بيحبه، سهران ونايم يحلمْ به

والنسمة بتلاعب عوده يحلى هواها بوجـوده

بتحـــــيي الخيــــــــال يا رمز الجمال

يا زهر القرنفل

بتسبي العيون   يا تاج الغصون

يا زهر القرنفل

* * *

بين الزهور آمِرْ ناهي   ع الروض سـلطان

وفي الرياض لونك زاهـي   أشـكال وألوان

رقة ودلال في لَفْتِتَـك   فتنة وجمال في لَفِّتك

أشوفك أسـبح في الأحلام   وتمر على بالي الأيام

بتحيي الخيال، يا رمز الجمـال   يا زهر القرنفل

بتسبي العيون، يا تاج الغصـون   يا زهر القرنفـل

* * *

أول جمالك ما فتني   يوم ما الحبيـب كان مواعدني

فَـرَد حبيبــي منديله   فِضْلِتْ أقطّف وأدِّي له..

باسك وضَمَكْ على صــدره..   وقلبه قال لك على سِره..

من يومها حُسْـــــنَك بان ليَّ   وزادكَ جمـالك في عينَيّ

بتحيي الخيـال، يا رمز الجمـال   يا زهر القرنفل

بتسبي العيون، يا تاج الغصـون   يا زهر القرنفل

كان الغناء واللحن في قمة الروعة. وكان الاستديو في تلك اللحظة يضم عددًا من الزوار بهرتهم روعة أداء رمزي لهذه الأغنية. كانت جميع العيون متجهة نحوه. وعند هذا الجزء من الأغنية ترنح وسقط على المسرح فاقد الوعي!

لم يكن سقوط رمزي على المسرح ضمن نص السيناريو. كان من المفروض أن يستمر في الغناء بضع لحظات أخرى ثم تصعد على المسرح طفلة في نحو التاسعة من عمرها تقدم له باقة من أزهار القرنفل. ولكن بدا واضحًا للجميع أن رمزي سقط حقيقة لا تمثيلًا عندما توقف التصوير وساد الارتباك وبدا الفزع على وجه المخرج ومعاونيه وجميع عمال الاستديو. وصدرت من إلهام صرخة رعب ثم قفزت على المسرح بوجه شاحب وعينين زائغتين واحتضنت رمزي وأخذت رأسه بين يديها، فإذا به في حالة إغماء. صاح المخرج مخاطبًا مساعده:

- ما لك لا تتحرك؟! أسرع واستدع الطبيب.

فانطلق المساعد يعدو نحو الباب (باب البلاتو) وقفز المخرج فوق المسرح. كل هذا تم في ثوان معدودة.

كانت إلهام ما زالت محتضنة رأس رمزي، ثم أسندت رأسه على فخذها وأخذت تربت على خديه برفق كي يفيق. في هذه اللحظة قفز إلى المسرح أحد العمال وفي يده زجاجة نوشادر. اختطفتها إلهام من يده وأخذت تمررها أمام أنف رمزي. وبعد فترة طويلة بدأ رمزي يفتح عينيه.

كان وجه إلهام الجميل ونظراتها الحزينة القلقة أول ما رآه رمزي عندما فتح عينيه. في هذه اللحظة شعر بشيء عجيب لم يشعر به من قبل. شعر بحب عنيف لإلهام. رأى في نظراتها رقة وحنانًا يشبه

ذلك الحنان الذي كان يراه في عيني أمه منذ زمن بعيد.

ساعدته إلهام على الجلوس، ثم أخذ يتلفت حوله. لقد أدرك أنه سقط على المسرح قبل الانتهاء من أداء دوره. نظر إلى إلهام وقال:

- أنا آسف، لقد أتلفت المشهد، سأعيد تمثيله من جديد.

قال المخرج:

- لا تفكر الآن في شيء من هذا يا أستاذ رمزي. صحتك أغلى من كل شيء.

تقدم المخرج وساعد رمزي حتى وقف على قدميه، ثم صحبه برفق حتى هبط من فوق المسرح وأجلسه على أحد الكراسي، وبعد فترة قصيرة قال رمزي:

- أصبحت الآن على ما يرام. سأقوم وأعيد تمثيل المشهد فكل دقيقة هنا لها ثمن.

عند ذلك حضر الطبيب بصحبة مساعد المخرج الذي كان محتقن الوجه يجفف عرقه. أخذوا رمزي إلى غرفته بالاستديو حيث فحصه الطبيب فحصًا دقيقًا. كانت إلهام واقفة بجواره فسألت الطبيب بلهفة:

- ماذا به يا دكتور؟

- لا شيء سوى الإرهاق الشديد وأنيميا حادة. تلزمه راحة تامة لمدة أسبوعين على الأقل.

ذهب رمزي إلى المستشفى وتوقف العمل في الفيلم. وفي مساء ذلك اليوم كانت إلهام جالسة على كرسي بجوار سريره وسمعا نقرًا على باب الغرفة، ثم فتح الباب ودخلت صفاء تحمل في يدها باقة من الأزهار. فانتفض رمزي وحاول القيام من سريره، ولكن صفاء وضعت يدها على كتفه قائلة:

- أرجوك، لا تتحرك.

وضعت يدها على جبين رمزي وباقة الأزهار لا تزال في يدها الأخرى وقالت:

- بلغني أنك قلق لتوقف العمل في الفيلم. أنت تعلم أن المال لا يهمني. تهمني صحتك. في استطاعتي أن أدفع إيجار الاستديو لعدة سنوات، لا لعدة أيام. كن واثقًا من ذلك.

ثم وضعت باقة الأزهار على منضدة بجوارها وجلست على أحد الكراسي، والتفت إليها رمزي وقال:

- أشكرك على هذا الشعور الجميل، أشكرك من كل قلبي.

لم تكن صفاء قد رأت إلهامًا قبل تلك اللحظة، وشعر رمزي أنها تنظر إلى إلهام نظرة تساؤل، ثم قالت:

- من هذه الفتاة الجميلة؟ أختك؟ أم إحدى قريباتك؟

- لا إخوة لي ولا أقارب. إنها إلهام، إحدى بطلات الفيلم. إنها الزوجة الثانية التي سترفع الفنان من جديد إلى قمة المجد.

- ما شاء الله. إنها رائعة الجمال. لقد أحسن المخرج الاختيار.

فابتسمت إلهام وأطرقت للأرض وقد توردت وجنتاها، والتفت رمزي نحو إلهام وقال:

- ألا تعرفين يا إلهام السيدة صفاء منتجة الفيلم ومؤلفة قصته؟

فانتفضت إلهام واقفة وصافحت صفاء بحرارة قائلة:

- أهلًا وسهلًا. كنت أتمنى أن أراك. لقد حدثني عنك الأستاذ رمزي كثيرًا.

قالت صفاء مبتسمة:

- وماذا قال لك الأستاذ رمزي عني يا ترى؟

- قال لي إنك أعظم وأرق سيدة رآها في حياته.

- لا تصدقيه. إنه يبالغ في مدحي.

قال رمزي:

- أنا لا أبالغ. تأكدي أنني مهما قلت فلن أستطيع التعبير عما أكنه لك من احترام وإعزاز.

فابتسمت صفاء وقالت:

- أشكرك من كل قلبي، وكل ما أرجوه من الله أن يمتعك بالصحة في أقرب وقت. ثم همست في أذنيه: لقد تحدثت مع مدير المستشفى وأخبرته أنني سأتولى دفع جميع نفقات علاجك حتى تسترد صحتك كاملة. وأردفت قائلة: الصحة هي أغلى شيء في الوجود.

واغرورقت عيناها بالدموع.

استرد رمزي صحته وعاد إلى منزله، وأصرت صفاء على ضرورة بقائه في المنزل أسبوعًا آخر يستريح فيه قبل استئنافه العمل في الفيلم. ولما انتهى الأسبوع استأنف العمل فأعاد تمثيل مشهد الأغنية.

انتهى العمل في الفيلم وأصبح معدًّا للعرض. وظل رمزي يترقب موعد عرضه بقلب يخفق فرحًا في نفس الوقت. إنه لا يدري كيف ستقابل الجماهير أول فيلم يضطلع ببطولته.

هذا الفيلم سيقرر مستقبلك الفني يا رمزي. ستخضع لامتحان عسير أمام عدد هائل من الجماهير. الجماهير لا ترحم!

ولم يكن ذهن رمزي مشغولًا بالتفكير في الفيلم وحسب في تلك الفترة. كان مشغولًا بشيء آخر لا يقل عنه أهمية في نظره. كان مشغولًا بالتفكير في إلهام. فمنذ تلك اللحظة التي أفاق فيها من إغمائه بعد سقوطه على المسرح أصبح يعتقد أنه لن يستطيع الحياة بدونها! كان يفكر فيها في يقظته ويراها في أحلامه. لم يعد يتحرج من زيارتها في منزلها. فكان يزورها ويقضي معها الساعات الطوال دون أن يشعر بمرور الزمن. وكانت إلهام عندما تراه تبدو كطفلة صغيرة تقفز فرحًا ومرحًا. كانت ترى في نظراته كل معاني الحب. ولكنه لم يعترف لها بهذا الحب، كانت تقول لنفسها:

- ما قيمة الكلمة إذا كانت العيون تعبر عنها؟

وبين حين وآخر كان يفكر في صفاء.

إنها ملاك هبط من السماء، ولكنها بالنسبة لي لغز محير. ترى هل تحبني وتطمع في الزواج مني على الرغم من فارق السن بيننا؟ ولماذا اختصتني بكل هذا العطف وهذا السخاء؟ إنني أكن لها كل مودة وإجلال واحترام وعرفان بالجميل، ولكنني لا أشعر حيالها بذلك النوع من الحب الذي يشدني نحو إلهام. هل حقيقة لا تنتظر مني صفاء جزاء ولا شكرًا كما تقول؟ إن لكل شيء دافعًا، فما الذي يدفعها لمعاملتي تلك المعاملة غير العادية وغير الطبيعية؟

حين كانت تدور في رأسه هذه الأفكار في صباح أحد الأيام قبل موعد عرض الفيلم بيوم واحد دق جرس التليفون وترامى في أذنه صوت صفاء تخبره أنه مدعو للعشاء في منزلها في ذلك اليوم وتطلب منه أن يحضر معه إلهامًا!

وصل رمزي وفي صحبته إلهام إلى منزل صفاء. وعندما دخلا البهو فوجئا بوجود المخرج وعفاف، وفهم من صفاء أن هذا العشاء بمناسبة عرض الفيلم غدًا.

كانت صفاء بادية البهجة والمرح في تلك الليلة، وسألت المخرج عما يتوقعه لهذا الفيلم من نجاح، فأكد لها أن الفيلم سيلاقي نجاحًا منقطع النظير، والدعاية له قوية. وأخبرها أن عددًا كبيرًا من النقاد ورجال الصحافة دعوا لمشاهدته في عرض خاص، وأجمعوا على أنه من أجمل الأفلام التي شاهدوها طوال حياتهم.

وبينما الجميع في قمة البهجة وفي شوق ولهفة لرؤية الفيلم غدًا في دار العرض، حدث شيء عجيب لم يكن في الحسبان!

تجهم وجه صفاء، وتفصد العرق من جبينها وأفلتت منها صرخة ألم خافتة لم تستطع كتمانها وألقت بجسدها على أحد الكراسي، وقد تقلصت عضلات وجهها. كانت في صراع عنيف مع ألم فوق طاقة البشر. يداها ترتعشان وجسدها يتلوى. ثم قامت مترنحة واعتذرت للمدعوين قائلة إنها شعرت بألم مفاجئ، وإنها سوف تستدعي الطبيب، وصعدت إلى غرفة نومها!

بدا الوجوم على وجوه المدعوين وقد لاذوا بالصمت، وبعد فترة قصيرة دخل الدكتور أيمن يحمل حقيبته وصعد إلى الطابق العلوي. وعندما شاهدوا الطبيب يهبط السلم بعد نحو ساعة اندفعوا نحوه يسألونه عن صحتها.

وقف الطبيب فترة صامتًا مطرقًا للأرض، ثم قال:

- لقد تحسنت صحتها الآن، وهي ترجوكم أن تنتظروها فهي قادمة إليكم بعد قليل. وبعد نحو عشرين دقيقة رأوها تهبط السلم وخلفها خادمتها زعفرانة. كانت تحاول أن ترسم على شفتيها ابتسامة وكان وجهها شاحبًا وخطواتها بطيئة، وقبل أن تهبط آخر درجة من درجات السلم وقف الجميع متطلعين إليها فقالت:

- أرجو المعذرة. كانت وعكة بسيطة ومرت بسلام. متأسفة إذا كنت قد سببت لكم أي ضيق.

وبعد أن تناولوا العشاء الفاخر الذي أعدته لهم صفاء تمنى الجميع لها الصحة والعافية، وبينما هم يصافحونها في طريقهم للخروج من المنزل، توقف المخرج وقال لصفاء:

- كم كرسيًّا تودين حجزها في حفلة العرض الأولى؟

- كرسي لي وكرسي لزعفرانة وواحد للطباخ وكرسي لسائق السيارة وثلاثة لباقي الخدم.

- أتمنى أن أراك غدًا في أحسن صحة.

شكرته صفاء، وانصرفوا، وانطلقت سيارة رمزي وفي صحبته إلهام.

عندما أطفئت الأنوار استعدادًا لعرض الفيلم شعر رمزي بقلبه وقد أسرعت دقاته. كان مرهف السمع لكل إشارة أو ملاحظة تصدر من الجماهير. وكانت تحين منه من آن لآخر التفاتة نحو صفاء فيراها تجفف دموعها بمنديلها.

وانتهى العرض. واكتشفت الجماهير وجود رمزي وعفاف وإلهام فأخذ التصفيق يدوي وتعالت الهتافات. وعند باب السينما احتشدت الجماهير في انتظار خروج أبطال الفيلم الذين كانوا يشقون طريقهم بصعوبة بين الأجساد المتلاحمة. وفي وسط الجموع المحتشدة رأى رمزي وجهًا مألوفًا له. رأى ذلك الرجل المجروح الجبهة يتفرس في وجهه ويعترض طريقه، فأزاحه من أمامه ومضى يشق طريقه بين أمواج من الأجساد البشرية.

وتعرفت الجماهير على الطفلة التي قدمت أزهار القرنفل لرمزي بعد انتهائه من الأغنية في الفيلم في مشهد لم يستغرق سوى بعض ثوان، فحملوا الطفلة على الأعناق وساروا بها يخترقون الزحام.

أما صفاء، مؤلفة الفيلم، فلم يتعرف عليها أحد من هذه الجماهير الهادرة، فأخذت تشق طريقها في الزحام منكسة الرأس، لا يعرفها أحد ولا يشعر بوجودها إنسان.

كان رمزي يشعر بنشوة عندما تلاحقه الجماهير وتطلب إمضاءه، ولكنه بعد فترة بدأ يحس بشيء من الضيق. أصبحت الجماهير ترصد حركاته وسكناته. لم يعد في استطاعته السير في الشوارع والوقوف أمام واجهات المحال التجارية كما كان يحلو له أن يفعل. لقد حرم نفسه من متعة السير بجوار النيل بعد الغروب وفي يده كوز ذرة مشوي يلتهمه بشهية كما كان يفعل فيما مضى. وانهالت عليه العروض من شركات سينمائية كبيرة تطلبه بطلًا لأفلامها. أصبح جرس تليفونه لا يكف عن الرنين ليلًا ونهارًا، وكان معظم المتحدثين فتيات معجبات به. ولم يكن يمر يوم دون أن يصله عدد من رسائل المعجبين والمعجبات يطلب بعضهن صورته وإمضاءه.

كان من حين لآخر يستقل سيارته بصحبة إلهام ويذهبان لقضاء بعض الوقت في كازينو غير مألوف لعامة الجماهير. كان قد استقر رأيه على اختيار إلهام شريكة لحياته، ولكن شيئًا في أعماق نفسه كان يؤجل تنفيذ عقد القران!

كان يشعر بالخوف من شيء غامض لا يعرفه يمنعه من الإقدام على هذه الخطوة.

كان حائرًا بين صفاء وإلهام، يخيل إليه أن صفاء تطمع في الزواج منه ويخشى أن يتغير شعورها نحوه لو تزوج غيرها، وهو حريص على ألا يجرح شعور صفاء، ولكنه يحب إلهام حبًّا عنيفًا. كانت هذه الأفكار تحيره وتشغل باله.

في أحد الأيام، وهو في نشوة النجاح والشهرة، اكتشف أنه لم يتصل بصفاء ولو عن طريق التليفون منذ أكثر من شهرين ولم تتصل هي به. فشعر بشيء من الخجل. ماذا ستقول عنه صفاء؟ فأسرع

نحو التليفون وأدار رقم تليفونها. ظل الجرس يرن في أذنه فترة طويلة دون أن يرد عليه أحد. وفي حين كان يهم بوضع السماعة في مكانها سمع صوت فتاة تقول:

- ألو. من حضرتك؟

- أنا رمزي.

- حضرتك تريد سيدتي صفاء؟

- أجل.

- سيدتي صفاء مريضة بالمستشفى.

- في المستشفى؟ منذ متى؟

- منذ أكثر من ثلاثة أسابيع.

- في أي مستشفى؟

- في مستشفاها.

- مستشفاها؟! وهل للسيدة صفاء مستشفى؟

- أجل. مستشفاها الذي تبرعت ببنائه للفقراء.

- أين هذا المستشفى وما اسمه؟

- دار الشفاء بمصر الجديدة.

وضع رمزي سماعة التليفون وهو شارد الذهن. خرج واستقل سيارته واتجه نحو محل لبيع الأزهار، اشترى باقة رائعة وانطلق بسيارته نحو مصر الجديدة.

عندما دخل من باب المستشفى تعرف عليه كل من رآه فالتفوا حوله، ولكنه كان شارد اللب لا يشغل تفكيره سوى صفاء. شعر بعطف شديد على هذه المرأة الوحيدة في الحياة.

كان باب غرفتها موصدًا. طرق الباب طرقات خفيفة، ففتحت له الباب إحدى الممرضات التي كانت بالغرفة، فدخل الحجرة. كانت صفاء نائمة وبجوارها ممرضة أخرى مشغولة بإعطائها حقنة تحت الجلد.

وضع باقة الأزهار على منضدة صغيرة ونظرت إليه صفاء وابتسمت.

انتهت الممرضة من إعطائها الحقنة وخرجت من الغرفة كما خرجت خلفها الممرضة الأخرى، وبقي رمزي بمفرده مع صفاء فجلس على كرسي بجوار سريرها.

كان وجه صفاء شاحبًا وعيناها غائرتين وقد انطفأ بريقهما. أمسك رمزي بيد صفاء وقال:

- سلامتك. لم أعرف شيئًا عن مرضك ودخولك المستشفى إلا اليوم من زعفرانة عندما اتصلت تليفونيًّا بالمنزل.

أغمضت صفاء عينيها وتلاشت ابتسامتها وقالت:

- لم أرك منذ مدة طويلة.

- لماذا لم تتصلي بي تليفونيًّا عند ذهابك للمستشفى؟

انحدرت دمعة من عين صفاء وقالت:

- آثرت أن أموت في هدوء. لم أشأ أن أعكر صفو حياتك وأفسد عليك نشوة النجاح والشهرة في هذه الأيام. لست أدري لماذا يعتريني دائمًا المرض ويفاجئني الألم في أوقات غير مناسبة؟!

أطرق رمزي إلى الأرض وهو لا يزال واضعًا يدها بين يديه وقال:

- بل ستعيشين وستعودين إلى منزلك في كامل صحتك. أنا متأسف، كان من الواجب أن أتصل بك في خلال هذه المدة.

سادت فترة صمت، ثم قال رمزي:

- من أي شيء تشتكين؟

- أشكو من مرض أليم، عذبني كثيرًا.

- أي مرض هذا الذي يجرؤ على الاقتراب من هذا الجسد الجميل؟

ابتسمت صفاء ابتسامة باهتة وقالت:

- لكل شيء نهاية.

- أجل. لكل مرض نهاية مهما يطل.

قالت صفاء بصوت خافت:

- من أقسى الأشياء أن يكون الإنسان على علم بموعد نهايته!

- كيف تتحدثين عن النهاية وأنت في عنفوان الشباب؟!

- كل ما أطلبه من الله الآن أن يريحني من هذا العذاب. ولكل أجل كتاب.

ثم أجهشت بالبكاء!

نسي رمزي الفيلم والشهرة والأضواء ولم يعد يفكر إلا في صفاء. شعر بعاطفة قوية تربطه بهذه السيدة التي ترقد مريضة وحيدة بالمستشفى. كان يحمل باقة من الأزهار ويذهب لزيارتها كل يوم.

وفي إحدى الليالي حين كان مستغرقًا في النوم أيقظه رنين جرس التليفون. التقط السماعة وسمع صوت رجل يقول:

- حضرتك الأستاذ رمزي عبد الحميد الفنان؟

- أجل.

- نرجو حضورك إلى مستشفى دار الشفاء حالًا.

لم يستفهم رمزي عن سبب استدعائه للمستشفى، بل وضع السماعة وارتدى ملابسه وأيقظ سائق السيارة وانطلق نحو المستشفى.

كانت الساعة الثالثة صباحًا والشوارع ساكنة وخالية من المارة. وعندما لاح لعينيه مبنى المستشفى شعر باكتئاب. كان عدد من نوافذ المستشفى مضيئًا. ونظر نحو نافذة اعتقد أنها نافذة غرفة صفاء. قفز من السيارة ولم يشعر بنفسه إلا وهو أمام غرفتها. كان باب الغرفة مفتوحًا فاندفع من الباب. رأى صفاء نائمة على السرير وفي الغرفة ثلاث ممرضات وأحد الأطباء. نظر إليه الطبيب وقال:

- أهلًا أستاذ رمزي.

قال رمزي بلهفة:

- ماذا حدث؟ ما لها صفاء؟

خلع الطبيب نظارته ومسح دمعة انحدرت من عينيه وقال:

- السيدة صفاء توفيت منذ عشر دقائق. كانت تريد أن تراك قبل أن تموت.

فترنح رمزي وارتمى فوق أحد الكراسي وانخرط في بكاء عنيف مكتوم. عندما تمالك نفسه وضع رأسه بين كفيه وأطرق للأرض في حزن عميق وغادرت الممرضات الغرفة.

كان وجه صفاء يبدو كتمثال من الشمع. سحب الطبيب الملاءة على وجهها وجلس بجوار رمزي وقال:

- ظلت تصارع الموت في لحظاتها الأخيرة لتبقى على قيد الحياة حتى تراك.. كانت تسأل عنك بلهفة وعيناها مثبتتان نحو باب الغرفة في انتظار قدومك. يبدو أن أمرًا هامًّا كانت تود أن تفضي به إليك.

قال رمزي وهو لا يزال مطرقًا للأرض:

- كنت أتمنى أن أراها. لقد شعرت نحو هذه السيدة بعاطفة لم تشاركها فيها سوى أمي. إنها أنبل وأرق امرأة عرفتها في حياتي. أشعر بعد موتها بأنني فقدت شيئًا عزيزًا لا يمكن تعويضه. ترى ماذا كانت تريد أن تقول لي؟!

- ربما يكون شيئًا ذا علاقة بهذا الخطاب.

وقام الطبيب وفتح درجًا صغيرًا في الكمودينو المجاور لسريرها وأخرج منه ظرفًا متوسط الحجم سلمه لرمزي قائلًا:

- طلبت مني أن أسلمك هذا الخطاب.

تناول رمزي الخطاب قائلًا:

- متى كتبت هذا الخطاب؟

- لست أدري. ولكن يخيل إليّ أنها كتبته الليلة الماضية. كان في زيارتها هنا محاميها الخاص ومكث عندها نحو ساعة، وعندما يئست من قدومك طلبت مني أن أسلمك هذا الخطاب.

فتح رمزي الظرف وأخرج منه الخطاب بلهفة وقرأه. كان الخطاب صورة من وصيتها أنها توصي بأن تدفن بجوار زوجها وابنها في مقبرة ذكرت مكانها في مقابر الغفير، وتوصي بجزء من ثروتها للمستشفى وجزء لبناء مدرسة وحددت قدرًا من المال يُعطى لخادمتها زعفرانة ولباقي الخدم. أما باقي ثروتها وقصرها بالزمالك فقد أوصت بهما لرمزي تقديرًا منها لفنه، ولكي تتيح له فرصة النجاح والازدهار والتألق!

لم يستطع رمزي قراءة باقي الوصية، فلقد انسابت الدموع من عينيه. قال الطبيب:

- مسكينة هذه السيدة. كان لها ابن وحيد فقدته في ظروف أليمة وهو في نحو العاشرة من عمره.

- الذي يحيرني، لماذا ظلت صفاء بدون زواج على الرغم من هذا المال وهذا الجمال؟!

- لسببين. السبب الأول أنها أصيبت بصدمة عصبية عنيفة عقب وفاة ابنها والسبب الثاني.. أنها كانت تعلم أن حياتها لن تمتد لأكثر من عامين أو ثلاثة على الأكثر!

- لماذا؟!

- كانت مريضة بالسرطان. لم يكن هناك أمل في علاجها بعد أن انتشر في جسمها. لقد طلب يدها بعد وفاة زوجها عدد كبير من علية القوم، ولكنها رفضت فكرة الزواج. لم تشأ أن تتزوج لتموت بعد عام أو عامين وآثرت أن تعيش وحيدة.. معذبة.

- وكيف مات ابنها؟

- هي التي قتلته!

صاح رمزي:

- هي التي قتلته؟! مستحيل!

- كانت فيما مضى يحلو لها أن تقود سيارتها بنفسها، وكان من عادتها أن تدخل الجراج بمؤخرة السيارة لتكون مقدمتها نحو الباب. وفي أحد الأيام كان ابنها واقفًا بجوار الجدار الخلفي للجراج دون أن تنتبه لذلك. وحين ترجع بالسيارة إلى الخلف سمعت صرخة. كانت صرخة ابنها. وعندما أسرعت نحو مصدر الصرخة وجدته جثة هامدة محشورة بين السيارة وحائط الجراج. فأصيبت بلوثة قضت بسببها عامين في مستشفى للأمراض العقلية. كانت تعتقد أن ابنها خرج من المنزل ولم يعد. فكانت ترسل من يبحث عنه في كل مكان على أمل أن تجده! فكانوا يتظاهرون بالبحث عنه لإرضائها، وعندما كانوا يعودون إليها بدونه تنتابها حالة هستيريا وصراخ. ونشرت في الصحف صورته على أنه تائه، وطلبت البحث عنه مقابل مبالغ هائلة من المال.

وعندما يئست من العثور عليه انطوت على نفسها تبكيه ليلًا ونهارًا.

وعندما خرجت من مستشفى الأمراض العقلية زهدت في الحياة واحتقرت المال، لأن المال كما كانت تقول، عجز عن إرجاع ابنها إليها.

كان ابنها رقيقًا، ينظم الشعر ويعزف على الجيتار. لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره عندما مات. كانت تقول لي في فخر إن ابنها سيصبح موسيقيًّا عظيمًا. وعندما رأتك لأول مرة في حفل أضواء المدينة، طلبتني بالتليفون لتقول لي والفرحة تملأ قلبها:

- لقد عثرت على ابني!

كانت ملامح وجه ابنها تشبه ملامحك إلى حد بعيد. كانت تشعر كأنك ابنها الذي عاد إليها.

- أكانت تعتقد أنني ابنها فعلًا؟

- كلا. لقد شفيت وأدركت حقيقة ما حدث لابنها، ولكن ملامح وجهك الشديدة الشبه بملامح ابنها هزتها هزة عنيفة.

21

انتهت إجراءات تشييع جثمان صفاء إلى مقره الأخير. ووقف رمزي على حافة المقبرة ينظر إلى ذلك الجسد الملفوف بالحرير وهو يهبط إلى الحفرة المظلمة في باطن الأرض.

شعر في هذه اللحظة شعورًا قويًّا بأن كل ما في الحياة عبث، وأن الموت ليس النهاية بل البداية، فالحياة تشبه المقدمة الموسيقية القصيرة التي تسبق الأغنية، أما الموت فهو الأغنية الطويلة التي لا نهاية لها. شعر كأن روح صفاء تحوم فوقهم في هذا المكان وتنظر إلى الأحياء نظرة رثاء. ثم نظر إلى المشيعين، وتصور أن كل واحد منهم سيلاقي نفس المصير في يوم من الأيام. إنهم موتى يشيعون موتى! فشعر بعطف شديد على جميع البشر.

22

بعد تنفيذ وصية صفاء أصبح رمزي مالكًا لقصرها بشارع مظهر بالزمالك، كما أصبح مالكًا لعدد من العمارات وأحد مصانع النسيج وآلاف الجنيهات. ولقد نصت الوصية على ضرورة احتفاظه بجميع خدم المنزل، إذا أرادوا البقاء، وأن يصرف لهم مرتبات عالية حددتها وأن يحسن معاملتهم.

ظل رمزي مترددًا في الانتقال إلى ذلك القصر مفضلًا البقاء في شقته المجاورة لشقة إلهام، ولكن لكي لا يترك الخدم يعيشون في ذلك القصر بمفردهم، قرر الانتقال إليه.

وفي حفل عائلي بسيط تم عقد قرانه على إلهام وانتقلا معًا إلى قصر صفاء. وعندما دخل القصر في هذه المرة شعر باكتئاب. كان الوجوم يخيم على وجه زعفرانة، أما باقي الخدم فكانت وجوههم خالية من أي تعبير.

أخذ رمزي يتجول في القصر، وقفزت إلى ذهنه ذكريات لقائه مع صفاء، واكتشف بالقصر حجرات كثيرة لم يكن قد رآها من قبل، ومن بينها غرفة جدرانها وردية اللون، معلق على أحد جدرانها صورة كبيرة الحجم لطفل استنتج رمزي أنها صورة الابن الوحيد لصفاء الذي فقدته ودهش للتشابه الواضح بين ملامحه هو وملامح هذا الطفل. أي إنسان يراها قد يعتقد أنها صورة رمزي عندما كان في هذه السن!

وفي أحد أركان الغرفة رأى الجيتار الذي كان يعزف عليه ذلك الابن، شعر في هذه اللحظة بالألم يعتصر قلبه عندما تصور أن صفاء كانت تعيش في هذا القصر ترزح تحت أعباء ذكرياتها الحزينة.

أصبح القصر في نظر رمزي مع مرور الأيام شيئًا عاديًّا. لم يعد يشعر بروعته وجماله كما شعر بذلك عندما دخله لأول مرة. وفي إحدى الليالي استيقظ في الساعة الرابعة صباحًا على أثر حلم عجيب! رأى نفسه في منزل جميل على قمة جبل تكسوه الأشجار يشرف على بحيرة رائعة الجمال. وبينما يطل من إحدى النوافذ ليمتع نظره بالمنظر الساحر الخلاب إذا به يسمع صراخًا لعدد كبير من البشر لا يراهم.

أخذ هذا الصراخ يعلو شيئًا فشيئًا حتى أصبح يصم الآذان. ومن خلال الصراخ المدوي رنت في أذن رمزي كلمة «البركان». واكتشف أن ذلك المنزل الجميل الذي هو فيه يقع فوق قمة بركان، وهذا البركان قد بدأ يثور ويلقي بحممه. فانطلق يعدو والحمم تلاحقه. ثم رأى المنزل وقد نسفه البركان وتناثرت أجزاؤه في كل مكان. وفي الصباح قص هذا الحلم على زوجته إلهام فابتسمت وقالت:

- أضغاث أحلام.

23

مضت تسعة أعوام منذ وفاة صفاء، في أثنائها اضطلع رمزي ببطولة ستة عشر فيلمًا سينمائيًّا اشتركت إلهام معه في بطولة سبعة منها، فشعر كأن صنبورًا يصب في بيته ذهبًا بدلًا من الماء. كانت الأموال تتدفق عليه وأصبح اسمه على كل لسان. وفكر في إنشاء شركة لإنتاج الأفلام. فاختار شقة في عمارة فاخرة في وسط القاهرة، أثثها أثاثًا أنيقًا لتكون مقر الشركة. ولم يقتصر نشاطه على الأفلام التي ينتجها بل كان يقوم ببطولة أفلام لشركات أخرى.

وفي أحد الأيام، بعد تلك الأعوام الطويلة، وهو في قمة مجده، حين كان جالسًا أمام مكتبه بمقر الشركة دخل عليه أحد كبار المنتجين في الحقل السينمائي وقدم له عقدًا لبطولة أحد الأفلام. قرأ رمزي العقد ثم التفت إلى المنتج وقال:

- آسف. لا يمكنني إمضاء هذا العقد!

فظهرت الدهشة على وجه المنتج وقال:

- هل ترفض يا أستاذ رمزي عقدًا بمبلغ عشرة آلاف جنيه للفيلم الواحد؟

- أحد بنود العقد ينص على احتكار مجهودي لمدة خمس سنوات، وأنا لا أحب أن يحتكرني أحد. أريد أن أظل حرًّا. لا أقبل أن أبيع نفسي لمدة خمس سنوات مهما يكن الثمن.

- هل هذا هو قرارك النهائي؟

- أجل.

وانصرف المنتج حزينًا. وفي هذه اللحظة دق جرس التليفون فالتقط رمزي السماعة:

- ألو.

فسمع صوت زوجته إلهام تقول:

- أرجو ألا تنسى نفسك كالعادة. أنا في انتظار حضورك إلى المنزل مبكرًا اليوم. لقد دعوت بعض الأصدقاء في هذه المناسبة السعيدة.

- مناسبة سعيدة؟ أي مناسبة سعيدة هذه؟

- دائمًا تنسى. أنسيت أن اليوم هو عيد ميلادك؟

- لا تقلقي. سأحاول الحضور مبكرًا.

وما كاد يضع سماعة التليفون حتى دخلت السكرتيرة تقول:

- بالبهو رجل يريد مقابلتك.

- من هو؟

- لم يشأ أن يذكر اسمه.

- وماذا يريد؟

- لست أدري. ولكنه مصمم على مقابلتك.

- فليدخل.

دخل رجل في نحو الستين من عمره. نحيل، ذو لحية بيضاء تبرز من ذقنه قال له رمزي:

- تفضل. تفضل اجلس.

جلس الرجل مطرقًا للأرض يداعب لحيته، ثم نظر إلى رمزي وقال:

- هل تذكرني يا أستاذ رمزي؟

حاول رمزي أن يتذكره فلم تسعفه ذاكرته، فقال للرجل:

- الواقع أنني لا أتذكر أنني تشرفت برؤيتك قبل هذه اللحظة.

ابتسم الرجل ابتسامة باهتة وقال:

- قد تكون الأيام قد غيرت ملامحي بعض الشيء. وهذه اللحية لم تكن موجودة عندما تقابلنا منذ سنوات، هل تذكرتني الآن؟

قال رمزي وقد بدأ صبره ينفد:

- يؤسفني أنني لا أتذكر أنني رأيتك قبل هذه اللحظة. وعلى أية حال ماذا تريد؟

قال الرجل ناظرًا إلى رمزي بطرف عينه وعلى فمه ابتسامة:

- حاول أن تتذكرني يا أستاذ رمزي. انظر إليّ جيدًا. ارجع بذاكرتك عدة أعوام فقد تتذكر أننا تقابلنا في يوم من الأيام في حجرة حقيرة على سطح منزل، وكان يسكن بجوارك ذكر بط في ذلك اليوم تمت بيننا صفقة بيع وشراء. كيف لا تذكرني يا أستاذ رمزي عبد الحميد ولي أملاك عندك؟! أنسيتني بهذه السرعة؟ هل أنستك الشهرة وأنساك المجد الشخص الذي كان السبب في كل هذه الشهرة وكل ذلك المجد؟ الرجل الذي اشترى رأسك بألفي جنيه!

أضاءت ذاكرة رمزي فقال:

- نعم نعم. تذكرت، أهلًا وسهلًا، سلامات. وحشتني.

وضغط رمزي على زر الجرس فدخل فراش أمره رمزي قائلًا:

- عصير ليمون للبك.

- لا داعي. لقد قامت سكرتيرتك الجميلة بالواجب وأحضرت لي عصير الليمون. أنا سعيد لأنك تذكرتني، مع أنك طوال هذه السنين كنت في ذاكرتي. لم أنسك لحظة واحدة.

- وأين كنت طوال هذه السنين؟

- كنت مشغولًا بتتبع أخبارك. كل حركة من حركاتك وسكناتك كنت على علم بها. كل قرش دخل جيبك أو لمسته يدك أو أضيف لحسابك في البنك كنت على علم به. كنت أراقبك مراقبة دقيقة أرأيت مبلغ إعزازي لك؟!

- مراقبتي؟ ألم يكن لديك ما يشغلك طوال هذه السنين سوى مراقبتي وإحصاء ما أحصل عليه من مال؟!

- وهل يوجد في الدنيا ما هو أمتع من ذلك؟! إنه عمل شاق. ولكنه لذيذ. أليس كذلك؟!

- ولكن لماذا أرهقت نفسك بمراقبتي تلك المراقبة الشديدة؟!

- من الطبيعي أن يهتم الإنسان بإيراد أملاكه.

- أنا لا أفهم شيئًا. وما علاقة مراقبتك لي بإيراد أملاكك؟

- لا تفهم شيئًا؟! إنها كارثة لو كنت لم تفهم ما أرمي إليه. رجل في مثل ذكائك لا بد أن يفهم هذا الكلام الواضح.

قال رمزي وقد احتقن وجهه غضبًا:

- ماذا تريد أن تقول؟ تكلم بصراحة بلا لف ولا دوران.

قال الرجل بهدوء مثير للأعصاب:

- يا أستاذ.. يا فنان.. يا عظيم.. يا من تملأ صورك وأخبارك جميع الصحف والمجلات. يا من أصبح اسمه على كل لسان. يا معبود الجماهير.. أنت تعلم جيدًا أنني في يوم من الأيام رأيتك وأنت واقف على كرسي حقير في غرفة حقيرة فوق سطح منزل. كنت ممسكًا بحبل مدلى من سقف الغرفة وقد وضعت رأسك هذا داخل عروة الحبل لتضع حدًّا لحياتك التعسة.. كنت في هذه اللحظة بائسًا ويائسًا من الحياة لا تملك قوت يومك. وكنت تعتقد أنك إنسان فاشل لا تصلح لأي شيء. ولكنني كان لي رأي آخر دفعني لشراء رأسك هذا. وسجلنا البيع والشراء تسجيلًا رسميًّا. وسلمتك مبلغ ألفي جنيه ثمنًا لرأسك الذي أصبح ملكي بموجب العقد الرسمي المسجل في مكتب الحكومة. وكنت أنت سعيدًا مغتبطًا بهذه الصفقة. ثروة لم تكن تحلم بها هبطت عليك من السماء في لحظة يأس. ثم افترقنا وذهب كل منا في طريقه. وبررت بوعدي فلم أزعجك برؤية وجهي طوال هذه المدة. أليس كذلك؟ لقد صحت فراستي. كنت أتوسم فيك العبقرية. هل تذكر عندما قلت لك في ذلك اليوم إنني تاجر وإنني لم أعقد في حياتي صفقة خاسرة؟

وضحك الرجل الغريب ضحكة طويلة مدوية. بدأ رمزي يشعر بدوار خفيف ولكنه تمالك نفسه وقال للرجل:

- ماذا تعني بقولك إنك لم تخسر في حياتك؟ ما علاقة ذلك بي؟ إذا كنت تريد استرداد الألفي جنيه التي أعطيتها لي في ذلك اليوم فلا مانع لديّ. أنا على استعداد لأن أكتب لك في هذه اللحظة شيكًا بهذا المبلغ ونفسخ ذلك العقد الذي بيننا.

- ألفا جنيه؟! ألفا جنيه يا حضرة الفنان العظيم؟!

- وماذا تريد إذن؟

في هذه اللحظة دخلت السكرتيرة تخبر رمزي أن أحد الصحفيين يرغب في إجراء حديث معه لنشره في الصحيفة، فرد عليها رمزي قائلًا:

- أنا متأسف. قولي له إنني مشغول الآن بأمر هام، وليتفضل بالحضور في وقت آخر.

ثم التفت إلى الرجل وقال:

- ماذا كنت أقول؟ آه.. أود أن أعرف ماذا تريد مني بالضبط.

فوضع الرجل الغريب ساقًا على ساق ونظر إلى رمزي بطرف عينه مبتسمًا تلك الابتسامة الخبيثة وقال:

- الأمر الذي حضرت من أجله غاية في البساطة ولا يستحق كل هذا الحوار ويتلخص في الآتي:

أنا أمتلك رأسك هذا الذي فوق كتفيك. أمتلكه منذ أعوام طويلة. منذ لحظة إمضاء عقد بيعه لي. والرأس كما تعرف، وأنت سيد العارفين، يوجد بداخله المخ. والمخ هو مركز كل تفكير وكل إدراك. هل يمكن لأي إنسان أن يفكر في شيء أو يدرك أي شيء بدون المخ؟

- كلا طبعًا.

- إذن فنحن متفقان.

- متفقان على ماذا؟

- متفقان على أن رأسك ما دام قد أصبح ملكي، منذ ذلك التاريخ، فأنا بطبيعة الحال صاحب الحق الوحيد في الحصول على إيراده!

- وما هو هذا الإيراد يا ترى؟

- إيراد رأسك، الذي هو ملكي، هذا الإيراد عبارة عن جميع الأموال التي حصلت عليها عن طريق استخدامك لمخك أو أي شيء آخر من محتويات الرأس طوال هذه المدة، من يوم إمضاء عقد بيع الرأس حتى هذه اللحظة، وهذا الإيراد يعتبر دفعة أولى تليها بطبيعة الحال دفعات ودفعات طالما أنت على قيد الحياة. أليس كذلك؟!

قال رمزي وهو يحاول أن يكبح جماح غضبه:

- قل لي، ما الذي تريد أن تصل إليه؟!

قال الرجل بانفعال وقد بدأ يفقد سيطرته على أعصابه:

- لقد شرحت لك بوضوح تام الشيء الذي أود أن أصل إليه. لقد جئت لآخذ إيراد أملاكي. كل قرش حصلت عليه طوال هذه المدة أنا صاحب الحق فيه. إذا لم يكن لك هذا الرأس الذي هو ملكي، لما أمكنك الحصول على مليم واحد. أليس هذا واضحًا؟!

- ألم تأخذ في الاعتبار تعبي وشقائي ومجهودي ومعاناتي طوال هذه السنين؟ وموهبتي أليس لها أي ثمن؟ هذا شيء غير معقول طبعًا. لقد تعبت وعانيت وسهرت وعملت طوال هذه السنين.

قال الرجل وقد استعاد هدوءه:

- لم يحدث بيننا أي اتفاق بشأن هذه الأشياء التي ذكرتها. الشيء الذي اتفقنا عليه هو أن رأسك أصبح ملكي. ونتيجة لهذه الملكية يصبح كل ما يدره هذا الرأس من مال ملكًا لي ومن حقي أنا وحدي!

قال رمزي محاولًا أن يكون هادئًا:

- أنا لم أفكر في الموضوع بهذه الطريقة.

- وماذا كنت تظن؟ هل كنت معتقدًا أنني أعطيتك الألفي جنيه بدون مقابل؟ أحسبتني معتوهًا أبعثر أموالي وألقي بها على الأرض؟! لو لم أعطك هذه النقود لكنت في عداد الأموات منذ سنوات عديدة. لقد أنقذت حياتك ومنحتك فرصة المجد والشهرة التي تنعم بها الآن. ألا تعترف بذلك؟!

- لقد منحتني المال ولكنك لم تمنحني الموهبة. الموهبة من عند الله.

- ومن الذي اكتشف موهبتك؟ أنت نفسك لم تكن مدركًا لها ولا معترفًا بوجودها. كنت تعتقد أنك إنسان فاشل لا تصلح لأي شيء ولا تمتلك أية موهبة من أي نوع. لولا نقودي لماتت موهبتك ودفنت معك منذ أمد بعيد.

شعر رمزى بضغط على أعصابه. كل ما كان ينقصني مبلغ ألفي جنيه لأصبح إنسانًا وفنانًا. لو كنت أمتلك ذلك المبلغ في ذلك الوقت لما وجدت نفسي في هذا الموقف. هذا الرجل يطالبني الآن بضريبة أفدح من أي ضريبة. ضريبة الفقر! ثم قال محدثًا الرجل الغريب:

- كيف ترفض أن تأخذ في الاعتبار المجهود الشاق الذي بذلته طوال هذه السنين؟ كان من الممكن أن آخذ منك الألفي جنيه وأنفقها على الملاذ والشهوات بلا ثمرة.

- كل هذا الكلام لا فائدة منه الآن. أنا أريد إيراد أملاكي!

- كما قلت لك، أنا على استعداد لأن أرد إليك نقودك التي أخذتها منك. بل أردها مضاعفة، ما رأيك لو أعطيتك عشرة آلاف جنيه بدلًا من ألفين؟

- عشرة آلاف جنيه؟! ولا عشرة أمثالها يا أستاذ. أنا أعرف إيرادي بالقرش ولا أتنازل عن مليم واحد من إيرادي. أنا على علم بكل شيء، بما في ذلك الأموال التي أغدقتها عليك السيدة صفاء والتي تضمنتها وصيتها. أنا لي الحق في هذه اللحظة في أكثر من مليون جنيه، الحساب مثبت عندي بالقرش والمليم. هذا هو إيرادك الصافي حتى الآن بعد استبعاد الضرائب.

- وكيف عرفت ثروتي؟

- لي أعوان كثيرون في كل مكان. في البنوك وفي مصلحة الضرائب وفي أماكن كثيرة أخرى لا تخطر لك على بال.

- هل من أعوانك رجل مجروح الجبهة؟

- أجل. وكثيرون غيره.

- وما علاقة رأسي بالأموال التي منحتها لي السيدة صفاء؟

- لو لم تصبح فنانًا لما سنحت لصفاء فرصة رؤيتك. لقد رأتك وعرفتك لأنك أصبحت فنانًا. وعندما كتبت وصيتها ذكرت فيها أنها أوصت لك بكل هذه الثروة «تقديرًا لفنك». ورأسك هو الذي أتاح لك فرصة الفن. وبناء على ذلك، فرأسك أيضًا هو الذي أتاح لك فرصة الحصول على ثروة صفاء شاكر. أليس كذلك؟

قال رمزي متهكمًا:

- وماذا تريد مني أيضًا؟

- السيدة حرمكم.. إلهام!

فانتفض رمزي وقال:

- ماذا! ما لها زوجتي؟ هل اشتريت رأسها هي أيضًا؟

- كلا. لم أشتر رأسها. ولكن السيدة حرمكم تقع أيضًا في نطاق أملاكي!

- شيء جميل. وكيف تفسر لي هذا أيضًا؟!

- ألم تتزوجها عن حب؟ لقد استخدمت مخك عندما أحببتها وعندما فكرت في الزواج منها. أليس كذلك؟!

- الحب بالقلب وليس بالمخ وأنت لم تشتر قلبي!

قال الرجل الغريب بحماس وانفعال:

- من قال هذا؟ من قال إن الحب بالقلب؟ هذا كلام أغان كالأغاني التي تغنيها يا أستاذ، ولكن من الوجهة العلمية الحب مصدره المخ. كل العواطف والانفعالات مصدرها المخ. القلب ما هو إلا مضخة تدفع الدم للدوران في اتجاه الجسم، ولا تنس أن المخ أيضًا هو المسيطر على حركات القلب.

قال رمزي وقد نفد صبره:

- اسمع. لقد أطلت بالي عليك أكثر من اللازم. إن لم تخرج من هنا فورًا فسأتصل بالشرطة وأطلب منهم أن يلقوا بك في مستشفى للأمراض العقلية. أنت رجل مخبول معتوه، وأضعت وقتي الثمين سدى.. أغرب عن وجهي!

قام الرجل وقال في هدوء:

- أنا مجنون؟ أنا معتوه؟ كلا يا أستاذ رمزي، لست مجنونًا ولا معتوهًا. أنا صاحب حق. وبيني وبينك القضاء.. المحكمة.

صاح رمزي في ذعر:

- المحكمة؟!

قال الرجل وهو يغادر الغرفة:

- أجل. إلى اللقاء في ساحة العدالة!

24

عندما وصل رمزي إلى منزله في ذلك اليوم كانت زوجته إلهام منهمكة في إعداد حفل عيد ميلاده كما اعتادت أن تفعل كل عام منذ تزوجته. لم يكن قد حضر أحد من المدعوين وعندما رأت إلهام زوجها فزعت لمنظره. بدا وكأن عشر سنوات قد أضيفت إلى عمره. كان مطرقًا للأرض مكتئبًا على غير عادته، فأسرعت إليه تسأله:

- ما لك يا حبيبي؟ ماذا حدث؟!

لزم رمزي الصمت وظل مطرقًا للأرض. لم يشأ أن يذكر لها شيئًا عن لقائه مع ذلك الرجل الغريب الذي اشترى رأسه. قال بعد فترة تفكير:

- كنت أحب أن نبقى بمفردنا هذا المساء. لم يكن هناك ما يدعو لإقامة حفل عيد ميلادي فلست طفلًا صغيرًا.

اغرورقت عينا إلهام بالدموع وقالت:

- ولماذا لم تخبرني برغبتك هذه؟ إنني أحاول الترفيه عنك وإشاعة البهجة في حياتك على قدر طاقتي.

قال رمزي وقد أدرك أنه جرح شعور زوجته:

- أنا آسف. اعذريني. لست في حالة طبيعية. لقد حدث اليوم شيء جعل الدم يغلي في رأسي.

قالت إلهام وقد شحب وجهها:

- ماذا حدث؟!

فقص عليها رمزي قصة ذلك الرجل الغريب، وكيف اشترى رأسه ومطالبته له الآن بكل ما جمع من ثروة طوال حياته.

ضحكت إلهام وقالت:

- كيف تسمح لرجل مجنون كهذا أن يعكر عليك صفو حياتك؟! هل من المعقول أن يصدق أحد مثل هذا الكلام الفارغ؟! من ذا الذي يجرؤ على جرح شعور فنان من أعظم فناني الدولة؟! إن كلمة واحدة منك كفيلة بإلقاء هذا المعتوه في مستشفى الأمراض العقلية.

في هذه اللحظة دق جرس الباب، فأسرعت زعفرانة لفتحه. قالت إلهام: ها هم المدعوون قد بدأوا يحضرون. انس الآن كل شيء عن هذا الحدث التافه وهيا لاستقبالهم.

كان أول من حضر المطرب عبد الحميد سالم، فاستقبله رمزي ورحبت به إلهام. وتوالى المدعوون نساء ورجالًا حتى امتلأ بهم البهو. كان منهم المطربون والمطربات والصحفيون والأطباء والمحامون والفنانون والفنانات من أصدقاء رمزي وزوجته.

حاول رمزي طوال الحفل أن يبدو مرحًا سعيدًا باذلًا في سبيل ذلك جهدًا كبيرًا. وغنى بعض المطربين والمطربات أحدث أغانيهم، ولكن رمزي ظل شارد الذهن لا يكاد يسمع أو يرى شيئًا مما

يدور حوله، ما زال يرن في أذنه حديث ذلك الرجل الغريب، ويخشى تسرب هذه الأنباء إلى الصحف.

ستكون فضيحة كبرى. ماذا سيقول الناس عندما يعلمون أن نجمهم المتألق يعيش برأس مستعار سبق أن باعه في لحظة يأس وبؤس وعوز وقبض ثمنه؟! ماذا سيحدث عندما تثار القضية في المحكمة وتتحدث عنها الصحف؟ ثم الأدهى والأمر أن المحكمة قد تأخذ بوجهة نظر الرجل الغريب وتحكم له بتسلم جميع الأموال التي حصلت عليها طوال هذه المدة، ففي يد الرجل عقد صريح يثبت ملكيته لرأسي!

كانت هذه الأفكار تعربد في رأس رمزي طوال الحفل ويرزح تحت وطأتها وكأنها صخرة تجثم على صدره، فلم يستطع الصبر عليها وشعر برغبة ملحة في التنفيس عن نفسه والإفضاء بهواجسه وأحزانه لأحد أصدقائه الأوفياء.

كان من بين المدعوين في ذلك الحفل الأستاذ عبد العظيم فرحات المحامي الذائع الصيت، وهو من أعز أصدقاء رمزي. أراد أن يستأنس برأيه في هذه القضية العجيبة، فاختلى به في الحديقة الخلفية للمنزل بعيدًا عن المدعوين وقص عليه قصته بجميع تفاصيلها. لم يصدق المحامي ما سمعه من رمزي إذ لم يتصور أن مثل هذا من الممكن أن يحدث، اعتقد أنها دعابة من رمزي لاختبار مدى كفاءته في الدفاع عن قضية خيالية معقدة لا تخطر على بال الشيطان، ولكن رمزي أقسم له أن كل ما خرج من بين شفتيه حقيقة لا زيف فيها ولا مبالغة!

أطرق المحامي للأرض مفكرًا، ثم قال:

- إذا كان الأمر كذلك، فإنني أعتقد أنك تمر بمحنة قاسية. إن هذا الرجل لن يسكت، ففي يده عقد رسمي يثبت ملكيته لرأسك، ويخيل إليّ أنه سيرفع الأمر للقضاء ويطالب بجميع ثروتك!

شحب وجه رمزي وأسرعت دقات قلبه وقال:

- وهل تعتقد أن المحكمة ستحكم له؟

- هذا يتوقف على طريقة عرض القضية وعلى وجهة نظر القضاة، فهذا شيء لم يحدث له مثيل من قبل. وعلى أية حال أنا مستعد للدفاع عنك في هذه القضية إذا احتاج الأمر لذلك.

ومن خلال النافذة المطلة على الحديقة رأى رمزي إحدى الراقصات ترقص والمدعوين يصفقون تصفيقًا إيقاعيًّا مع الموسيقى التي تعزف للراقصة. كانت السعادة بادية على وجوه المدعوين. شعر رمزي في هذه اللحظة وكأنه يشاهد من خلال النافذة فيلمًا سينمائيًّا لا يمت له بصلة. كان هو الإنسان الوحيد الحزين في حفل عيد ميلاده!

صح ما توقعه المحامي. لقد رفع الرجل الغريب الأمر للقضاء. ففي صباح أحد الأيام صحا رمزي من نومه في نحو التاسعة صباحًا وجلس مع زوجته يتناولان طعام الإفطار في غرفة المائدة الفاخرة. وفي أثناء ذلك دخلت زعفرانة وفي يدها ورقة سلمتها لرمزي قائلة:

- ساعي البريد يريد إمضاء سعادتك على هذه الورقة.

اختطف رمزي الورقة وقرأها فعلم أن ساعي البريد يحمل خطابًا مسجلًا، فوقع بإمضائه على الورقة وأخذتها زعفرانة وعادت ومعها الخطاب المسجل.

فض رمزي ظرف الخطاب بلهفة وعصبية فإذا به من محامي خصمه، وقد حدد موعد جلسة في المحكمة لنظر القضية!

شعر بدوار. فقام وغادر غرفة المائدة وهو يترنح وهرولت خلفه إلهام تسأله في لهفة:

- ما لك يا حبيبي؟ ماذا في هذا الخطاب؟

- حدث ما كنت أخشاه؟ لقد وصلت المسألة للمحكمة.

صاحت إلهام في فزع:

- المحكمة؟ لم أكن أتصور أن المسألة تصل إلى هذا الحد!

لزم رمزي الصمت وأطرق للأرض ممسكًا رأسه بين يديه وكأنه يتمسك به ويخشى أن يختطفه منه ذلك الرجل. فجلست إلهام بجواره وطوقته بذراعها وقالت:

- لا تحزن لن ينالك أي ضرر. إنه رجل معتوه لن يجد من يصغي لهذيانه بل ستحكم المحكمة بعقابه. لا بد أن تطالبه بتعويض كبير لما سببه لك من إزعاج.

لم يتكلم رمزي واتجه نحو آلة التليفون وأدار رقم صديقه المحامي، وأخبره بالأمر فرد عليه المحامي قائلًا:

- لا تجزع ولا تخف. سأترافع في هذه القضية وسنكسبها. منذ حدثتني عن هذا الموضوع وأنا دائم التفكير فيه. ولديّ أقوال كثيرة سأقولها للمحكمة. فلا تشغل بالك واترك الأمر لي.

كان يومًا من أيام يناير عندما انعقدت المحكمة للنظر في هذه القضية. السماء ملبدة بالغيوم والمطر ينهمر بلا انقطاع. وصدرت الصحف في صباح ذلك اليوم تتحدث عن القضية.

وقف أمام باب المحكمة عدد كبير من رجال الشرطة يحاولون منع فئات البشر من اقتحام قاعة المحكمة التي امتلأت بالجماهير. وفي داخل القاعة وقف عدد من مصوري الصحف مستعدين لالتقاط الصور، وكان الصحفيون متأهبين لتدوين ما يدور في هذه الجلسة.

لم تحتمل أعصاب إلهام حضور الجلسة، فبقيت في المنزل واختلت بنفسها في إحدى الحجرات وجلست تبكي.

وعندما وصل رمزي في سيارته الفاخرة وجد صعوبة في شق طريقه نحو باب المحكمة، وتعالت الهتافات من عشرات الحناجر تتمنى لرمزي التوفيق والانتصار.

وعندما دخل القاعة اتجهت نحوه جميع العيون واشرأبت الأعناق لرؤيته وارتفعت ضجة تكاد تصم الآذان. صاح الحاجب قائلًا:

- محكمة.

ساد السكون ودخل ثلاثة قضاة، فوقف الجميع احترامًا لهيئة المحكمة وجلس القضاة في أماكنهم أمام المنصة وبجوارهم كاتب الجلسة، فجلست الجماهير وجلس رمزي وبجواره محاميه.

كان وجه رمزي شاحبًا وعيناه زائغتين، أما محاميه فكان منهمكًا في قراءة بعض الأوراق. في هذه اللحظة لمعت ومضات البرق، ثم سمع هدير الرعد، كما لمعت داخل القاعدة أضواء أدوات التصوير تلتقط الصور.

قال رئيس المحكمة للحاجب:

- ناد على المدعي.

فصاح الحاجب قائلًا:

- جابر العجباني.

فوقف الرجل الغريب بلحيته المدببة (السكسوكة) وجسمه الأعجف وتقدم نحو منصة القضاء.

قال له رئيس المحكمة:

- أنت جابر العجباني؟

- أي نعم يا فندم.

- أنت تدعي أن صفقة تمت بينك وبين المدعى عليه رمزي عبد الحميد. صفقة بيع وشراء سجلت في إدارة الشهر العقاري، والشيء المباع كان رأس المدعى عليه، وأن ملكية رأسه قد انتقلت إليك عند إمضاء العقد، وسمحت له بالاحتفاظ برأسه مدى حياته على سبيل الإعارة وذلك في مقابل ألفين من الجنيهات تسلمها منك بشيك رقم 15643. وبناء على ذلك تطالب المدعى عليه بمبلغ مليون وعشرة آلاف وأربعمائة جنيه وثلاثين مليمًا، هي مجموع إيراده الصافي طوال هذه المدة على أساس أن كل ما حصل عليه من مال مرجعه إلى المخ والحواس التي يشتمل عليها رأس المدعى عليه.

قال الرجل الغريب:

- هذا صحيح يا سعادة الرئيس.

قال رئيس المحكمة موجهًا حديثه للحاجب:

- اطلب المدعى عليه.

فصاح الحاجب بأعلى صوته:

- رمزي عبد الحميد.

فقام رمزي وتقدم نحو المنصة بخطوات مضطربة، ووقف أمام هيئة المحكمة. قال له الرئيس:

- أنت رمزي عبد الحميد؟

- أجل، أنا رمزي عبد الحميد.

وتعالت الضجة في هذه اللحظة، فطرق رئيس المحكمة بضع طرقات على المنصة بمطرقة كانت أمامه فساد السكون. قال الرئيس:

- هل تنكر أقوال المدعي؟

قال رمزي:

- واقعة البيع والشراء صحيحة لا أنكرها، ولكنني أنكر استحقاقه لأي مبلغ من المال.

فتعالت الضجة من جديد وطرق الرئيس طرقات عديدة حتى ساد السكون وقال:

- محامي المدعي.

فقام رجل بدين قصير أصلع الرأس ووقف أمام المنصة قائلًا:

- أنا محامي المدعي.

قال له رئيس المحكمة:

- تفضل.

قال المحامي:

- يا حضرات القضاة، القضية المعروضة على حضراتكم اليوم قضية طريفة لم يسبق لها مثيل في تاريخ القضاء. ولكن على الرغم من غرابتها وطرافتها فهي في جوهرها ومضمونها العام لا تخرج عن كونها قضية استيلاء على أموال الغير بدون وجه حق.

فانبعثت الضجة من جديد وارتفعت بعض أصوات تقول: "غير معقول" و"ما هذا الكلام" فتجهم وجه رئيس المحكمة وطرق بمطرقته عدة طرقات على المنصة فساد السكون واستمر محامي المدعي في مرافعته قائلًا:

- لقد اشترى موكلي من المدعى عليه ذلك الرأس الذي ترونه فوق كتفيه، ودفع له في مقابل ذلك مبلغ ألفين من الجنيهات. نعم، ألفين من الجنيهات عدًّا ونقدًا، علمًا بأن رأس المدعى عليه في ذلك الوقت لم يكن يستحق مليمًا واحدًا، فلقد كان المدعى عليه وقت إتمام الصفقة إنسانًا فاشلًا يائسًا من الحياة لا يرجى منه أي خير. كان على وشك الانتحار واضعًا رأسه في عروة الحبل الذي ثبته في سقف غرفته الحقيرة، ولكن موكلي أنقذه ومنحه فرصة الحياة.

فارتفعت الضجة وترددت عبارات تحتج على كلام المحامي، وبذل رئيس المحكمة مجهودًا كبيرًا حتى تمكن من إعادة الهدوء وصاح غاضبًا:

- كل من يثر أية ضجة سيطرد فورًا من قاعة المحكمة.

واستمر محامي المدعي في مرافعته قائلًا:

- أجل يا حضرات القضاة، منحه موكلي فرصة الحياة، وأصبح رأسه منذ لحظة إمضاء العقد ملكًا لموكلي، وذلك الرأس لا يختلف عن أية أملاك تدر أرباحًا.

فلم تستطع الجماهير السيطرة على مشاعرهم وصاحوا صيحات غضب. فأمر رئيس المحكمة بإخراج بعض الأشخاص من القاعة، فأخرجهم رجال الشرطة بالقوة. واستمر المحامي في مرافعته:

- نعم، لا يختلف رأس المدعى عليه عن أية أملاك تدر أرباحًا. ولما كان لكل إنسان الحق في الاستيلاء على ما تدره أملاكه من أرباح، فمن الواضح أن موكلي هو صاحب الحق الوحيد في الاستيلاء على جميع الأموال التي دخلت في حوزة المدعى عليه عن طريق استعمال شيء لا يملكه، وهو رأسه! ولما كان الرأس هو مصدر التفكير ومركز جميع الحواس والعواطف وهو المسيطر على كل أجزاء الجسد، فبناء على ذلك تكون جميع الأموال التي امتلكها المدعى عليه عن طريق الفن أو بصفته فنانًا، قد حصل عليها عن طريق استخدام رأسه! ولذا فإنني أطالبه برد جميع هذه الأموال إلى موكلي، جابر العجباني، بصفته المالك الوحيد لرأس رمزي عبد الحميد!

ووسط الضجة التي انبعثت من أماكن عديدة بالقاعة على الرغم من طرقات رئيس المحكمة جلس محامي المدعي، وأخذ يجفف عرقه على الرغم من برودة الجو.

قال رئيس المحكمة بعد أن ساد السكون:

- محامي المدعى عليه.

فقام محامي رمزي وتقدم نحو المنصة قائلًا:

- موجود يا فندم.

قال رئيس المحكمة:

- تفضل.

بدأ محامي رمزي مرافعته:

- حضرات القضاة، ليست قضية اليوم مجرد قضية إيراد استولى عليه موكلي بدون وجه حق كما قال زميلي، ولكنها قضية الإنسان. هل من المسموح به أن يباع الإنسان ويشترى؟

إذا سلمنا بمبدأ جواز بيع الإنسان نكون قد حطمنا جميع القيم وهدمنا أسس الحضارة ورجعنا إلى الوراء، إلى عصور مظلمة، عصر الرقيق، عندما كان الإنسان يمتهن وتهدر آدميته ويباع في الأسواق كما تباع السلع والدواب.

والرأس يا حضرات القضاة عندما يباع، فماذا يبقى للإنسان؟ ما قيمة إنسان بلا رأس؟ الرأس هو ينبوع الفكر ومصدر الحياة ومركز الإبداع وموطن جميع المواهب.

وفي خلال تلك السنوات الطوال غمرنا موكلي الأستاذ الفنان رمزي عبد الحميد بفيض من روائع فنه وموسيقاه. تلك الموسيقى التي عطرت جو حياتنا وأيقظت فينا أسمى العواطف. هذا علاوة على ما تبرع به من أموال طائلة في سبيل الخير. وإني أعلن ذلك الآن لأول مرة. فلقد آثر موكلي طوال

تلك السنوات أن تظل تبرعاته سرًّا غير معلن. لقد تبرع موكلي بأكثر من مائة ألف جنيه لبناء مدرسة وبعض مساكن للفقراء من أهل بلده، وساعد عشرات من التلاميذ والطلبة لتمكينهم من إتمام دراستهم التي حرم هو منها. ومد يد العون لعدد من الفنانين المبتدئين ليجنبهم قسوة الحياة التي عانى منها.

وهنا ارتفعت الضجة في أنحاء قاعة المحكمة للتعبير عن التقدير والإعزاز لرمزي. فاستخدم رئيس المحكمة مطرقته لإعادة الهدوء، واستمر محامي رمزي في مرافعته:

- وفي كل مجتمع متحضر يا حضرات القضاة يأخذ الإنسان على قدر ما يعطي، وعلى قدر مسئولياته تجاه المجتمع واستفادة المجتمع من وجوده.

ولقد تعب موكلي كثيرًا وكافح طويلًا حتى وصل إلى ذلك المركز المرموق، العبقرية موهبة وكفاح، فأين كان المدعي طوال تلك الأعوام وماذا استفاد المجتمع من وجوده في خلال تلك المدة؟ إن ذلك المدعي عندما خطرت له تلك الفكرة الشيطانية وسولت له نفسه أن يشتري رأس إنسان في محنة، لم يكن مدفوعًا بدوافع إنسانية، بل كانت تدفعه لذلك دوافع شريرة تتسم بالأنانية وتوصم بالاستغلال في أبشع صوره، لم يهدف من وراء ذلك سوى مصلحته الشخصية، وإصراره الآن على الحصول على جميع أموال موكلي لأكبر دليل على ذلك.

لقد قبل موكلي بيع رأسه للمدعي في ساعة محنة ولحظة يأس وضعف. كان موكلي في تلك اللحظة يمثل الجانب الضعيف المغلوب على أمره، بينما كان المدعي يمثل الجانب القوي الجبار الذي يسيطر بأمواله على مصائر البشر. لقد وجدت العدالة لتحمي الضعيف من القوي.

كان موكلي في تلك اللحظة الرهيبة التي تهون فيها الحياة حيث تظلم الدنيا أمام عيني الإنسان فلا يرى سوى ظلمات فوقها ظلمات، كان في تلك اللحظة أشبه بغريق تتقاذفه في بحر الحياة أمواج عاتية، يتعلق بأي يد تمتد إليه من خلال الموج، حتى ولو كانت تلك اليد تقبض على خنجر. لقد أنقذه المدعي من الموت كما يقول لكي يطعنه اليوم، ولكي يستغله أبشع استغلال عرفه البشر. وهو يدعي أنه بإنقاذ موكلي من الانتحار يكون قد منحه فرصة الحياة! عجبًا أيها السادة، إنني أرد عليه وأقول كلا، وألف كلا.. إذ لا يمنح الحياة للإنسان سوى خالقه. فمن يدرينا، ألم يكن من الممكن أن يعدل موكلي عن الانتحار في آخر لحظة من تلقاء نفسه؟ فالإنسان قد يتغير فكره في مثل غمضة عين. وحتى لو تركه يموت فإنني واثق أن موكلي كان يفضل الموت على حياة يكد فيها ويكدح ليأخذ غيره ثمرة كفاحه!

يا حضرات القضاة، إن موكلي عندما تسلم مبلغ الألفي جنيه كان من الممكن أن ينفقها عن آخرها على الملاذ فتضيع هباء. ولكنه أنفقها في تعلم شيء لم تتح له الظروف من قبل أن يتعلمه. أنفقه في تعلم الموسيقى، وبذل في سبيل ذلك جهدًا عنيفًا يكاد يكون فوق طاقة البشر، وظل يكافح طوال هذه السنين حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن من مجد وثروة، هو وحده صاحب الحق فيها، لأنه هو صاحب المجهود الذي بذل للحصول عليها.

وإني لأتساءل الآن يا حضرات القضاة، لو أن موكلي ارتكب جريمة قتل فمن يكون المسئول عن هذه الجريمة؟ فكل جريمة مهما كان نوعها تدبر في الرأس! وما دام رأس موكلي يمتلكه المدعي كما يقول فإنني أعتقد في هذه الحالة أن المدعي سوف يكون هو المسئول عن ارتكاب تلك الجريمة!

وإنني أعلن الآن يا حضرات القضاة في ساحة العدالة أمام هيئة المحكمة الموقرة أن موكلي لو صدر الحكم في غير صالحه، وأقرت المحكمة ملكية المدعي جابر العجباني لرأس موكلي فسوف يقوم موكلي على الفور بقتل المدعي، ولن يكون موكلي، في هذه الحالة مسئولًا عن ارتكاب تلك الجريمة، لأنه لا يملك الرأس الذي دبرها ونفذها، بل سيكون المسئول عنها هو القتيل نفسه!

ارتفعت الضجة في المحكمة وترددت عبارات مثل:

"اقتله يا أستاذ رمزي وأرحنا منه" و"دعوه يقتله!". وجلس محامي رمزي بجواره والانفعال لا يزال واضحًا في ملامح وجهه.

قال رئيس المحكمة:

- الحكم بعد المداولة.

انتهت فترة المداولة وصاح الحاجب قائلًا:

- محكمة.

دخل القضاة الثلاثة واتخذوا أماكنهم أمام المنصة، واشرأبت الأعناق وأنصتت الآذان لسماع الحكم. بعد فترة قصيرة قال رئيس المحكمة:

- حكمت المحكمة برفض الدعوى، وعدم استحقاق المدعي جابر العجباني لأي قرش من أموال المدعى عليه رمزي عبد الحميد. على أن يكون للمدعي حق ملكية رأس المدعى عليه بعد وفاته، إذا رغب في ذلك. رفعت الجلسة.

ارتفعت في القاعة ضجة وترددت هتافات مثل: "تحيا المحكمة" و"يحيا العدل". وأغمي على إحدى الفتيات المعجبات برمزي من فرط الانفعال. وهجمت الجماهير على رمزي وحملوه على الأعناق هاتفين له حتى أوصلوه للسيارة.

شعر رمزي كأنه ولد من جديد في ذلك اليوم، وأنه يتنفس الهواء لأول مرة.. كان يود لو ينطلق في الفضاء بسرعة الضوء ليزف البشرى لإلهام التي كانت في ذلك الوقت تطل من النافذة في انتظاره وفي عينيها قلق. كانت لحظات الانتظار تمر عليها وكأنها أعوام، فاليوم في نظرها يعتبر فاصلًا بين الحياة والموت. وتذكرت حلم رمزي، البيت الذي نسفه البركان، فأحست بخوف واكتئاب يشبه

اكتئاب المحكوم عليه بالإعدام وهو يساق إلى المشنقة. ثم رأت سيارة رمزي قادمة. وفي مثل لمح البصر كانت قد هبطت السلم واندفعت تفتح الباب لرمزي، وقد أسرعت دقات قلبها. ولكنها شعرت بشيء من الاطمئنان عندما رأته مبتسمًا ابتسامة عريضة، فهي تعلم جيدًا أنه من النوع الذي لا يحسن إخفاء مشاعره، بل تبدو واضحة في ملامح وجهه. وقبل أن يدخل من الباب صاح:

- كسبنا القضية!

فأصيبت إلهام بحالة هستيرية جعلتها تضحك وتبكي في آن واحد. احتضنها رمزي قائلًا:

- لم أكن أتصور أن أنتصر على هذا الرجل!

وفي مساء هذا اليوم أقام رمزي في منزله حفلًا فاخرًا دعا إليه عددًا كبيرًا من الأصدقاء، وفي مقدمتهم المحامي احتفالًا بهذه المناسبة السعيدة. ظل رمزي يغني في الحفل حتى الثالثة صباحًا. وقرر أن يعتبر هذا اليوم يوم مولده الذي يحتفل به كل عام!

26

بعد نحو أسبوع استيقظت إلهام من نومها مبكرة على غير عادتها، وبينما هي تفتح نافذة غرفة النوم تستنشق عبير نسيم الصباح استرعى انتباهها شيء عجيب.

كان رمزي ما زال نائمًا فأيقظته، وطلبت منه أن يطل من النافذة ليرى ذلك المشهد الغريب الذي رأته.

كان جابر العجباني جالسًا أمام منزلهما على كرسي صغير من كراسي البحر، وقد وضع على فخذيه صندوقًا خشبيًّا.

- أليس هذا الرجل هو الذي خسر القضية، والذي رأيت صورته في جميع الصحف؟

قال رمزي مندهشًا:

- نعم، هو!

- ولماذا يجلس أمام منزلنا؟ لقد كسبنا القضية، فماذا يريد منا؟!

- لست أدري. أنا غير مطمئن لذلك الرجل. وما هذا الصندوق الذي معه؟!

- أخشى أن يكون بالصندوق قنبلة ينوي أن...

أسرع رمزي إلى التليفون بحركة عصبية وطلب شرطة النجدة وارتدى ملابسه وهبط إلى البهو في انتظار قدوم رجال الشرطة. وارتدت إلهام ملابسها على عجل، وهبطت السلم وجلست بجوار رمزي وأخذت تهز إحدى ساقيها في عصبية. وبعد فترة صمت قالت إلهام:

- لم يكن هناك ما يدعو لاستدعاء رجال الشرطة. ماذا يضيرنا لو ظل جالسًا أمام منزلنا ليلًا ونهارًا؟! فليمت بغيظه وليضرب رأسه في الحائط!

- أخشى أن يضرب هو رأسي. إنه رجل شرير. لا أظن أنه سيستسلم للهزيمة بسهولة!

بعد قليل دق جرس الباب، فأسرع رمزي وفتح الباب بنفسه. لقد حضر رجال الشرطة الذين استنجد بهم رمزي، ضابط وأربعة عساكر. ذهبوا وبصحبتهم رمزي إلى جابر العجباني. عندما رآهم جابر مقبلين عليه وقف وحياهم في احترام زائد وتأدب مبالغ فيه!

قال له الضابط:

- ما سبب جلوسك هنا أمام منزل الأستاذ رمزي؟

قال جابر مبتسمًا:

- لا يوجد نص في القانون يمنعني من الجلوس أمام منزل الأستاذ رمزي ما دمت ملتزمًا بحدود الأدب والحشمة!

قال الضابط:

- وما هذا الصندوق الذي معك؟

قال جابر:

- إنه صندوق فارغ.

أخذه الضابط وفتحه فوجده فارغًا، فقال متعجبًا:

- وما سبب جلوسك هنا ومعك هذا الصندوق الفارغ؟

- إنني أنتظر. أنتظر بفارغ الصبر.

- تنتظر ماذا؟

- أنتظر اللحظة التي يمتلئ فيها الصندوق!

قال الضابط وقد بدأ يشك في سلامة القوى العقلية لهذا الرجل:

- تنتظر اللحظة التي يمتلئ فيها الصندوق؟! ما معنى هذا الكلام؟

قال جابر والابتسامة لا تزال مرسومة على شفتيه:

- أنا في انتظار اللحظة السعيدة التي سأسترد فيها حقي المغتصب!

فظن رمزي أنه يقصد بذلك استرداد الأموال التي يدعي أنها ملكه، وأن هذا الصندوق معد لوضع هذه الأموال فيه، فاندفع قائلًا في غضب:

- ماذا تريد مني؟ لقد حكمت المحكمة لصالحي وكسبت القضية.

قال جابر في هدوء أشد إثارة من الغضب:

- لقد حكمت المحكمة بعدم استحقاقي للمال الذي دخل في حوزتك طوال هذه المدة، ولقد رضيت بحكم المحكمة. ولكن لا تنس يا أستاذ رمزي أن نفس المحكمة حكمت لي بأحقيتي في امتلاك رأسك.. بعد وفاتك!

قال رمزي محتدًّا:

- وماذا ستصنع برأسي بعد وفاتي؟!

قال الرجل جابر بهدوء:

- ليس هذا من شأنك. أنا حر في ممتلكاتي. أنت تعلم جيدًا أنني أهوى جمع رؤوس الحيوانات وتحنيطها. سأحنط رأسك وأعلقه في الغرفة التي رأيتها عندما شرفتني بزيارة منزلي. سأعلق رأسك بجوار رأس الثور. هل تذكر هذه الغرفة؟!

- ولكنني ما زلت على قيد الحياة. لم أمت بعد!

قال جابر:

- ربنا يسهل.

فاحتقن وجه رمزي من فرط الغضب وقال:

- ماذا تقصد؟

قال الرجل ولا يزال محتفظًا بهدوئه المثير:

- أقصد أن الأعمار بيد الله، والموت حق، وأينما تكون سيدركك الموت في لحظة من اللحظات، ولا بد أن أكون دائمًا على أتم استعداد. الإنسان لا يعرف اللحظة التي سيموت فيها ولا تدري نفس بأي أرض تموت!

قال رمزي ضاغطًا على أعصابه:

- ولماذا تحمل هذا الصندوق؟ وما علاقته بهذا الموضوع؟

قال الرجل:

- إنه صندوق لا يزال فارغًا كما رأيتم. ولكنني كما قلت لك، لا بد أن أكون دائمًا على أهبة الاستعداد. ففي اللحظة التي تموت فيها يا أستاذ رمزي، سأنقض عليك وأستولي على أملاكي!

قال رمزي بصوت مرتجف:

- ماذا تقصد؟!

- أقصد أنني في اللحظة التي تموت فيها بمشيئة الله تعالى، والأعمار بيد الله، سأنقض على جثتك وأجتث رأسك وأضعه هنا في هذا الصندوق. ولذا فلا بد أن يكون الصندوق معي دائمًا، إذ ليس من اللائق أن أحمل رأسك في يدي مكشوفًا في الطريق العام أمام الناس. إن للموتى حرمة يا أستاذ رمزي. وأنا رجل عندي أخلاق ولا يرضيني أن أحمل رأسًا آدميًّا بدون غطاء!

قال رمزي بدهشة وذهول:

- أتريد أن تستولي على رأسي وتضعه في هذا الصندوق؟!

أجاب الرجل في هدوء:

- بعد وفاتك. بعد عمر طويل أو قصير، الله أعلم، فرأسك ملكي، وحكمت لي المحكمة بجواز الاستيلاء عليه بعد موتك. وأنا حر التصرف فيه بعد وفاتك. هذا حكم المحكمة يا أستاذ رمزي وليس في هذا ما يغضبك. فلتعلم يا فنان يا عظيم أنني من الآن فصاعدًا سأتبعك كظلك أينما ذهبت ومعي هذا الصندوق. لن يكون لي عمل في الحياة سوى هذا، حتى إذا فاجأك الموت في أية لحظة بإذن الله، في هذه اللحظة سأهجم عليك في الحال وأستولي على أملاكي التي عندك. سأقطع رأسك وأضعه في الصندوق. وأحنطه كما قلت لك، وأعلقه على جدار غرفتي بجوار رأس الثور، سيكون رأس الثور

على يساره ورأس الخرتيت على يمينه ورأسك في الوسط بينهما. صدقني يا أستاذ رمزي، سيكون منظرًا في غاية الروعة!

قال رمزي وقد شعر بدوار:

- يبدو أنك ستنغص عليّ حياتي!

قال الرجل:

- لم يعد لي شأن بحياتك. الذي يشغلني الآن هو موتك. لقد رضيت بحكم المحكمة. لن تكون لي علاقة برأسك ما دمت حيًّا. لن أستولي عليه إلا بعد وفاتك بإذن الله، فلماذا تغضب يا أستاذ رمزي؟ هل في هذا ما يستوجب الغضب؟

ظل ضابط الشرطة صامتًا طوال هذا الحوار في حين كانت العساكر تبتسم.

التفت رمزي إلى الضابط وقال:

- هل يرضيك هذا يا حضرة الضابط؟ هل تتركونني تحت رحمة رجل معتوه يطاردني في انتظار اللحظة التي أموت فيها ليقطع رأسي ويستولي عليه لتحنيطه وتعليقه بجوار رأس الثور على جدار غرفته؟!

قال الضابط محتدًّا:

- ليس في هذا ما يزعج يا أستاذ رمزي. الرجل لم يفعل شيئًا يعاقب عليه. إنه ينفذ حكم المحكمة!

قال رمزي والدهشة تكاد تعقد لسانه:

- إنه سيحنط رأسي ويعلقه بجوار رأس الثور!

انفجرت العساكر ضاحكة، وقال الضابط بلا مبالاة:

- وهل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟!

- إنه سيذكرني بالموت ليلًا ونهارًا، أليس في هذا ما يزعج في نظرك يا حضرة الضابط؟

قال الضابط في هدوء قاتل:

- ليس في هذا أي إزعاج. كل ما في الحياة يذكرنا بالموت. ألا تقرأ أعمدة الوفيات في الصحف كل صباح؟ ألا تسمع وتقرأ عن الكوارث والحروب التي تبيد البشر بالجملة، يا أستاذ رمزي لقد أزعجت السلطات. إن لدينا ما هو أهم من ذلك. عن إذنك!

واستدار الضابط غاضبًا وبصحبته العساكر الأربعة يحملون مسدساتهم واستقلوا سيارة الشرطة وانطلقت بهم السيارة مبتعدة عن المنزل.

جلس جابر في المكان الذي كان جالسًا فيه أمام منزل رمزي فوق كرسي البحر وصندوقه فوق فخذيه وعلى فمه ابتسامة ساخرة!

واندفع رمزي إلى المنزل غاضبًا، وأغلق الباب خلفه بعنف فلم يجد إلهام في البهو، ناداها فأقبلت مسرعة من الطابق العلوي وابتدرته قائلة في دهشة:

- ماذا حدث؟! لقد شاهدت رجال الشرطة من النافذة وهم ينصرفون ويتركونك مع هذا الرجل، لماذا لم يلقوا القبض عليه؟!

فألقى رمزي بجسده فوق أحد الكراسي في حزن ويأس، وقال بسخرية:

- يلقون القبض عليه؟ لقد كانوا على وشك إلقاء القبض عليّ أنا!

لم يعد لجابر العجباني هَمّ سوى مطاردة رمزي. فهو أمام المنزل طالما كان رمزي بداخله حتى إذا غادر المنزل انطلق خلفه بسيارته ومعه الصندوق. فإذا توارى عنه رمزي داخل أي مكان كالإذاعة أو استديوهات السينما أو أي مكان آخر، ظل هذا الرجل في انتظاره حاملًا صندوقه!

وحاول رمزي أن يتعايش مع هذه المطاردة المفزعة غير عابئ بها، ولكنه كان كمن ينزلق فوق منحدر أملس فلا يستطيع التوقف مهما حاول ذلك، فأصبح دائم التفكير في الموت وفي مصير رأسه. يتراءى له في الحلم واليقظة منظر رأسه مقطوعًا ومحنطًا. معلقًا بين رأسي الثور والخرتيت على جدار غرفة ذلك الرجل الذي يطارده في انتظار لحظة موته.

ولكي يوحي لنفسه بالاستهانة بالموت، وجد رمزي نفسه مستهينًا بكل ما في الحياة. بدأ يفقد القدرة على التركيز، ولم يعد يهتم بالعمل والخلق والابتكار والإبداع.

وفي أحد الأيام سمعته إلهام يعزف على البيانو عزفًا سيئًا مضطربًا لا توافق فيه ولا انسجام، أشفقت عليه من الهاوية التي يوشك أن يتردى فيها. نظرت لساعتها فوجدت عقاربها تشير نحو الخامسة

والنصف تقريبًا. فتعجبت، كيف ينسى رمزي موعد تسجيل إحدى أغانيه في الاستديو؟ أسرعت إليه وقالت:

- رمزي.

فانتفض في فزع، وصاح في غضب:

- ماذا تريدين مني؟ أنا لا أحب أن يزعجني أحد في أثناء العزف.

- يا حبيبي لم أقصد إزعاجك. لقد أتيت لأذكرك بموعد هام.

- وما هو هذا الموعد الهام؟

- الساعة الآن الخامسة والنصف، أليس هذا موعد تسجيل الأغنية الجديدة بالاستديو؟

قال رمزي وكأنه طفل عنيد:

- لن أذهب للاستديو ولن أسجل شيئًا. اتركيني وشأني. أنا لم أعد أفكر إلا في الموت!

فزعت إلهام من هذه الأفكار السوداء التي أصبحت تسيطر عليه وقالت:

- يا حبيبي هذا غير معقول.. ماذا حدث لك؟ هل تسمح لرجل مجنون كهذا بأن يحطم حياتك ويقتل موهبتك؟ أتوسل إليك ألا تعيره أي اهتمام. إنه هو الذي يرهق نفسه بمطاردتك في كل مكان. هو الذي يشقى ويتعب. دعه يلهث خلفك حتى تتقطع أنفاسه، وأنا واثقة أنه لن يستطيع الاستمرار طويلًا في هذه المهزلة!

قال رمزي وهو شارد الذهن:

- لا أستطيع منع نفسي من التفكير في هذا الرجل. إنه ينتظر موتي في كل لحظة ليستولي على رأسي! أصبحت أشعر أن رأسي غريب عني!

طوقته إلهام بذراعها ومرت بيدها على رأسه وقبلته وقالت:

- أنت فنان عظيم ولذا فأنت شديد الحساسية. يجب أن تتجاهل هذا الرجل ولا تشعر بوجوده.

هوى رمزي بقبضة يده على مفاتيح البيانو فانبعثت نغمة حادة وكأنها صرخة وقال بانفعال:

- قلت لك إنه يذكرني بالموت بشكل مستمر.. إنه ينتظر موتي! هذا فوق احتمالي!

- يا حبيبي إن هدفه من كل ذلك هو استفزازك والتنغيص عليك وتحطيم حياتك. فإذا تجاهلته ولم تعبأ به فوتَّ عليه غرضه الخبيث.

قام رمزي في انتفاضة وعصبية وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا وحانت منه التفاتة نحو النافذة فتسمر في مكانه وصاح قائلًا:

- انظري! ها هو واقف بجوار سيارته والصندوق تحت إبطه.

قالت إلهام في محاولة لتهدئة أعصابه الثائرة:

- وماذا يضيرنا لو ظل واقفًا طوال النهار والليل؟ ولكن انظر. ها هو أحد رجال الشرطة يتحدث معه. لا بد أن الشرطة قد اقتنعت أخيرًا بضرورة القبض على ذلك المجنون.

قال رمزي وقد شعر بشيء من الارتياح:

- الحمد لله. أخيرًا تحركت الشرطة. ولكن ما هذا؟ انظري. إنهما يضحكان معًا! ليس هذا منظر شرطي جاء ليلقي القبض على مجنون! إنه يمزح معه!

قالت إلهام محاولة تفسير هذا المشهد:

- كلا. غير معقول أن يقف رجل الشرطة ويتبادل النكات مع مثل هذا الرجل. لا بد أنه يسخر منه أو يضحك لمنظره!

قال رمزي وقد عاد اليأس يستبد به:

- ليس من المعقول أن يقف رجل الشرطة ليضحك من منظر رجل ينوي إلقاء القبض عليه!

- إذن لماذا يضحك رجل الشرطة ويبدو بهذا المرح؟

وجد رمزي نفسه أمام لغز محير وقال:

- لم أعد قادرًا على التفكير. أشعر كأن يدًا تضغط على مخي. لم أعد أفهم شيئًا. إذا كان رجل الشرطة أتى لإلقاء القبض عليه، فلماذا يقف معه ضاحكًا مبتسمًا طوال هذه المدة؟

قالت إلهام بذهن شارد:

- لست أدري. فلننتظر لنرى ماذا سيحدث.

قال رمزي:

- انظري هناك سيارة أخرى غير سيارة هذا الرجل. أليست هذه سيارة الشرطة؟ هل ترينها؟ تلك التي بجوار الشجرة.

- نعم. إنها إحدى سيارات الشرطة. لقد فهمت الآن.

- فهمت ماذا؟

- يخيل إليّ أن ذلك الرجل الواقف معه ليس من رجال الشرطة. ربما يكون أحد أصدقائه أو معاونيه مرتديًا رداءً مزيفًا من أردية الشرطة. أما رجال الشرطة الحقيقيون فهم الجالسون في سيارة الشرطة هذه، ولا شك أنهم الآن يراقبونهما وسيلقون القبض عليهما!

قال رمزي وهو غير مقتنع بهذا التفسير الساذج:

- وماذا ينتظرون إذا كان في نيتهم القبض عليهما؟

- لست أدري. لقد خطرت لي الآن فكرة. نركب السيارة معًا ونذهب إلى مكان بعيدٍ. كازينو عمر الخيام مثلًا، ونرى ماذا سيحدث.

- لا مانع. هيا بنا.

جلست إلهام خلف عجلة القيادة، فلقد كان يحلو لها أن تقود السيارة بنفسها عندما تخرج مع رمزي. إذ لاحظت أن السائق كان يلذ له أن يصغي إلى كل كلمة وكل حوار يدور بينهما. وبينما السيارة تهم بالمسير لاحظ رمزي شيئًا فقال لإلهام:

- هل ترين؟

قالت إلهام وقد ضغطت على الفرملة لإيقاف السيارة:

- أرى ماذا؟

- جابر العجباني. لقد ركب في سيارة الشرطة والصندوق تحت إبطه، وركب معه عسكري الشرطة الذي كان واقفًا معه. أرأيت أن هذا العسكري لم يكن مزيفًا كما قلت وأنه عسكري حقيقي!

قالت إلهام محاولة إخفاء القلق والاضطراب الذي استولى عليها:

- لا تعرهما أي اهتمام.

وضغطت بقدمها على منظم البنزين فانطلقت السيارة، واجتازت كوبري الزمالك، ثم اتجهت إلى اليسار في شارع النيل. نظرت في مرآة السيارة فرأت سيارة الشرطة منطلقة خلف سيارتهما فأوقفت السيارة عند إحدى محطات البنزين بالقرب من ميدان الجيزة. لاحظت أن سيارة الشرطة توقفت أيضًا على بعد نحو ثلاثين مترًا من سيارتهما. طلبت إلهام ملء مستودع السيارة بالبنزين، واستأنفت السير متجهة نحو شارع الهرم، فواصلت سيارة الشرطة الانطلاق خلفهما!

في منتصف شارع الهرم تقريبًا، أدارت إلهام عجلة قيادة السيارة إلى اليمين فاتجهت في طريق جانبي بجوار إحدى الترع، فتبعتهما سيارة الشرطة. أوقفت إلهام السيارة عند كازينو عمر الخيام الذي يبدو في هذا المكان، وفي هذا الجو الريفي، وكأنه واحة مزدهرة في صحراء.

غادرت إلهام السيارة بصحبة رمزي واتجها إلى الكازينو، فلاحظا أن سيارة الشرطة توقفت. رأى رمزي منضدة خالية في ركن منعزل في الكازينو فجلس هو وإلهام حول هذه المنضدة، واكتشف الجرسون شخصيتهما فهرع إليهما، طلبا منه غداء من الدجاج المشوي الذي يشتهر به هذا الكازينو.

التفت رمزي إلى اليمين فرأى جابر العجباني جالسًا واضعًا الصندوق فوق المنضدة التي أمامه وقد جلس بجواره العسكري!

قال رمزي لإلهام بصوت مضطرب:

- انظري إلى اليمين، لقد جلسا معًا!

فأدارت إلهام رأسها إلى اليمين فرأتهما ورأت الصندوق. قالت لرمزي:

- وماذا يضيرنا؟ لا شأن لنا بهما.

- أرأيتِ الصندوق؟

- نعم رأيته. ولكن الشيء الذي يحيرني هو وجود هذا العسكري معه. يخيل إليّ أن العسكري يلازمه لحمايتك أنت. أنت فنان عظيم لك مكانتك في المجتمع، والدولة حريصة على حياتك وتخاف عليك من ذلك الرجل المجنون، فأرسلت هذا العسكري ليراقب حركات ذلك الرجل المعتوه لتمنعه من أن يلحق بك أي أذى.

- أعتقد ذلك.

وفي هذه اللحظة قام جابر العجباني واتجه نحو دورة المياه وبقي العسكري بمفرده، فرأى رمزي أن ينتهز هذه الفرصة ويذهب إلى ذلك العسكري ويسأله عن سر وجوده مع جابر.

قام واتجه نحو العسكري. وفي هذه الأثناء كان كل من في الكازينو قد اكتشفوا شخصيتي رمزي وإلهام. قالت فتاة لشاب يجلس معها:

- أليس هذا رمزي عبد الحميد؟

قال الشاب:

- نعم، إنه هو!

- وتلك زوجته إلهام!

- نعم. هي إلهام، إنها رائعة الجمال! هذه أول مرة أراها شخصيًّا في غير الأفلام.

- لم نشاهد فيلمهما الجديد مع أنه يعرض منذ ستة أسابيع. نريد أن نشاهده.

- فيلم «نريد الحياة»(*)؟ نشاهده غدًا.

- فاتن صديقتي شاهدته وقالت إنه فيلم رائع.

جلس رمزي بجوار العسكري، فتعجب الشاب وقال للفتاة:

- غريبة. لماذا ترك رمزي زوجته إلهامًا وذهب ليجلس بجوار هذا العسكري؟!

قال رمزي للعسكري:

- لا تؤاخذني، أريد أن أستفهم عن شيء يهمني.

قال العسكري:

- أهلًا وسهلًا. تفضل استفهم عن أي شيء يا أستاذ رمزي. أنا تحت أمرك.

قال رمزي:

- لقد شاهدتك مع جابر العجباني بجوار الكشك الذي أقامه بالقرب من منزلي، وأراك الآن هنا معه، ما السر في ذلك؟ عندما رأيتك معه خيل إليّ أنك جئت لإلقاء القبض عليه.

قال العسكري في دهشة وفزع:

- أنا ألقي القبض عليه؟ ولماذا؟ هل ارتكب جريمة؟!

قال رمزي:

لقد سبق لي أن اتصلت برجال الشرطة لتحميني من هذا الرجل.

قال العسكري وقد ازدادت دهشته:

- الشرطة تحميك أنت منه؟ شيء عجيب!

- وما هو وجه العجب في ذلك؟

- العجيب أنه هو الذي طلب من الشرطة أن تحميه منك فاستجابوا لطلبه على الفور وأسرعوا بإرسالي لأكون بصحبته دائمًا خوفًا عليه منك. وكلما ذهب إلى أي مكان يتحتم عليّ الذهاب معه. لقد أتعبني وأرهقني. إنها مهمة شاقة دوختني. أنا معه طوال النهار وأحد زملائي يلازمه في أثناء الليل. لا بد أن يساعدني أحد الزملاء إذ لا يمكنني أن أقوم بالمهمة وحدي ليلًا ونهارًا. الأوامر تحتم ألا نتركه بمفرده لحظة واحدة. ولكن بيني وبينك لقد وجدته رجلًا مسليًا ظريفًا. لديه معين لا ينضب من القصص والنوادر. بدأت أسعد بصحبته واكتشفت أيضًا أنه رجل كريم. لا يبخل بالمال!

قال رمزي غير مصدق لما تسمعه أذناه:

- هو الذي طلب من الشرطة أن تحميه مني؟!

قال العسكري مبتسمًا:

- إنه معذور يا أستاذ رمزي. يخشى أن تعتدي عليه أو تلحق به أي أذى.

- ولماذا أعتدي عليه؟ إنه هو الذي قد يعتدي عليّ. هل تعلم لماذا يحمل معه دائمًا هذا الصندوق؟

قال العسكري مبتسمًا:

- أعرف طبعًا. إنه يحمل هذا الصندوق ليقطع رأسك ويضعه فيه. ولكن اطمئن، لن يفعل ذلك إلا بعد وفاتك. لقد حكمت له المحكمة ومنحته حق الاستيلاء على رأسك بعد وفاتك إن شاء الله تعالى، لأنه سبق له أن اشترى رأسك يا أستاذ رمزي. هل في هذا ما يضيرك؟ ليس في هذا أي ضرر أو إزعاج لاسمح الله. الرجل يريد أن يستولي على أملاكه!

قال رمزي محاولًا السيطرة على أعصابه التي أوشكت أن تفلت منه:

- أنت تعلم كل ذلك يا شاويش وتصحبه لتحميه مني؟!

قال العسكري وهو يفتل شاربه الكث:

- إنني أساعده على تنفيذ حكم حكمت به المحكمة، هل في هذا شيء غريب؟ افرض يا أستاذ رمزي، وأرجو عدم المؤاخذة، افرض وأنت جالس في أي مكان، أو وأنت في سيارتك أتاك القدر المحتوم وقبض عزرائيل روحك بغتة، أليس من الضروري في هذه اللحظة أن يكون مع الأستاذ جابر أحد العساكر ليساعده على الحصول على أملاكه؟!

قال رمزي وكأنه يحدث نفسه:

- حتى الشرطة أصبحت تساعده على ذلك وتسهل له هذه المهمة؟!

قال العسكري وقد انتفخت أوداجه:

- الشرطة في خدمة الشعب يا أستاذ رمزي.

لم يلاحظ رمزي في هذه الأثناء أن عيون جميع رواد الكازينو كانت متجهة نحوه دون أن يعلم أحد منهم ما كان يدور في حوار بينه وبين العسكري. وأقبلت نحوه فتاة خجول تتعثر في خطواتها وقدمت له أوتوجرافًا قائلة:

- تسمح يا أستاذ رمزي تكتب لي أي شيء في هذا الأوتوجراف لأعتز به مدى الحياة؟

رأى رمزي في هذه اللحظة جابرًا قادمًا نحو المنضدة فاختطف الأوتوجراف من الفتاة وألقى به على الأرض وقام غاضبًا، والفتاة المسكينة تنظر إليه في دهشة وخيبة أمل.

عاد رمزي إلى إلهام وقص عليها ما دار بينه وبين العسكري من حوار، فلم تتكلم، ولكنها أخرجت من حقيبتها منديلًا لتجفف به دموعًا انسابت من عينيها.

وقبل أن يحضر الجرسون ما طلباه من طعام قام رمزي في عصبية ووضع على المنضدة جنيهين وغادر المكان هو وزوجته.

جلست إلهام خلف عجلة القيادة وانطلقت السيارة نحو منزلهما في سرعة مفزعة وعربة الشرطة خلفهما تسير بنفس السرعة.

طالت فترة الصمت بين رمزي وإلهام في أثناء الطريق. لم يكن هناك ما يقوله أحدهما للآخر واتجهت السيارة إلى اليسار بعد ميدان الجيزة وانطلقت في شارع الجامعة، وبالقرب من حديقة الحيوان قالت إلهام لرمزي:

- عربة الشرطة لا تزال تتبعنا.

- أعلم ذلك. كان جابر يطاردني بمفرده، والآن يطاردني بمصاحبة الشرطة!

وبعد فترة صمت قالت إلهام:

- لم يكن هناك ما يدعو لترك المكان قبل تناول الطعام.

- هذا الصندوق الذي كان موضوعًا على منضدة ذلك الرجل أراه وكأنه مقبرتي. كيف تطلبين مني تناول الطعام وأنا أرى مقبرتي أمامي؟!

قالت إلهام محاولة تهدئة أعصابه الثائرة:

- ليس قبرًا. إنه صندوق خشبي فارغ، لا أكثر ولا أقل.

قال رمزي في غضب:

- ولكنه سيضم رأسي في يوم من الأيام.

- ومن يدرينا أن ذلك الرجل الذي لا يقل عمره الآن عن ستين عامًا سيعيش ويمتد به الأجل حتى يحصل على رأسك؟

- أعتقد أنه سيعيش طويلًا. سأموت قبله.

- يا ساتر، ولماذا تعتقد ذلك؟

- هذا الرجل يعيش الآن واضعًا نصب عينيه هدفًا يصمم على الوصول إليه. ومن يضع أمامه هدفًا يسعى إليه يعش طويلًا. لقد قرأت ذلك في أحد الكتب. لن يموت هذا الرجل قبل أن يحصل على رأسي.

- وأنت، ألا يوجد لديك هدف تسعى إليه؟

- لقد حققت كل ما كنت أصبو إليه. لم يعد أمامي الآن أي هدف. لقد فقدت الحافز على الحياة.

- طريق الحياة أمامك لا يزال طويلًا، ويجب أن تضع نصب عينيك هدفًا عظيمًا تسعى للوصول إليه.

- لم أعد أفكر إلا في الموت. الموت يطاردني في كل مكان.

- ومن من الناس لا يطارده الموت؟ الموت يجري خلف جميع البشر. كل ما في الأمر أنك تراه ممثلًا في هذا الصندوق الخشبي وغيرك من الناس لا يرونه وقد يكون أقرب إليهم من ذلك الصندوق.

- هنا تكمن المأساة. أنا أرى الموت وغيري لا يراه!

ووصلت السيارة إلى المنزل، وفي أعقابها وصلت سيارة الشرطة وبداخلها جابر والعسكري، وتوقفت بجوار الكشك الذي أقامه جابر بالقرب من منزل رمزي.

غادر رمزي سيارته كما هبطت منها إلهام وتركا سيارتهما بجوار الإفريز أمام المنزل. وقبل أن يدخل رمزي منزله وقف ليلقي نظرة على عربة الشرطة، فوجد جابرًا يهبط منها والصندوق تحت إبطه وبقي العسكري داخل السيارة، واتجه جابر نحو الكشك فجلس أمامه ووضع الصندوق على فخذيه.

جلس رمزي في بهو المنزل حزينًا مطرقًا للأرض وقد استند برأسه على كفيه، وجلست إلهام بجواره في صمت. كانت في هذه اللحظة تفكر في وسيلة تنقذ بها زوجها الذي أشرف على الانهيار، وأضاءت في ذهنها فكرة فقالت لرمزي:

- لقد خطرت لي فكرة لست أدري كيف كانت غائبة عنا. فكرة رائعة فيها خلاصنا من جميع هذه المتاعب!

التفت إليها رمزي وقد شعر كأنه غريق يصارع الأمواج، ويحاول التشبث بأي خيط يلقى إليه وقال:

- وما هي هذه الفكرة التي كانت غائبة عنا؟

- لماذا لا نسافر إلى أي بلد من بلاد الدنيا بعيدًا عن هذا الرجل المجنون؟

- نسافر؟! إلى أي بلد نسافر؟!

- إلى لبنان مثلًا، أو إلى أوربا.

- وهل نعتزل الفن ونعيش هناك مدى الحياة؟!

- كلا. نعود بعد شهر أو شهرين. وفي هذه الأثناء نرتاح من رؤية وجه ذلك الرجل وصندوقه فتهدأ أعصابك.

- وعندما نعود؟

- ربنا يفرجها. نحن لا ندري ماذا سيحدث في خلال هذه المدة. قد يسأم ذلك الرجل الانتظار وتجرفه مشاغل الحياة فيتحول إلى اتجاه غير هذا الاتجاه.

- فكرة لا بأس بها. سأعد العدة للسفر على الفور. نسافر إلى لبنان دون أن يعلم أي إنسان. سيكون سفرنا سرًّا لا يعلمه أحد.

عندما انطلقت الطائرة بأقصى سرعتها في مسارها على أرض المطار وبدأت عجلاتها ترتفع شعر رمزي في هذه اللحظة براحة نفسية وكأنه عصفور انطلق من القفص الذي كان حبيسًا فيه وطار في الفضاء الفسيح اللانهائي. لقد تحرر من الخوف والقلق الذي كان يستبد به طوال هذه الفترة القاسية من حياته.

وعندما كانت الطائرة تعلو وقد ارتفعت مقدمتها تشق طريقها بين الغمام قالت إلهام:

- أعصابك في حاجة ماسة إلى راحة تامة، فأرجوك ابتداء من هذه اللحظة أن تنسى كل ما له صلة بذلك الرجل وصندوقه.

كانت الطائرة قد ارتفعت الآن فوق السحاب، فنظر رمزي من نافذتها وقال:

- بدأت أشعر بالراحة والطمأنينة والأمان، وأسند رأسه على المقعد. لاحظت إلهام أن النوم قد بدأ يداعب جفونه فلزمت الصمت، فهي تعلم جيدًا أنه في أشد الحاجة إلى نوم هادئ عميق بعد ليالي الأرق الطويلة التي عانى منها في الفترة الأخيرة.

وبعد قليل رأته ينتفض ويفتح عينيه في فزع فسألته في لهفة:

- ما لك يا حبيبي؟

- رأيته في الحلم! رأيته يطاردني في زقاق ضيق مظلم والصندوق تحت إبطه وأنا أجري منه وأصرخ مستغيثًا ولا مغيث. ثم وصلت إلى طريق مسدود، فانقض عليّ وفي يده سكين ليقطع رأسي! واستيقظت من النوم!

قالت إلهام لتغير مجرى الحديث:

- تناول طعامك. لم أشأ أن أوقظك عندما أحضرته مضيفة الطائرة.

- ليتك أيقظتني وأرحتني من ذلك الكابوس.

انتهى من تناول طعامه دون أن يشعر بطعمه، وذهب إلى دورة المياه بالطائرة وفي أثناء عودته رأى مشهدًا جعله يتسمر في مكانه ويعتريه الدوار. إذ على مقعد الطائرة الذي يقع خلف مقعده

مباشرة وجد جابر العجباني جالسًا ينظر إليه مبتسمًا وصندوقه على فخذيه وبجواره العسكري!

فرجع إلى مكانه وهو يترنح كالسكران وجلس. نظرت إليه إلهام في دهشة وقالت:

- ما لك؟ هل تشعر بتعب؟!

- انظري خلفك!

ونظرت خلفها، وما إن رأت جابر العجباني حتى ترنحت وسقطت مغمى عليها. فأسرع إليها رمزي واحتضنها وهرعت إليها مضيفة الطائرة واتجهت نحوها عيون جميع المسافرين في قلق وفزع. وبعد أن أفاقت انخرطت في بكاء عنيف. نسي رمزي آلامه وأحزانه وانشغل بإلهام باذلًا كل ما في وسعه ليجعلها تكف عن البكاء.

كان مقعد الطائرة يتسع لثلاثة من المسافرين، وكان بجوار إلهام مقعد خال كما كان بجوار العسكري مقعد آخر خال. ترك رمزي إلهامًا وأخبرها أنه سيجلس بضع لحظات في المقعد الخالي المجاور للعسكري. وانتقل إلى ذلك المقعد. قال لجابر:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

ضحك جابر وقال:

- ألم أقل لك يا أستاذ رمزي إنني سأتبعك كظلك إلى أي مكان تذهب إليه؟

- وكيف عرفت أنني سأسافر على هذه الطائرة؟

- أخبرتني الشرطة بذلك. أخبروني أنك مسافر إلى لبنان على هذه الطائرة وسهلوا لي جميع إجراءات السفر لأتمكن من السفر معك على نفس الطائرة! وهنا نفخ العسكري صدره وقال:

- الشرطة في خدمة الشعب يا أستاذ.. هل تظن أن في استطاعتك أن تفلت منا؟ ألم يكن من الممكن أن يخرج منك السر الإلهي في أية لحظة في أثناء الرحلة؟ والأعمار بيد الله، كيف كان سيحصل الأستاذ جابر على أملاكه في هذه الحالة؟ لذا لا بد أن نكون معك!

صاح رمزي في غضب:

- غير معقول. غير معقول مطلقًا!

وانتفض واقفًا وذهب إلى مكانه بجوار إلهام فوجدها تجفف دموعها بمنديلها.

- لا داعي إذن للبقاء في لبنان. فلنرجع إلى مصر في أول طائرة.

(*) "نريد الحياة" اسم مسرحية لـ د. يوسف عز الدين عيسى.

28

لم يصدق خدم المنزل عيونهم عندما رأوا رمزي وإلهامًا يدخلان بعد يوم واحد من سفرهما. فتحت زعفرانة فمها دهشة وانعقد لسانها عندما رأتهما، فلقد كان من المقرر أن يغيبا عن المنزل شهرًا على الأقل. وعندما دخل رمزي المنزل شعر باكتئاب شديد. لقد أصبح ذلك القصر الفاخر في نظره وكأنه كوخ حقير منعزل يطل على مقبرة!

صعدت إلهام إلى الطابق العلوي بينما بقي رمزي وحده في البهو، وطلب من زعفرانة أن تعد له فنجانًا من القهوة. وبينما كان يحتسي القهوة دق جرس التليفون، فقام والتقط السماعة فسمع صوت مخرج الفيلم الذي كان يستعد لإنتاجه:

- مساء الخير.

رد رمزي عليه بصوت مرتجف:

- مساء الخير. أهلًا وسهلًا.

- ما هي أخبار الألحان يا أستاذ رمزي؟ كان المفروض أن نبدأ تسجيل الأغاني اليوم. ماذا حدث؟

- أنا في أشد حالات التعب والإرهاق. لا يمكنني تسجيل أية أغنية في الوقت الحالي.

- غير معقول. سلامتك يا أستاذ رمزي. صحتك غالية علينا.. مم تشكو؟

- لست أدري ما الذي حدث لي. فقدت القدرة على التركيز والتفكير.

- هل فحصك أحد الأطباء؟

- فحصني عدد من أعظم الأطباء ونصحوني بالراحة وعدم الإجهاد وكتبوا لي عددًا من المهدئات والمنومات. منذ فترة طويلة وأنا لا أنام إلا إذا تناولت الحبوب المنومة، وعندما أستيقظ من النوم أكون في منتهى التعب وأشعر كأنني لم أنم لحظة واحدة.

- يجب أن تعتني بصحتك يا أستاذ رمزي. لا يوجد سوى رمزي واحد في البلد.

شعر رمزي برغبة في البكاء، فوضع سماعة التليفون وانخرط في بكاء عنيف، وعندما حضرت زعفرانة لتأخذ فنجان القهوة وجدت سيدها يبكي، فانطلقت تعدو صاعدة درجات السلم وأخبرت إلهامًا بذلك. فهرولت إلهام هابطة السلم. وجدت رمزي منكفئًا على المنضدة وجسمه يرتعد. فجلست بجواره واحتضنته وشعرت بالدموع تنساب دافئة على خديها. بذلت كل ما في وسعها لتهدئته. وأخيرًا اعتدل في جلسته فجففت إلهام دموعه وصحبته إلى الطابق العلوي، شعر رمزي في أثناء صعوده السلم بأن كل خطوة يخطوها تؤلم رأسه.

ساعدته إلهام على خلع ملابسه وارتداء المنامة. وبينما هو متجه نحو الفراش لينام حانت منه التفاتة نحو النافذة فرأى جابر العجباني جالسًا أمام الكشك الذي أقامه بالقرب من منزل رمزي، وقد وضع الصندوق على فخذيه كعادته وبجواره العسكري.

أخذ رمزي يترنح في أنحاء الغرفة كالطائر المذبوح، وأسرع نحو درج الكمودينو المجاور للسرير، وأخرج مسدسه وصوبه نحو جابر العجباني صائحًا:

- سأقتله وأرتاح منه!

فأسرعت إلهام واختطفت المسدس من يده قائلة:

- هل تضحي بحياتك ومركزك وسمعتك من أجل كلب كهذا لا يساوي قلامة ظفرك؟

ارتمى رمزي على حافة السرير وعيناه ناظرتان نحو النافذة. فأسرعت إلهام بإغلاقها وجلست بجواره وهي ترتعد والمسدس لا يزال في يدها.

بعد حوالي نصف ساعة استعاد رمزي هدوءه، واستلقى على الفراش خائر القوى.

جلست إلهام بجواره ووضعت يدها على جبهته، فالتفت إليها قائلًا:

- لم أعد قادرًا على الحياة في هذا المنزل.

- نبحث عن منزل آخر إذا كان في هذا راحتك.

- توجد فيلا مفروشة للإيجار بشارع الهرم.

- ننتقل إليها.

- ولكن ما الفائدة؟ سيتبعنا أينما ذهبنا.. ومعه الصندوق.

- لماذا لا نقيم في أحد الفنادق فترة من الزمن؟ لن تكون لديه الفرصة لمطاردتك في الفندق.

- فكرة لا بأس بها.

وهرول نحو التليفون وطلب حجز جناح في أحد الفنادق الفاخرة المطلة على النيل، وعاد إلى إلهام وقد شعر ببعض الاطمئنان وقال:

- سنبيت الليلة في الفندق. أخبري مديرة المنزل أننا سنغيب عن البيت شهرًا، ولا أحب أن يعرف أحد مكاننا.

كان الجناح الذي حجزه رمزي في الفندق يطل على النيل. وقفت إلهام تطل على المنظر الساحر الذي يبدو من خلال النافذة والتفتت إلى رمزي وقالت:

- لا أعتقد أن في استطاعة ذلك الرجل مطاردتنا في هذا المكان. من المستحيل أن يصل إلينا هنا. لا يوجد هنا مكان يضع فيه الكشك ولم ألاحظ أنه تنبه لخروجنا من المنزل. ولم تتبعنا سيارة الشرطة في هذه المرة. لقد استرحنا من وجهه القبيح.

- أتعشم ذلك.

في هذه الليلة شعر رمزي برغبة في النوم، فأوى إلى فراشه في نحو العاشرة مساء. كانت الغرفة تضم سريرين، أحدهما بجوار النافذة والثاني في الجانب الآخر من الغرفة. نام رمزي على السرير المجاور للنافذة وترك السرير الآخر لزوجته.

بعد فترة قصيرة كان قد استسلم لنوم عميق لم يسعد بمثله منذ فترة طويلة، فتركته إلهام نائمًا وجلست في غرفة الصالون بالجناح تقرأ إحدى المجلات.

وبعد نحو ساعة سمعته يصرخ بأعلى صوته قائلًا:

- الحقيني يا إلهام الحقيني!

ألقت إلهام المجلة على الأرض وهرعت إليه وقد استبد بها الفزع، فوجدته جالسًا في الفراش يلهث. سألته في لهفة وهي ترتعد:

- ماذا حدث؟

- الحمد لله، كان حلمًا. كنت أظنه حقيقة.

- ماذا رأيت في هذا الحلم؟

- نفس الحلم الذي رأيته في الطائرة. رأيته يطاردني في مكان مظلم والصندوق تحت إبطه وفي يده سكين يريد أن يقطع بها رأسي. ظللت أجري في خوف شديد لأعثر على مكان أختبئ فيه. وأخيرًا عثرت على منزل مهجور متهدم، فلجأت إليه وإذا به يكتشف مكاني ويطاردني في ذلك البيت.

- كابوس مريع. إن ما رأيته في الحلم يا حبيبي انعكاس لأفكارك. إنك دائم التفكير في هذا الرجل. حاول ألا تفكر فيه. اطرده من ذهنك ولا تعره أدنى اهتمام.

قال رمزي في يأس:

- كيف أمنع نفسي من التفكير فيه؟ إنني أفكر فيه على الرغم مني. لقد تعبت. أنا مريض، لقد أصبح يطاردني حتى في أحلامي!

في الصباح، استيقظ رمزي في نحو العاشرة. شعر برغبة في الذهاب إلى الاستديو لتسجيل إحدى أغاني الفيلم الجديد، فتناول إفطاره هو وزوجته في غرفتهما. وبينما هما يغادران جناحهما في الفندق إذا بذلك الرجل، جابر العجباني واقفًا عند باب الجناح والصندوق تحت إبطه والعسكري بجواره!

وقف رمزي ناظرًا إليهما مشدوهًا فسحبته إلهام من ذراعه في صمت واتجها نحو المصعد وإذا بجابر والعسكري يتبعانهما ويقفان معهما في انتظار المصعد. ووصل المصعد ولم يكن به سوى الصبي الذي فتح الباب وخرج في انتظار دخول المنتظرين. دخلت إلهام ثم رمزي وفي أثرهما جابر والعسكري. وهبط المصعد بهم. وعندما وصل إلى الطابق الأرضي فتح الصبي الباب وخرج رمزي وإلهام واتجها إلى سيارتهما دون أن يلتفتا خلفهما. جلست إلهام خلف عجلة القيادة وبجوارها رمزي وانطلقت بهما السيارة نحو الاستديو بشارع الهرم.

نظرت إلهام إلى مرآة السيارة فوجدت سيارة الشرطة تنطلق خلفهما. قالت لرمزي:

- سيارة الشرطة تتبعنا وبداخلها جابر والعسكري.

طلب منها رمزي أن توقف السيارة فاستجابت لطلبه وأوقفتها، فتوقفت على الفور سيارة الشرطة.

قال رمزي لإلهام:

- ارجعي للمنزل.

قالت في دهشة:

- والأغنية؟ ألا تسجلها اليوم في الاستديو؟

- لن أسجل شيئًا، أرجعيني للمنزل.

استدارت السيارة واتجهت في الاتجاه المضاد منطلقة نحو المنزل، فاستدارت سيارة الشرطة وسارت خلفهما في نفس الاتجاه.

عندما دخل رمزي منزله شعر برغبة لا سلطان له عليها تدفعه لأن يحطم أي شيء. فأمسك بإحدى الزهريات الفاخرة وقذف بها إلى الأرض فتحطمت وتناثرت أجزاؤها، ولم يدر لماذا فعل ذلك!

29

في الصباح استيقظت إلهام وكان رمزي لا يزال نائمًا بسبب الحبوب المنومة التي ابتلعها في الليلة السابقة. فلم تشأ إلهام أن توقظه وغادرت الغرفة وهبطت إلى البهو.

صحا رمزي من نومه في نحو الثانية عشرة ظهرًا، فقام متكاسلًا وفتح نافذة الغرفة فإذا به أمام مشهد جعله يفتح فمه مشدوهًا. رأى جابر العجباني واقفًا يطل مبتسمًا من نافذة إحدى غرف العمارة المقابلة لمنزل رمزي وفي نفس مستوى غرفة نومه وقد وضع الصندوق على حافة النافذة وبجواره العسكري منهمك في فتل شاربه!

أسرع رمزي بإغلاق النافذة بحركة شبيهة بالحركة الانعكاسية التي يفعلها الإنسان بدون تفكير عندما يثني يده في مثل لمح البصر عندما تلسعها النار أو يلدغها عقرب. وشعر كأن رأسه قد كبر حجمه وازداد وزنه وأصبح عنقه لا يقوى على حمله. فسار مترنحًا وهبط السلم وهو يكاد يسقط إعياء. وما إن رأته إلهام وهو على هذه الحال حتى هرعت إليه شاحبة الوجه، وقبل أن تصل إليه سقط على الأرض!

صرخت إلهام وارتمت عليه وضمته لصدرها، وأقبل جميع الخدم مهرولين فوجدوا رب البيت في حالة إغماء. وضعت إلهام رأسه على فخذيها وصاحت:

- اطلبي الدكتور يا زعفرانة!

فأسرعت زعفرانة إلى التليفون وطلبت الطبيب. وقبل أن يصل الطبيب كان رمزي قد أفاق من إغمائه، وظل محملقًا في وجه إلهام وكأنه يراها لأول مرة، ثم قال:

- أين أنا؟ أين الصندوق؟!

وقام وأخذ يدور في أنحاء البهو وإلهام حائرة لا تدري ماذا تفعل! ثم صاح فجأة قائلًا:

- الصندوق في النافذة أمام نافذة غرفة نومي. الرجل هناك في النافذة. سأكسر رأسه، سأضربه بالرصاص.. لم أحتمل منظر الصندوق! لا أريد أن أعيش.. أريد أن أموت.. أريد أن أموت!

فلم تفهم إلهام شيئًا وظنته يهذي فأجهشت بالبكاء وصاحت:

- لماذا لم يأت الدكتور؟ لماذا لم يحضر؟!

قالت زعفرانة بصوت متهدج مرتعش:

- طلبته بالتليفون يا سيدتي، وقال إنه سيحضر في الحال.

واستمر رمزي يصيح:

- رأيته في النافذة ومعه الصندوق. النافذة التي تطل على غرفتي! فأدركت إلهام أن زوجها ربما يكون قد رأى شيئًا مفزعًا من خلال نافذة من نوافذ المنزل المطل على منزلهم. فأسرعت إلى حجرة النوم في الطابق العلوي وفتحت النافذة فرأت ذلك الرجل لايزال واقفًا يطل من النافذة المقابلة لنافذة غرفة النوم واضعًا الصندوق على حافة النافذة وبجواره العسكري، ففهمت كل شيء.

هبطت السلم مسرعة وطلبت من أحد الخدم أن يذهب إلى بواب العمارة ويستفهم عن سر وجود جابر والعسكري في ذلك المنزل.

ذهب الخادم وعاد ليقول إن البواب أخبره أن جابر العجباني قد استأجر الشقة المطلة على منزلهم ودفع مبلغًا طائلًا للحصول عليها!

في هذه اللحظة دق جرس الباب. فهرولت زعفرانة وفتحت الباب ودخل الطبيب، كان رمزي لا يزال واقفًا يدور في أنحاء البهو، ولما رأى الطبيب صاح:

- ماذا تريد مني؟ أغرب عن وجهي.. اتركني وشأني. أنا لا أريد أن أرى أحدًا!

ثم هوى بجسده فوق أحد المقاعد مطرقًا للأرض وممسكًا رأسه بيديه، ثم بدأ يرتعد، فقال له الطبيب:

- جئت لعلاجك يا أستاذ رمزي.

صاح رمزي بأعلى صوته:

- لقد فحصتني مائة مرة ولم تفلح في علاجي. لا يوجد لديك سوى الحبوب المنومة. الحبوب المنومة ستقتلني.. لن يقدر على علاجي أحد!

طلب الطبيب كوب ماء وملعقة وملأ الملعقة بسائل صبه في زجاجة كانت في حقيبته وقدم لرمزي الكوب طالبًا منه أن يشرب ما فيها، فأخذ رمزي الكوب وأفرغ محتوياته في معدته قائلًا:

- لقد كنت ظمآن.

ثم سحبه الطبيب من ذراعه وصعد معه السلم، وسبقتهما إلهام إلى غرفة النوم وأقفلت نافذتها. طلب الطبيب من رمزي أن يستريح في الفراش، وقام بفحصه فحصًا دقيقًا. وبعد لحظات كان رمزي في سبات عميق.

سألت إلهام الطبيب بلهفة:

- ماذا به يا دكتور؟

- انهيار عصبي. وأهم ما يلزمه الآن النوم. لا بد أن ينام ثماني ساعات على الأقل كل يوم.

وكتب قائمة من العقاقير ليتناولها رمزي وقال:

- إذا حدث ما يستوجب استدعائي فأرجو الاتصال بي فورًا.

في اليوم التالي استيقظ رمزي في منتصف النهار تقريبًا. كانت إلهام جالسة على كرسي بالقرب من سريره. نظر رمزي إلى النافذة فوجدها مغلقة. قال لإلهام:

- أنا لن أبقى في هذا المنزل بعد اليوم. سننتقل إلى الفيلا المفروشة التي في شارع الهرم. سننتقل إليها في الحال.

قالت إلهام:

- افعل ما تريد يا حبيبي. أنا لا تهمني سوى راحتك.

30

انتقل رمزي وإلهام وجميع الخدم إلى المسكن الجديد بشارع الهرم. كان ذلك المنزل من طابقين وتحيط به حديقة رائعة. وكانت غُرفة النوم بالطابق العلوي تطل على الجانب الخلفي من الحديقة.

في أول ليلة في هذا المنزل أوى رمزي إلى فراشه مبكرًا بفضل العقاقير المهدئة والمنومة التي تناولها. ولكنه استيقظ مبكرًا في نحو الثالثة صباحًا، وحاول النوم بعد ذلك فلم يستطع فقام من فراشه وهبط السلم. كان الظلام يغمر البهو في تلك الساعة المبكرة من الصباح، فضغط رمزي على زر الإضاءة فغمر الضوء البهو. وفي هذه اللحظة صرخ صرخة رعب، فلقد رأى جابر العجباني جالسًا في البهو وبجواره الصندوق، والعسكري جالس بالقرب منه!

استيقظت إلهام من نومها على صرخة رمزي وانتفضت واقفة في فزع، كما صحا جميع الخدم، هرع الجميع إلى البهو فوجدوا جابرًا لا يزال جالسًا في مكانه وكأن الأمر لا يعنيه، وقد وقف

بجواره العسكري مصوبًا مسدسه نحو إلهام والخدم ويده على الزناد، ورمزي يدور في أنحاء البهو صارخًا في رعب شديد. فتح السفرجي نافذة البهو وصاح بأعلى صوته:

- الحقونا. الحقونا يا ناس. حرامي.. حرامي.. الحقونا.

ولكن صراخه ذاب في الفضاء ولم يسمعه أحد. وهجم الطباخ والسفرجي وأحد الخدم على جابر محاولين الفتك به، فتصدى لهم العسكري مصوبًا مسدسه نحوهم صائحًا:

- حذار أن يقترب منه أحد.

وأقبلت إلهام نحو رمزي في لهفة، فأجفل منها وابتعد عنها. فاقتربت منه ووضعت يدها على رأسه في حنان ولكنه ألقى بيدها بعيدًا عنه صائحًا:

- لا! ابعدي يدك عن رأسي.. ماذا تريدين مني؟!

قالت إلهام وهي ترتجف:

- أنا إلهام، زوجتك.

فأخذ رمزي يحدق في وجه إلهام ولكنه لم يره كما اعتاد أن يراه وجهًا رائع الجمال. رآه في هذه المرة وكأنه مصنوع من الشمع، وأن هذا الشمع قد بدأ ينصهر، فيرى الأنف يستطيل ويعوج والفم يتهدل والعينين يغيب عنهما السواد، ثم تهبط إحدى العينين وتصبح في مستوى الفم. فصاح في رعب.

- ابعدي عني.. منظرك يفزعني!

فأجهشت إلهام بالبكاء. وكان العسكري في هذه الأثناء لا يزال واقفًا متحفزًا ومسدسه في يده يصوبه لكل من تحدثه نفسه بالاقتراب من جابر الذي ظل جالسًا في مكانه مبتسمًا وكأنه يشاهد فيلمًا سينمائيًّا!

اختفت إلهام داخل المنزل مهرولة وعادت ومعها كوب ماء أضافت إليه بعض العقاقير، وقالت لرمزي وهي لا تزال ترتجف:

- خذ يا حبيبي اشرب هذا الماء.

فلطمها رمزي على يدها لطمة قوية أطاحت بالكوب وصاح:

- أنت تريدين قتلي! تضعين لي السم في الماء. ابعدي عني.. ابعدوا عني جميعًا. لن أترك رأسي لأحد! رأسي ملكي أنا! رأسي لن يأخذه مني أحد!

ثم أمسك رأسه بكلتا يديه وأخذ يدور في أنحاء البهو صائحًا:

- لن أترك رأسي من يدي.. سأظل ممسكًا به.. لن يأخذه مني أحد!

ثم انفجر باكيًا بكاء عنيفًا، وتحول البكاء إلى ضحكات هستيرية. ونظر إلى من في البهو فرآهم جميعًا وكأنهم تماثيل من الشمع الذي أخذ ينصهر. وجوه غريبة ممسوخة مشوهة، عيونها وآذانها وأنوفها في غير موضعها. وعاد يبكي من جديد ثم يضحك!

ظل جابر العجباني في أثناء كل هذا جالسًا في مكانه واضعًا الصندوق على فخذيه والعسكري خلفه ومسدسه في يده يصوبه إلى كل من يحاول الاقتراب من جابر.

وسقطت إلهام مغمى عليها فأسرع إليها الخدم محاولين إفاقتها. واستمر رمزي يهذي باكيًا ثم ضاحكًا، ثم يختلط ضحكه ببكائه!

نظر جابر إلى العسكري وقال:

- انتهى الأمر وأسدل الستار. لقد فقد عقله. مسكين لم يعد له رأس. لقد انتَصَرْت عليه!

وقف جابر والصندوق بين يديه والعسكري واقف بجواره والمسدس لا يزال في يده وأصبعه على الزناد ليحمي جابرًا من أي اعتداء، ثم ألقى جابر الصندوق على الأرض قائلًا:

- لم أعد في حاجة لهذا الصندوق. لم يعد لرمزي رأس. ما فائدة رأس بلا عقل؟! رأسه الآن لم يعد يساوي مليمًا واحدًا. لقد أفقدته رأسه. لقد انتصرت عليه. لم يستطع أحد أن يحميه مني. لم يستطع أحد أن يحميه مني.

وغادر جابر المنزل وخلفه العسكري يسير بظهره نحو الباب ومسدسه مصوب نحو أهل المنزل.

وخرجا من باب المنزل، وأقفل العسكري الباب خلفه. وعندما رأى رمزي الصندوق ملقى على أرض البهو صاح:

- الصندوق يجري خلفي.. الصندوق يجري خلفي!

واستمر يضحك ويبكي. وإلهام ما زالت ملقاة على الأرض في غيبوبة وزعفرانة تبكي وتولول، وباقي الخدم حائرون لا يدرون ماذا يفعلون!

انتهت

د. يوسف عز الدين عيسى في سطور

دكتور "يوسف عز الدين عيسى" أحد الشخصيات البارزة في القرن العشرين، فهو أديب ومفكر مصري،حصل على جائزة الدولة التقديرية في الأدب 1987، و رشح لجائزة نوبل، وله مدرسة خاصة في الكتابة حيث يختلط الخيال و الحلم بالواقع بشكل رمزي، ليخلق تحليلا دقيقا لعالمنا الحديث الواقعي الذي نعيشه اليوم.

جمع بين العلم والأدب في أعلى درجاتهم فهو أيضا أستاذ جامعي بكلية العلوم، حصل على الدكتوراه من جامعة شيفيلد بإنجلترا واختارته منظمة "فولبرايت" أستاذا زائرا في جامعتي بركلي والينوي في الولايات المتحدة. مارس التدريس الجامعي والبحث العلمي وأشرف على مئات الأبحاث وشجع الأنشطة الثقافية والإبداعية في الجامعة، وقد عمل أيضا رئيسا للقسم وأنشأ قسم علم الحيوان في جامعات أخرى في نفس الوقت، هو أيضا الأديب الحاصل على أعلى الأوسمة في هذا المجال.

والدكتور يوسف عز الدين عيسى مارس كل أنواع الأدب من رواية قصه قصيرة.. مسرح.. شعر. هو أيضا رائد الدراما الإذاعية والتلفزيونية في مصر والشرق الأوسط، وتتميز كتاباته بالتشويق الشديد والأسلوب السلس، وقد استمر يجمع بين العلم و الأدب حتى آخر يوم في حياته.

أعمال الدكتور يوسف عز الدين عيسى متنوعة لتنوع ثقافته. تأثر كثيرا بروح العصر بكل ما فيه من علم وأدب وفلسفات وفن وموسيقى وكل مظاهر الحداثة، ورغم أنه في أعماله دائما يتحدث عن الإنسان وحقيقة الوجود ويغوص في النفس البشرية ليصل إلى أغوار البشر، إلا أن أسلوبه يعدّ سهلا.. شاعريا يشد القارئ إلى آخر كلمة. وتتميز أعماله باستعماله للرمز لإظهار الفكرة في العمل، وهو يدخل في سياق الأدب الفكري، فهو له مضمون ورسالة يبغي أن تصل للمتلقي، ولذلك فهي فريدة في الأدب العربي.

لقد كتب دكتور يوسف عز الدين عيسى تسع روايات: "الواجهة" و"الرجل الذى باع رأسه" و"عواصف"، "العسل المر"، و"لا تلوموا الخريف"، و"التمثال"، و"عين الصقر" ، و"ثلاث وردات و شمعة" و"الأب" . وله مجلدات في القصة القصيرة، "ليلة العاصفة و قصص أخرى" ، "البيت و قصص أخرى"، "غرفة الانتظار"ومجلد" نريد الحياة و مسرحيات أخرى"، و له عدد كبير من الأشعار و الأغاني إلى جانب كتاباته للدراما الإذاعية التي تصل إلى حوالي أربعمائة عمل.

إلى جانب الأعمال الأدبية، كتب الدكتور "يوسف عز الدين عيسى" ما يفوق المائة مقال وعمودا أسبوعيا في جريدة الأهرام وغيرها من الصحف والمجلات الكبرى في مصر والعالم العربي. وقد كتب أيضا مقالات تحليلية قدم فيها أدباء عالميون إلى العالم العربي. وقد شارك د. يوسف عز الدين عيسى في مئات الندوات الثقافية، وقدم أدباء شبانا للحلقة الفكرية. وكان أيضا رئيسا لنادي القصة وعضوا بالمجلس الأعلى للثقافة والفنون وعضوا في اتحاد الكتّاب و مستشار تحرير مجلة الشاطئ

ومدير التحرير الثقافي لجريدة "الأيام"، ويدين له بإنشاء قسم المسرح بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية.

في عام 1987، مُنح جائزة الدولة التقديرية في الأدب، وهو أول أديب مصري يُمنح هذا التكريم وهو يعيش خارج العاصمة (الإسكندرية) وحسب حيثيات اللجنة: " ..أنه أسس مدرسة جديدة في الكتابة الأدبية تأثر بها الكثير من الأدباء..." . وكان الدكتور يوسف عز الدين عيسى قد حصل على جائزة أخرى من الدولة أيضا عام 1978 لأعماله الإذاعية، وقد ذكرت اللجنة أن من ضمن حيثيات حصوله علي الجائزة أن .."تحولت الدراما الإذاعية على يديه إلى نوعٍ رفيعٍ من الأدب..".

ومن الأوسمة الأخرى التي حصل عليها الدكتور يوسف عز الدين عيسى، وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى مرتين، عام 1979 ومرة أخرى عام 1988 ، ووسام الجمهورية عام 1981، واليوبيل الفضي والذهبي للإذاعة والتليفزيون. وقد مُنح الدكتور يوسف عز الدين عيسى وسام "فارس الأدب" في عام 1999، وكان ذلك قبل رحيله بأشهر قليلة وقد مُنح هذا الوسام : .."لدوره الرائد في إثراء الحركة الأدبية .. ".

وقد اختير الدكتور "يوسف عز الدين عيسى" كأفضل شخصية أدبية في مصر" لعامي 1998 و 1999.

في عام 2001، سُميت قاعة المحاضرات في مركز الإبداع (قصر ثقافة الحرية، سابقا)، بقاعة "الصالون الثقافي ليوسف عز الدين عيسي" ليكون اسمه رمزا للعطاء الفكري.

الموقع الرسمي لـ د. يوسف عز الدين عيسى

eassa1914@yahoo.com

الصفحة الرسمية FaceBook

Youssef Ezeddin Eassa

***

أعمال أخرى لـ د. يوسف عز الدين عيسى في المصرية اللبنانية:

- الواجهة.

- عواصف.

- العسل المر.

- غرفة الانتظار.